

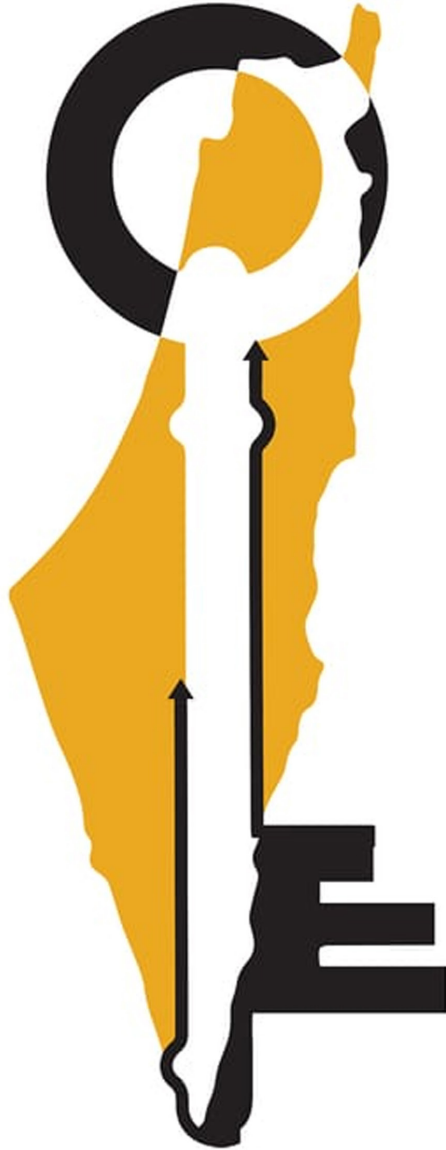
العدد

59

صيف 2023

التجارب

فكرية فصلية محكمة



◀ (مجلّة العالمية للعودة إلى فلسطين)

Photo de profil 17 Octobre 2022

« اتجاه » فكريّة فصليّة محكمة،

المدير المسؤول: د. أنور خطار

رئيس التحرير: د. علي حمية

العنوان: فرات للنشر، رأس بيروت، بيروت، لبنان. ت: 00961 1 750053 – 00961 70 543166

البريد الإلكتروني: editor@ittijah.info

www.ittijah.info

Ittijah: revue culturelle trimestrielle, Rédacteur en chef: Dr. Ali Hamiyeh.

Adresse: C/O Furat Publishers, Ras Beyrouth, Beyrouth, Liban,

tel: 00961 70 543166.

اتجاه

فكرية فصلية محكمة

العدد 59

صيف 2023

محتويات العدد

- 3 علي حمية الذكرى الخامسة والسبعون للنكبة
- 5 روبرت معوض فلسفة هيغل الفنية
- 51 بلال علي الحاج سليمان مقومات الإستثمار في الإقتصاد المعرفي
- 75 عدنان الأحمد من السؤال الفلسفي، إلى فلسفة السؤال
- 99 علي ناصر الدين لسانيات النصّ وتجلياتها في فنّ القصّة القصيرة
- 117 حسين محمود حربّة مظاهر التربية المدرسية وطرائق تكاملها ما بين التنظيم والتنظير.
- 139 حنان مطر تأثير الأزمة المالية على الاستقرار النفسي لدى الزوجين
- 1 On the Healing Role of Philosophy Dr. Eliane Saade
- 21 Knowledge Management Strategies to Improve the Quality of Education Laurence Ajaka & Liza Der Khachadourian
- 33 The Power of Weblogs in Developing Language Skills of ESL Learners Houssama Hamadeh
- 45 Etude sur la dichotomie entre la modernité et l'islam Chez Daryush Shayegan Mirna Keyrouz
- 57 KNOWLEDGE, ATTITUDE AND PRACTICE OF NURSES TOWARDS ANTIBIOTIC USE AND RESISTANCE Bassel Harfoush Sally Mahmoud Ruba Timraz Imane AZZAM Nassab AZZAM
- 67 TRAVAIL EN EQUIPE. LES AVANTAGES ET LES PORTEES Nassab AZZAM Imane AZZAM
- 79 QUALITY OF LIFE AFTER RECOVERING FROM COVID-19 Lama Seed - Haneen Olabi Maher Younes - Nassab AZZAM - Imane AZZAM
- 93 Adolescence, malaise et acting-out Bella Aoun

15 أيار 1948 - 15 أيار 2023: الذكرى الخامسة والسبعون للنكبة

علي حمية

أستاذ جامعي

عشيّة الذكرى الخامسة والسبعين لـ“يوم النكبة”(15 أيار 1948)، تنتفض فلسطين، كلها، بساحلها وسهلها وجردها والهضاب، ببحرها ونهرها وجليها وغزّة وما بعدها وما حولها من بقاع ممتدّة مدى العين، تنتفض فلسطين، كما لو أنها تنتفض، لأول مرّة، على وقع “صواريخ العطار” ترافقها أهازيج الفتية وزغاريد النسوة وأصوات المكبرين، مهذّدة، بالزوال والمحق، كيان العدو اليهودي الذي يهتّز، مترنحاً، ذات اليمين وذات الشمال، قارعاً ناقوس الخطر في إشارة إلى العاصفة التي تتهدّده قبل أن ينهار، تماماً، فوق رؤوس لاجئيّه ويتحول إلى مجرد حكاية بليدة ممجوجة.

هذا يحدث، اليوم، في شهر أيار 2025، أما في أيار 1948، فثمة شبان دافعوا باللحم الحيّ، تارة، وبسلاح قديم وذخيرة قليلة، تارة أخرى، عن مدنهم وقراهم ومنازلهم، تدعمهم مجموعات من المتطوعين من سائر بقاع الوطن السوري، وبذل الجميع جهوداً عظيمة ولكنها لم تكن كافية لإيقاف الإستيطان الصهيوني وإبطال مشروع الدولة اليهودية الغازية.

إلى أولئك الشبان والمتطوعين، يوم ذاك، ثمة حكومات وأنظمة: بعضها تواطىء مع الغازي الجديد فمنع التطوع وحجب المساعدات عن المجاهدين على جبهات القتال، وبعضها دخل الحرب طمعاً في حبة تراب من فلسطين، وبعضها وقف موقف المتفرّج في انتظار ما سينجلي عليه الموقف. هكذا دخلت بعض الجيوش أرض فلسطين عام 1948 ولكن دخولها الحرب لم يغيّر من المسألة الفلسطينية غير ما أسماها أنطون سعاده، مؤسس الحزب السوري القومي الإجتماعي، يومها، “الناحية السورية”، فكل ما حدث هو أن المنطقة التي كانت لا تزال “سوريّة” في فلسطين قد تجزّأت

بين السوريين والمصريين ، إذ احتلّ الجيش المصري جزءاً هاماً من جنوب فلسطين واستولى على منطقة النقب الغنية بالنفط، وجرت مفاوضات لجعل ملك الأردن (عبدالله)، الحجازي الأصل، الذي أعلن ضمّ الضفة الغربية لنهر الأردن إلى إمارته تحت مسمى: "المملكة الأردنية الهاشمية"، لجعله يتنازل لابن السعود (عبد العزيز) عن العقبة السورية فتخسر سورية العقبة وتتقلص شواطئها عند البحر الأحمر. إن الجيوش التي دخلت فلسطين عام 1948 لم تدخل لتحرّر فلسطين بل لتستولي على ما تبقى من فلسطين!

هكذا، هو المشهد اليوم: من جهة، شعب بأكمله ينتفض ضد المحتل زارعاً الرعب بين مستوطنيه، عازلاً مناطق بأكملها عن سيطرة جيشه، مستعيداً، لأول مرّة، زمام المبادرة في قرى ومزارع كان، لعقود طويلة، يحسب نفسه غريباً عنها، بل لاجئاً فيها، بإرادة العدو، لا بإرادته هو. ومن جهة أخرى، نجد حكومات عربية وخليجية، تحديداً، بعضها طبع سراً، منذ سنين، وبعضها يطبع، اليوم، في احتفاليات مهينة، وينغمس جهاراً، مع العدو، في علاقات اقتصادية وأمنية وسياحية ودبلوماسية، ويفتح، بوقاحة ما بعدها وقاحة، "حارات" و"كنيس" و"أسواق تجارية" على امتداد إماراته ومشيوخاته: كاراخانات كانت، لفترة قريبة، سرّية، وما لبثت فصولها تتكشف، يوماً بعد يوم، فاضحة زيف "عروبتهم" و"إسلامهم".

إذ نستعيد كلمات سعادته ومواقفه، على امتداد المرحلة التي سبقت إعلان اغتصاب فلسطين عام 1948 وشهدت اغتصابها ورافقت محاولات استرجاعها وتحريرها والتي يتردّد صداها، اليوم، في القدس واللّد والرملة وغزة وسائر فلسطين، فإننا، كمواطنين متمسكين بالعودة إلى فلسطين وطرد المغتصب منها، ندعو إلى ما حالت الإرادات الأجنبية وأذئابها دون الدعوة إليه في الماضي وما لا تزال تحاول الحوّل دون الدعوة إليه في الحاضر، ندعو الأحزاب السورية في شرق المتوسط، القومية و"الكيانية" الهويّة، بالسواء، إلى عقد مؤتمر مستعجل تُقرّر فيه إرادة الأمة وخطتها العملية في صدد فلسطين وتجاه الأخطار الخارجية جميعها، وندعو السوريين، على امتداد الجغرافية السورية في الهلال الخصيب، إلى نبذ الحزبيات الدينية والتأويل الطائفية البغيضة، تلك الحزبيات التي أوّلت الدين تأويلاً فاسداً وقالت غير ما قال الله. وندعو العالم العربي إلى تأييد سيادتنا على أرضنا وحقنا في وطننا. كما ندعو الدول الكبرى إلى احترام حقنا في الحياة والحرية والإستقلال والتقدم. وندعو دول جوار فلسطين كافة إلى إزالة نظام جوازات السفر والفيزا وما إلى ذلك من معوقات العبور والتراتيزت فيما بينها وبين فلسطين، لكي يُصبح في مقدور كل لبناني وكل شامي وكل أردني وكل عراقي وكل كويتي وكل قبرصي أن يدخل فلسطين، مجاهداً كان أو سائحاً، كلما شاء، ولكي يصير في مقدور كل فلسطيني أن يدخل كل دولة من هذه الدول، عابراً أو متجولاً أو سائحاً أو عاملاً أو مقيماً، موسمياً أو بشكل دائم. بحرية تامة.

فلسفة هيغل الفنية (دراسة تحليلية)

روبير مطانيوس
معوّض

مقدمة

يعتبر هيغل من كبار الفلاسفة إبان عصره وتعتبر فلسفته من الأعمال الفلسفية الكبيرة الواسعة الأفق، وكان من الذين ثاروا على النظريات الاقتصادية الماركسية وأرسوا دعائم المثالية المطلقة، وكان له مذهبه الخاص الذي عُرف بالمدرسة الهيجلية وتبعه ظهور أتباع التيار الهيجلي، وبالتالي كان اتجاه هيغل ميتافيزيقياً في عرضه لمذهبه الفنّي حيث بدأ بحثه في الفكر والمثال وتفسير إشكالية الشكل والمضمون في فلسفته الجمالية وفي أعماله الفنية، وطرح نظريته من خلال الأنماط الثلاثة الرئيسة التي فسّر بها تطور الفنّ عبر الحضارات البشرية المتعاقبة، وقدم خصائص الفنون الجميلة مبيناً رؤيته الواسعة وإحساسه العالي في تذوّق الفنون ووضّح مهمّة الفن الرفيع في التعبير عن الروح المطلق، والأكثر من ذلك عرضه الدور الفعّال الذي يقدمه الفنّ في خدمة العقائد الدينية والطقوس السحرية وتجسيد الأسطورة، وبالتالي التوصل إلى العلاقة الجدلية التي تربط ما بين الدين والفلسفة والفنّ واعتبارها مظهراً للروح المطلق.

يشغل الفنّ حيزاً خاصاً وحلقة محورية في الثقافة الجمالية لا سيما بعد التطوّر العلمي وانتشار الوسائل الإعلامية المتنوّعة وشبكة الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي حيث بدأ تأثيره يتزايد ويستحوذ كثيراً على عقول الناس، فأصبح ظاهرة حياتية توجّه سلوك الأفراد على كافة المستويات الثقافية والاجتماعية والسياسية.

أستاذ الفلسفة في
الجامعة اللبنانية
- كلية الآداب
والعلوم الإنسانية
- الفرع الأول

ويُطلق لفظ الفنّ على جملة من الأنشطة ذات القواعد والأساليب التعبيرية الخاصّة التي تستهدف إثارة الشعور باللذة الجمالية وينعكس هذا الفنّ في بعض الموضوعات الحسيّة كالنحت أو الرسم والزخرفة، وهذا الفنّ يتبعه القليل من الناس، لأنه ينشد الطابع الروحي فقط، وهذا من جهة المفهوم الخاص للفنّ. أما من جهة المفهوم العام، فيُعرّف على أنه جملة من الاساليب والقواعد التي تتبعها في إنجاز نشاط أو عمل معيّن لتحقيق هدف أو غاية محدّدة سواء كانت مباشرة كتحقيق منفعة استعمالية كالصناعة على سبيل المثال لا الحصر، كما يكون تحقيقه بصورة غير مباشرة كالدعوة إلى القيم الدينية والأخلاقية، وهنا يكون الفنّ نشاطاً أو علماً عملياً.

يدرس هيغل الفن كنشاط إنساني يعبر عن الحقيقة. وفي إجابته عن سؤال أساسي وهو كيف يُمكن للفنّ أن يعبر عن الحقيقة؟ كما يكتشف حقيقة الفن ودوره في التعبير عن الوعي الإنساني في مختلف الحضارات. ولذلك فهو لا يقدم دراسة نظرية خالصة للفنّ، بل يتجاوز إلى تقديم دراسات نظرية خالصة لكلّ فنّ من الفنون الجميلة، والسمات الخاصة لكلّ فنّ في عصوره المختلفة.

لقد لازم الفن الإنسان القديم الذي بدأ بزخرفة جدران الكهوف التي استوطنها وعاش فيها. وقد انقسم الدارسون الأوائل لرسوم الكهوف والمغاور إلى فريقين: فريق يرى بأنّ هذه الرسوم هي بمثابة أدوات سحرية استُخدمت في طقوس تستهدف السيطرة على الطرائد والإيقاع بها، وذلك استناداً إلى مبدأ السحر التعاطفي، وهذا النوع من الفنون قد ساد في الدراسات الأنثروبولوجية، وفريق آخر يرى بأنّ هذا الفنّ قد أنجز لغايات جمالية وفتية بحتة.

وإن اختلفنا حول أسباب وغايات هذه الرسوم، فلا يمكننا أن نختلف على جمالها، فقد حرص من رسمها على إظهارها بأشكال جميلة مزخرفة الألوان، وتمّ تصويرها في حراك نابض بالحياة يعبر عن نشاط الصيد، وهو النشاط الرئيسي لإنسان الكهف آنذاك فكأنه يسعى إلى تخليد ذكراه، وترسيخ وجوده، من خلال رسومات جميلة، وأقبل على ذلك تلقائياً من دون تكلف أو تصنّع، وهنا يكمن جوهر الجمال والفنّ، إذ أنّ التعبير هو تعبير تلقائي عن روح الإنسان وخلوده، يدفعه إلى ذلك غريزة مستحكمة في طبيعته الإنسانية التي تحو به إلى التعبير عن ذاته تعبيراً جمالياً، فيقول بإبداع هذه العاطفة في المادة المحسوسة، لكي تبقى بعد أن يفنى. وهذا ما سنشده جلياً وواضحاً في فلسفة هيغل الفنية.

وانطلاقاً من هذه المقدمة، أرى من المهم الوقوف على بعض الآراء في فلسفة الفنّ، لعلّ

هذا يعيننا على فهم إسهامات هيغل في هذا الشأن عندما يأتي الحديث عن مفهوم الفنّ لديه رغم أن الإنسان اهتم بالفنّ منذ القدم، إلا في عصر متأخر، ويمكن تفهم هذا على ضوء مسيرة الفكر الإنساني، فالفنّ نشاط عملي، والتأمل دوماً يأتي بعد النشاط، فإن كانت الفلسفة هي الدهشة التي تحدثها فينا كما يقول الفيلسوف الألماني مارتن هيدغر، فإن الفن هو التعبير الرمزي عن هذه الدهشة ورغم شبه الاتفاق بين الفلاسفة على أن جوهر الفنّ هو الجمال إلا أنهم اختلفوا بعد ذلك حول جوهر هذا «الجمال»: أقصد الإجابة على ما هو الجميل؟ وما هي الشروط التي يجب توفّرها في «الشيء» حتى يحقّ لنا أن نقول عنه جميلاً؟ وهل لا بد أن يكون الجميل خيراً؟. وغير ذلك من الأسئلة التي تمّ تناولها في الفلسفة.

يُعدّ هيغل من أعظم من تناولوا مسألة الفنّ في العصر الحديث، وكان مذهبه الجمالي بداية عهد جديد للانطلاق الروحي - الميتافيزيقي في الفنّ باعتباره فكرة. تأتي إشكالية البحث من خلال رؤية هيغل الجمالية بأنّ مهمّة الفن في التعبير عن الروح المطلق، وارتباط الفن بالفلسفة والدين حينما اعتبر أنّها مظهر للروح المطلق وإنّ الجمال الطبيعي ما هو إلا خطوة أولية نحو الجمال الحقيقي وهو الجمال الفني الذي يجسّد رؤية جديدة للعالم بشكلها المادي ومضمونها الروحي، وهذا ما يدعو إلى إثارة الجدلية المعروفة ما بين المضمون والشكل في الأعمال الفنية من خلال نظرية الميثولوجيا والمحاكاة، ولمعرفة مدى التباين والتفاوت ما بين الموضوعية والذاتية وما بين المادة والروح وفقاً للأنماط الثلاثة الأساسية وتطورها في الفنّ بحسب الرؤية الهيجلية. وهذه الإشكالية العامة تتمحور في التساؤلات الآتية:

ما هو تصوّر هيغل للفنّ؟ وكيف كان تصوّره لمفهوم الجمال الفني؟
كما ترتبت عدة تساؤلات جزئية خاصة لا تقل أهمية أثناء عملية تبيان التصور الهيجلي الخالص للفن، وهي الآتية:

ما هي أهم المصادر التي استقى منها هيغل فكره الفني؟ وما هي أهم سمات فكرة هيغل الفنية؟ كيف فهم هيغل مسائل الفنّ المعاصر لزمانه؟ وما هي إمكانات الفكر الفني الهيجلي وأنماطه المتنوعة؟

لا ريب أن دراسة هيغل الفنية عن تاريخ الفن وتصنيفاته للفنون الجميلة هي بمثابة موسوعة قيمة تساعدنا في التعرّف على تاريخية الفنون الأوروبية المعاصرة. وبالتالي فإنّه من الأهمية بمكان تناول المحاور الرئيسية لهذه الرؤية الفلسفية الفنية وإلقاء الضوء

عليها من خلال هذه الدراسة؛ ممّا يتيح للقارئ العادي والمختص الإحاطة بما يحمله فكر هذا الفيلسوف الضدّ من رؤية خلافة ومُبدعة في هذا المجال، ومن هنا تكمن أهمية هذه الدراسة.

وللإجابة على هذه التساؤلات تمّ تقسيم هذا البحث إلى مقدمة ومبحث وحيد وخاتمة. تناولت في المقدمة مفهوم الفنّ عند هيغل وكيفية تصوّره لمفهوم الجمال الفني. وعالجتُ بإسهاب في مبحث وحيد الفكر الفنّي الهيجلي. أما في الخاتمة فوضعت الاستنتاجات المناسبة التي توصلت إليها. كما توخيتُ في هذه الدراسة اعتماد المنهج التحليلي باعتباره الأكثر ملاءمة لتحليل الأفكار الفلسفية والمعرفية التي ارتكزت عليها أسس فلسفة هيغل الفنية.

الفكر الفنّي الهيجلي:

يقصد هيغل بالمثل الأعلى للجمال تلك الصورة الخاصة للفكرة التي تدرك فيها بطريقة حسية، أي الفكرة لا في ذاتها، بل كما تظهر في العالم الحسي، وهنا يشترك هيغل نوعاً ما مع شيلر حول جمال الفنّ، حيث يتجلى الفكر مع التصور الحسي جنباً إلى جنب في شيء واحد عيني. إذاً، فالجمال الفني عند هيغل يتمثّل في جانبين متميزين يرتبطان في وحدة واحدة وهما:

أ - جانب الوحدة (Unité) حيث أنها الفكرة الشاملة (Notion) قبل خروجها إلى التعدّد.
ب - جانب الموضوعية (objectivité)، حيث أنها بالضرورة من طبيعة ذاتية. هذا الجانب هو المعنى الروحي أو النفس (Âme) أو كما يمكن أن نسميه بصفة عامة المضمون الروحي¹.

لكن هذه الوحدة لا تظلّ وحدة مجردة مغلقة على ذاتها، بل تحتاج أن تتجلى في الجانب الثاني وهو تعدّد الاختلافات، وهذا الجانب المادي الحسي الموضوعي من العمل الفني يمكن وصفه بصفة عامة الشكل (forme) أو التجسيد المادي، وباتحاد هذين الجانبين يشكّلان وحدة كاملة، لنصل إلى المثل الأعلى. إذاً، كيف فسّر هيغل المثال أو المثلى الأعلى للجمال؟

يرى هيغل أنّ المثال أو المثل الأعلى للجمال يجب أن يكون المضمون ذاته على مستوى عالٍ من الكمال والسمو، حيث أنه يكشف عن طبيعته الحقّة حينما يدخل الوجود الخارجي في الوجود الروحي، أي حينما تصير الظواهر الخارجية مطابقة للروح الكاشف عنها

وبالتالي فهو الحقيقة الواقعية المستخرجة من كتلة الخصائص الجزئية. وبالتالي يبقى المثل الأعلى منظوماً داخل ذاته، حراً يستمد سروره وسعادته من داخل نفسه، ومن خلال تجلياته بتعدد الأشكال التي يظهر فيها، ومنه فروح المثل الأعلى توجد في كل مكان، ويكمن جمالها في تحققها كوحدة موضوعية وشاملة، إذاً هناك صلة بين الشكل والمضمون وتحقق الفكرة، وهنا يتضح من جديد مدى تأثير هيغل بمفهوم الذات الجميلة عند شيلر، من حيث هي تعبير عن الوحدة بين الخارج والداخل. وترتكز هذه النظرية على أن الإنسان يتبع عالمين: العالم الروحي والعالم الحسي، كما أنه مُطالب بتلبية كلا الطرفين. على هذا الأساس يرى أن هو الموفق بينهما، رغم ما فيهما من تعارض، فالجمال يوحد بين المادة والشكل، بين الحسي والعقلي، الذاتي والموضوعي، ولن يُصبح الإنسان حراً إلا بعد تحقيق هذا التوافق، والذي يتمّ عن طريق التربية الجمالية للإنسان، ولذلك فإنّ مفهوم النفس الجميلة ليست وسيلة لتحقيق التوافق النفسي فحسب، وإنما لتخليص المجتمع من شروره أيضاً.²

يشكّل المثال من الواقع المستنبط من كتلة المصادفات والخصوصيات بحيث أنه يتبدّى من الداخل، ثم يظهر في الشكل الخارجي بمظهر الفردية الحسيّة، أي أن المضمون الجوهرى يظهر خارجياً من خلالها، إذ لا يبقى حبيس هذه الفردية الذاتية. لذا نجد الكثير من اللوحات الفنية التي تحاكي الواقع العيني بدقة متناهية مثال ذلك: تصوير الفنان رافايال لصورة السيدة مريم العذراء، فقد رسم الوجه، العينين، الوجنتين، الأنف والضم، فهو بهذا التصوير العميق، فقد عبّر عن عمق حب الأمومة السعيد النابع من أعماق الروح والذات، والمشاعر القويّة لهذه المرأة، وهذا أيضاً ما مثله شيلر بقصيدته «المثال والحياة». يُعارض فيها الواقع المؤلم المليء بالصراعات والنزاعات ويدعو إلى بلد جميل وهادئ وساكن، وهو بلد المثال والأرواح، المتعدّد عليها الحياة في المباشر الخارجي وهذا البلد متحرّر من الروابط التي تبقى عليه نابع من المؤثرات الخارجية الطبيعية، وعليه فالمثال يرتقي إلى مستوى أعلى من الاستقلال الذاتي والكلية، لأنه منفصل على شتات وتبعيات الحياة الطبيعية الواقعية، وهذا يعني أنّ كلّ ما يميز المثال هو الهدوء ويصبح كل تمثيل للمثال هو تعبير عن الروح المطلق، «وهكذا تبدو الفردية الذاتية مرتبطة لتوافق حرّ مع داخل النفس»³. يعني أن النفس الفردية قد ارتبطت بوجود آخر، وجود اللامتناهي. إذاً، المثل الأعلى يتولّد من اتفاق الفكرة وائتلافها والشكل الصحيح المناسب لها، أي الفكرة تتشكّل تشكلاً دالاً على تصوّرها العقلي.⁴

كما يثير هيغل فكرة أخرى حول المثل على أن ميزته الهدوء والسعادة الساجية حيث نجده يقول: «إن أول ما يميز المثل هو الهدوء والغبطة الرائعة، الرضى والتمتع اللذان يُخالجانه من دون أن يخرج من ذاته، وكلّ تمثيل فني للمثال يبدو في نظرنا إلهاً كلي الغبطة، وبالنسبة إلى الآلهة الكلية الغبطة، فإنّ كلّ بُؤس وكلّ غضب وكلّ الاهتمام الذي نوليه لأوساط وغايات عابرة أمور غير ذات شأن. وصفو هذه الآلهة وسكينتها يتأتیان من ذلك التركّز الإيجابي بحد ذاته، والذي لازمته الضرورية نفي كلّ خصوصية، بهذا المعنى ينبغي أن نفهم كلمات شيلر «الحياة جدّ والفنّ صفو»⁵.

من خلال هذا القول فإن تأملنا للهدوء الناصع المرسم على الأشخاص الذين أبدعهم الفن وما يثيره من إعجاب فينا للدلالة على قوة الفردانية والذاتية، وانتصار الحرية المتمركزة على نفسها أي الشخصية الفردية المميّزة والتي تتجاوز وجودها الطبيعي الحسي المباشر، وترتقي إلى مستوى الحرية والاستقلال الذاتي غير المتناهي، ويعني هذا أنّ حركية ونشاطية الفكرة. وهي تُدرك نفسها على أنها روح، ووفق عملية التحديد هذه تجد لذاتها الشكل الخارجي الملائم لها، ومن هنا ينشأ نوع من الائتلاف بين الفكرة ومظهرها الخارجي وحينئذ يتحقق المثل الأعلى للجمال. ومن هنا فالفكرة هي المضمون الذي يتخذ الأشكال الخارجية الملائمة لمستوى تطوّر هذا المضمون.

ونتيجة لقصور العنصر الطبيعي على تحقيق المثل الجمالي ظهرت ضرورة الفنّ القادر على إعطاء الوجود اللائق بالحقيقة الجمالية وبهذا فقد كان «الفنّ - أو جمال الفنّ كما يجري وعيه في عقل الإنسان - هو موضع اهتمام هيغل. وتبعاً لمزاجه هو لاحتياجات فلسفته، بدا هيغل ميالاً لاعتبار ذلك الجمال الذي نبدعه بوعي منا كأعلى أشكال المطلق أو الروح، ولهذا بالضبط يضع هيغل جمال الطبيعة خارج إطار جمالياته»⁶. وعليه فإنّ الجمال الفني «هو نفسه الفكرة وهو يخرج من دائرته الذاتية ليدخل التعيّن الواقعي، فأساس كل ما هو موجود، هو مبدأ روحي يُسميه هيغل الفكرة المطلقة»⁷. إذ أن هذه الفكرة التي تخصّ الذات يجب أن يكون لها تعيّن واقعي، بعيداً عن كلّ تجريد، يعني المبدأ الجوهري لفكرة الجمال هو أن يكون موضوع حسي يُمكن إدراكه بحواسنا، مثال ذلك: تجسيد تمثال، أو رسم، أو مقطوعة موسيقية... إلخ ومنه فالفنّ الجميل لا بدّ أن يكون موضوع خارجي تتجسد فيه الفكرة واقعياً، حتى تدركه الحواس ثم يدركه العقل، فالشيء لكي يصبح جميلاً ينبغي أن يدركه العقل والروح، حتى يصبح جميلاً بالفعل، وإذا كانت هذه الفكرة ناقصة، ولا ترتقي إلى مستوى لا يمكن أن تجسد لنا معنى الجمال الحقيقي،

وعلى هذا يرى هيغل أنّ الفكرة الحقيقية والجلية بذاتها هي وحدها التي يمكن أن تولد الشكل الصحيح والملائم لمثال الجمال، فالفكرة بوصفها جمال فني، ليست هي الفكرة التي يفترضها المنطق المجرد، وإنما هي الشكل المتجلي في الواقع العيني.

وعلى هذا فالفكرة هي حقيقة مطلقة في ذاتها إذ لم تتجسد بعد، بينما إذا تجسدت هذه الفكرة في شكل فني أصبحت أقرب إلى الوجود الواقعي الذي يجسد ويكشف الفكرة بوصفها تمثيلاً لجمال الفن، وعليه «فالجمال عند هيغل هو التجلي المحسوس للفكرة، فمضمون الفن ليس سوى الفكرة، أما صورته فتتلخص في تصورها المحسوس والخيالي»⁸، يعني لا بد من وجود تطابق كامل بين الفكرة وشكلها باعتباره واقعاً عينياً. وهذا التطابق إذا كان موافقاً للتصور العقلي، حقق بذلك مثال الجمال الحقّ وعلى هذا فإن مهمة الفن «أن يجعل من كل وجه من وجوهه أرغساً*، له ألف عين. كيما تتبدى النفس والروحانية في جميع الظاهرية»⁹. وهذا يعني أنّ الفن يجعل الذات تتجلى في هيئة جسمية فحسب بل تتجلى في جميع الأشكال الظاهرية، من أحداث، أفعال وغيرها من الأشياء الأخرى، يعني أنّ تمثيل الذات في العمل الفني تبقى اللامتناهية، وعلى هذا فالنفس ليس له حقيقة سطحية وبسيطة بل بالعكس فله حقيقة أعمق من ذلك، فهو يحقق التوافق الخارجي مع الداخلي، أي توافق وانسجام المضمون مع الشكل وهذا من شأنه يحقق التوافق مع النفس، وبذلك فالنفس يعيد ما هو ناقص ومُدسّ وعرضي إلى الوفاق مع مفهومه الحقيقي المطابق للواقع حتى يخلق المثال، فالنفس ينزع كل الشوائب الخارجية الطبيعية وكل وجود محدود ويصوّر الطابع العام للشخص وخواصه الروحية الدائمة، وعليه فجمال الفن أسمى من جمال الطبيعة، فإن سمّوه ينتقل بالضرورة إلى نتاجاته وبالتالي إلى الفن، ولأنه نابع من النفس، أي أنه من نتاج الروح، وبالتالي كلّ ما يأتي من الروح يكون بطبيعة الحال أسمى مما هو موجود في الطبيعة الخارجية.

وعليه فإن الجمال الفني هو جمال مبدع ناتج عن العقل المتزن الذي يظهر تألق الروح فيه، في حين نجد الجمال الطبيعي ناقص وغير مكتمل، وبالتالي لا يكشف عن العمق الروحي الذي هو الهدف الأول لجمال الفن، فهذا الأخير يصدر تفوّقه لكونه صادر عن الروح «وقد يتعدّر أن نلمس حقيقة الجمال في أدنى صور الطبيعة الجامدة، مثل كتلة حديد وكذلك لا يُمكن أن نستشف الجمال في الموجودات الطبيعية ذات النظم الرتيبة مثل: الشمس والكواكب، ولعل الجمال يبدو أكثر وضوحاً في النبات، ففي النبات تظهر الوحدة الغائية بين الأجزاء والشكل، الأمر الذي يندم وجوده في الجمادات وكلما ارتقينا درجة في سلم

الموجودات من الجماد إلى النبات ثم الحيوان، فالإنسان كلما بدأ الجمال، أي المطلق أكثر تألقاً ووضوحاً¹⁰، وهذا يعني أن الإنسان يبدع ويخلق صوراً وأشكالاً مختلفة للجمال أكثر روعة واكتمال من ما هو موجود في عالم الطبيعة، حتى وإن كانت هذه الفكرة بسيطة للغاية فهي أكثر جمالاً لأنها من إبداع الروح والعقل البشري، وعلى هذا فجمال الفنّ ما دام أنه من إنتاج الروح، فإنه بالضرورة يتعدّد إنكار شرفه وعلو مرتبته على جمال الطبيعة. أما ما يهّمنا في هذا المجال هو إظهار نظرة هيغل إلى الفنّ وموضوعه وكيفية تقسيمه للفنون.

لا تسعى فلسفة الفنّ إلى فرض قواعدها على الفنانين في تحقيق الجمال، وإتّما عليها أن تبحث في الجمال كما هو، وكيف عبّر عن نفسه واقعياً في الأعمال الفنية دون الأخذ على عاتقها صياغة شروط للإنتاج الفني. ومن هنا فالفنّ يمثل في نظر هيغل إلى جانب الدين والفلسفة واحداً من أسْمى ثلاثة أشكال يتجلّى لها الروح المطلق¹¹، فيرى هيغل أن الفنّ لا يحاكي الطبيعة المعقول (الشكل)، لا في جانب الطبيعة (المضمون). وبالتالي هنا تجاوز مفهوم المحاكاة ومنه فمجال الفنّ المخيلة والإبداع.

ومنه فالفنّ يرقى بالإنسان حدسياً إلى مستوى الحضور الإلهي، كما يعيد اكتشاف البعد المثالي للواقع، ويعطي امتداداً لامتناهياً لوجوده المتناهي. وهنا نجد هيغل يُثبت في دروسه عن فلسفة الفنّ أن مهمة الفنّ هي التصوير الحقيقي للوجود في تجلياته الظاهرية، ولهذا فحقيقته تكمن في تحقيق الوفاق بين الباطن والخارج. كما أن هذا الباطن في حدّ ذاته ينبغي أن يكون متوافقاً مع ذاته.

وبالتالي يرى هيغل أنه بوسعنا أن نلتصق الحضور المثالي للروح في نتاجات الفنّ على نحو أدقّ بكثير وأعمق مما نجده في الظواهر الطبيعية، وبالتالي لا نجد في الفنّ البشري مجرد اللهو أو اللعب، وإنما نجد ذاتنا هنا معنيين بتحرير روح الإنسان من المادة، ومن كل الشروط الجزئية المحدودة. أي الفنّ كتجسيد حسي للفكرة هو جزء من العقل المطلق. يُعرّف هيغل الفنّ على أنه من «إنتاج الروح ويخلقها الروح وهي نفسها النوع الروحاني، حتّى ولو كان عرضها يتّخذ مظهر ما هو حسي، ويحيط بما هو حسي بالروح»¹²، وهذا يعني أن الفنّ حسب هيغل هو وسط يتم فيه الاتحاد بين الروح العقلي المجرد، وبين العالم الخارجي الواقعي، أي أن العمل الفني هو أحد النشاطات البشرية، صادر عن الضمير الإنتاجي الروحي، ومن ثم يظهر هذا النشاط كشيء خارجي حسي. يقول هيغل: «مضمون الفنّ هو الفكرة، أما شكل عرضها فيقوم على أشكال الحسّ أو صور المخيلة»¹³.

فالفن هو التجسيد الحسي والواقعي لهذه الفكرة الروحية حتى يصبح متجلياً بوضوح، يعني أنه يطابق المضمون الروحي للفكرة مع شكلها الخارجي، حتى يكون مضمون هذا الفن حقيقياً علنياً، وعليه فإن قيمة الفن تتوقف على مقدار تمثيله والتطابق الفعلي بين مضمون الفكرة وشكلها، وعلى هذا فإن العمل الفني له جانبان متميزان، جانب موضوعي هو التجسيد المادي للفكرة، وجانب ذاتي ويتمثل في وحدة الفكرة قبل أن تخرج إلى الواقع، وعليه فإن العمل الفني لا يكون حقيقياً إلا بمقدار مطابقته مع الواقع الملموس وبالتالي فالعمل الفني المنافي للواقع لا يتسنى القول عنه إنه عمل فني حقيقي.

كما يرى هيغل أنّ العمل الفني الحقيقي هو ذلك العمل الذي لا يستوفي على قواعد تحكمه وضوابط تنظّمه، فالقاعدة من شأنها تقضي على نشاط الروح وبالتالي تلغيه تماماً، وبهذا يمنع هيغل خضوع الفن إلى أي ضابط ما، في حين لا يمانع خضوع الأشياء الأخرى غير الفن إلى ضابط ما، مثال وصفة صيدلانية، وهنا يكون الفرد مجبراً أن يتبع هذه التعليمات وأن يطبقها كما هي، وذلك أنّ مجال الفن مختلف تماماً.

يرفض هيغل استخدام الفن كوسيلة من وسائل التهذيب الأخلاقي، لأنه غاية من ذاته. ويلخص هيغل العمل الفني في ثلاث قضايا هي على النحو الآتي:

- أ - أنّ العمل الفني يُصنع من أجل الإنسان، ويقبّس من العالم الحسي للإنسان.
- ب - أنه ليس منتجاً طبيعياً بل هو نشاط بشري.
- ج - أنه لديه غايته الخاصة، وهو غاية في ذاته.

من هنا يرى هيغل أن ما يهدف إليه مضمون الفن هو إيقاظ النفس، وهذا لصيق بالمشاعر والأحاسيس التي تجد مكانها في الذهن الإنساني، وبالتالي فالفن يضع في متناول الحدس ما هو موجود في الفكر البشري ليوقظ مشاعر كامنة، ويضعنا في حضرة الروح الحقيقية¹⁴.

كما يرى هيغل أيضاً أن محتوى الفن هو الفكرة، وهذه الفكرة ليس شيئاً مجرداً. أما صيغتها في التجسيد المحسوس في الصورة. وبالتالي فالجميل في الفن هي تلك الفكرة التي تشكّلت في الواقع، والتي هي معه في وحدة مباشرة. ومنه فالواقع المصوغ بشكلٍ يتناسب مع تصوّره هو المثل الأعلى، ومن هنا فالفن يعظ الإنسان، ويتحقّق هذا الغرض بأن ينفذ المضمون الروحي الجوهرية في الوعي عن طريق الأثر الفني¹⁵.

من هذه الناحية يمكن القول إن الفن كلّما سما كان يحتوي على مضمون أكبر وكان هذا معيار قيمته، سواء كان المعبر عنه مطابقاً أو غير مطابق. ومن هنا أعاد هيغل الوحدة

الملموسة إلى موضعها الصحيح. بتصحيحه علاقاتها بذاتها وبسائر الأنشطة الإنسانية. ومنه فوحدة الأثر الفني هي وحدة الشكل والمحتوى، وحدة الدلالات والمعاني، كما أعاد هيغل العلة بين الفنّ والعمل الإنساني وبين العمل التطبيقي الذي يطور الإنسان به ذاته بتطويره الطبيعة¹⁶.

إذاً، الفن هو انعكاس للحياة الواقعية للإنسان، والحياة الاجتماعية في إطار العصر وجميع الملابس والظروف، كما أن الفكرة تؤكد ذاتها إلى حيز الواقع بواسطة أشكال، والشكل الذي به تؤكد نفسها وتحقق ذاتها يختلف ويتنوع، وهنا يتضح وجود علاقة بين المضمون والشكل. أي الشكل الذي تتحقق فيه الفكرة يوافق بالنسبة إلى كل مضمون يفترض فيه أنه يعبر عنه، أي أن المضمون يصير شكلاً. ولهذا الأسباب يحاول هيغل البحث في كل فنّ، وفي تطور كل واحد وهذا تجسيدا لفلسفته الجدلية ووفقاً لجوهرها وهو مفهوم السيرورة. وبالتالي لا نستطيع أن نحدّد القاعدة الجمالية إلا بسيرورة الإبداع، أي أنّ الجدل الحادث في سيرورة الإبداع هو الذي يحدث عنه الجمال، والجدلية هنا تحدث بين المضمون والشكل. ومنه فهذا القول يدل على أن الفن هو طبيعة ثانية تابعة للإبداع البشري، وبالتالي نموذج الجمال هو الذي يصنعه العقل البشري؛ وبالتالي فالجمال ما يصنعه الفن ليس هو الجمال الموجود في الطبيعة. إذاً، هناك قطيعة تجعل ما يصنعه الفن نموذج جديد، ومنه يرى هيغل أن الثقافة هي التي تصنع لنا الجمال، حيث أنه إذا تغيرت الثقافة تغيرت الفنون الجميلة وأنماطها.

وحتى يكون العمل الفني يتحد فيه المضمون مع شكله لا بدّ أن يستوفي من الشروط الآتية:

أ - توافق المضمون مع الظاهر الحسي:

يحرص هيغل على ضرورة توافق هذا المضمون الفني مع واقعه الحسي، أي نستطيع تمثيله في هذا الواقع الملموس، إذ أنه لا يجوز لمضمون الفن أن يشتمل على شيء مجرد ميتافيزيقي غير واقعي، بل ينبغي أن يكون هذا المضمون الفني جلياً نستطيع أن ندركه بحواسنا وهنا «يتطلب من محتوى الفن ألا يكون شيء تجريدي في ذاته، بل إنه يتطلب ما هو عيني، ولكن ليس عينياً بالمعنى الذي فيه يكون ما هو حسي عينياً عند ما نقابله بكلّ شيء روحي وعقلي»¹⁷، وهذا يدلّ على أن كلّ شيء في الطبيعة هو عيني جليّ في كيانه وذاته، وعلى هذا ينبغي أن يكون مضمون الفنّ ظاهراً حسيّاً يمكن تمثيله واقعياً، مثال: «فكرة الألوهة» لا يمكن تمثيلها فنياً لأنه لا يوجد له تصوّر في الحقيقة العينية الظاهرة، فكل الحضارات

القديمة سعت إلى تمثيل «فكرة الألوهة» ولكن لم تتمكن، لأنها ليست لها واقع عيني ملموس، وعلى هذا يرى هيغل أنه ينبغي أن تكون المضامين الفنية عينية جلية حتى يتسنى لنا تمثيلها والتعبير عنها، إذ أن المضمون الفني لا يكون حقيقياً إلا ما يكون عينياً.

ب - توافق المضمون مع التمثيل الفني:

ويقصد هيغل بهذا «أن يكون المضمون المطلوب تمثيله صالحاً للتمثيل الفني وبدون ذلك يكون الربط ركيكاً واهياً»¹⁸، يعني أن الفن حتى يؤدي غايته المنشودة، لا بد أن يكون مضمونه صالحاً للتمثيل الفني، فنحن لا نستطيع تمثيل مضمون ما دون أن يكون له توافق مع الواقع الخارجي، إذ أن الفكرة المراد تمثيلها ينبغي أن تكون جلية وصالحة للتمثيل، ومنه فإنه لا يمكن وضع شكل لمضمون ما لا يصلح للتمثيل الخارجي، فهذا من شأنه يخلق تعارضاً بين المضمون والشكل، أي يصبح ذلك الشكل المراد إعطائه لهذا المضمون لا يلائمه.

ج - توافق الشكل مع المضمون:

يرى هيغل، أنه لكي يتطابق شكل من الأشكال أو صورة من الصور الحسية، المضمون الحقيقي لا بد «أن يكون هذا الشكل أو هذه الصورة، فردين وعينين في الجوهر، وبالفعل إن الصفة العينية لكلا جانبي الفن، للمضمون والتمثيل هي التي تؤلف نقطة تلاقيهما وتطابقهما»¹⁹، وهنا ينفي هيغل دور الصدفة في التمثيل الفني، لأن أي عمل فني حتى وإن كان بسيطاً ناتج عن الصدفة يكون بالضرورة خالياً من الماهية الروحية، وعلى هذا لا بد أن يكون مضمون الفن أن يعبر عن الحقيقة الروحية العينية، مثال ذلك: أن نجري مقارنة بين فكرة الألوهة عند اليونان وفكرة الألوهة عند المسيحية، فنجد إله الإغريق مجرد يتخذ شكلاً من أشكال الطبيعة لا يعبر عن حقيقة روحية، وبالتالي يبقى هذا الشكل ناقصاً بحكم عجزه عن التعبير عن عمق مفهومه، بينما الإله المسيحي فهو شخص عيني بوصفه روح مطلق يعرف في نفوسنا على أنه روح، وما يؤكد لنا وجوده الفعلي في المقام الأول هو معرفتنا الداخلية به، وهنا يرى هيغل، أن الفن يتخذ قيمته وشرفه من مدى توافق الفكرة مع شكلها ويصبحان منصهرين متداخلين مع بعضهما البعض، وعليه فإن نوعية الفن ومدى تطابقها للواقع مرتبطة بمدى الاتحاد بين المضمون والشكل.

إن الفنان هو ذلك الإنسان المبدع القادر على عرض عمق الحقائق ومختلف المصالح البشرية في شكل صور فنية، إلا أن هذا الأخير لا يستطيع أن يحقق أي إبداع فني إلا إذا

توفّرت له مجموعة من السمات الخاصة الآتية:

أ - الخيال: يُعرّف هيغل الخيال على أنه «الروح كبير... والاستيعاب والإبداع للأفكار والأشياء، وفي الحقيقة عرض أعمق للمصالح الإنسانية وأكثرها كلية في شكل تصوري وحسيّ محدّد على نحو كامل تماماً»²⁰. وهذا الخيال يسميه هيغل، بالنشاط الخلاق، المبدع والذي يتطلب مهبة كبيرة حتى يستطيع إدراك الحقيقة الواقعية كاملة وكل المصالح البشرية، وهذا لا يتأتى له إلا إذا كانت له رؤية عميقة وثاقبة، سماع يقظ وذاكرة قوية قادرة على حفظ الأحداث ومجريات التجارب، لأن الخيال يقوم على المواقف التي عايشها والتجارب التي استمتع بها، وعليه فالفنان يحبّ أن يستمد الخيال لا من التجريدات العامة، وإنما من عمق حياته حتى يشمل كل الموضوعات ويستطيع التعبير عنها، وعرض حقائقها، وهذا الخيال حسب هيغل يستلزم التأمل العقلي لأن «الفنان ينبغي ألا يكون حاضراً فقط في وعيه وأن يثيره بل يجب أيضاً أن يدرك أعماقه وطابعه الجوهرية، وذلك بواسطة التأمل العقلي»²¹ هو شرط ضروري وأساسي للخيال، فالإنسان لا يستطيع أن يعي ما يجري بداخله، وبذلك فكل عمل فني لا بدّ أن يحقق ويتفحص فيه عقلياً من كل نواحيه، وهكذا يتحقق التبادل بين المضمون الخارجي الذي يمثل الواقع والمضمون الداخلي العقلي، وعلى هذا فالنشاط الخلاق لكي يعطي شكلاً واقعياً لما هو عقلي يتطلب قريحة أو عبقرية.

ب - العبقرية: إن القريحة أو العبقرية هي الصفة المميزة والأساسية لكل فنان، إذ الفنان لا يمكن أن يلقب بالفنان إذا لم يمتلك هذه الصفة ومنه فإن أي إنتاج أو عمل فني هو نتاج مهبة وقريحة فذة باعتبار «أنّ القريحة والمهبة، هما من منظور معين على الأقل، هبات طبيعية... وأن العبقرية حتى تكون خصبة ومعطاءة، لا بد أن تملك فكراً منظماً ومتقناً ودربة طويلة الأمد»²². وهذا يعني أن العبقرية هي هبة طبيعية لكن تحتاج إلى تنمية من خلال التعمق في التفكير وامتلاك ثقافة واسعة، وهذا لا يتأتى حَسْبِهِ إلا من خلال التدريب المستمر في البحث الثقافي والعلمي، فالفنان العبقرية الموهوب هو من يمتلك أكبر قدر من الفكر العميق والواسع، وهذا بالفعل ما تميّزت به أعمال شيلر وغوته اللذين تميّزت أعمالهما في مرحلة الشباب بالبرودة والخرق والعدمية ولكن بعد أن نضج فكرهما وتصوّرت موهبتهما أبداً فنوناً شعرية غاية في الحدق والجمال، وكذلك هوميروس*، لم يبدع أشعاراً جميلة إلا بعد شيخوخته، أي بعد نضج وتطور فكره، وما دام أن هذا النشاط الفني الإبداعي يستلزم بالضرورة مهبة الفنان وقريحته، فهذا بدوره قد وضع الإنتاج الفني في حالة أطلق عليها اسم الإلهام.

ج - الإلهام: يعرف الإلهام على أنه حالة نفسية تثيرها المنبهات الحسية ولا نقصد هنا، بالمنبهات الحسية كشرب قئينة الشمبانيا فهذا النوع من المنبهات الحسية لا يعطينا شيء من الإبداع أو الإلهام فهو مجرد حالة من الجنون، أما المنبه الذي يحقق لنا الإبداع هو تلك المنبهات الخارجية، أي ما هو موجود في العالم الخارجي وعليه فإن «الإلهام الحقيقي هو الذي يستثيره مضمون محدد أدركه الخيال، كما يُعبر عنه تعبيراً فنياً، وهو يمتزج بهذا العمل النشط لتشكيل الذي يرتبط من ناحية بأعماق الباطن ومن ناحية أخرى بالتنفيذ الموضوعي»²³، أي كل تجسيد موضوعي لأي عمل فني يستلزم بضرورة الإلهام الذي لا يمكن ظهوره إلا إذا توفر الشرطين السابقين الخيال والعبقرية، بالاعتبار أنهما الشرطين الأساسيين لتحقيق فيما يُسمى بالإلهام. كما أن العبقرية والإلهام هما جزء من حركة التاريخ، وبالتالي عقلنة مفهوم الإلهام جعله يدخل داخل سيرورة العقل. ومنه فكل فنّ حاول تجسيد مضموناً فاختر شكلاً.

إن الموضوعية تخصّ الفنان وعمله الفني، وهي على شكلين، فالشكل الأول يخص موضوعية الفنان ذاته، وهنا يكون ملزم بالتمثيل الموضوعي بقدر الإمكان وذلك من خلال مزج بين ما هو موجود في أعماق ذاته وما هو موجود في العالم الخارجي «فالفنان بدل ما يأخذ على عاتقه تصوير الخارجي العادي والنثري، يمسك بناصية موضوعه باقتدار إلى حد التماهي معه في أعماق نفسه»²⁴، وهذا ما يظهر بوضوح في الأغاني الشعبية التي عندما نستمع إليها، نجدتها تعبّر عن عاطفة أكثر عمقاً مما تبدو في الظاهر، أي أن الفنان يأخذ الموضوع من الواقع الخارجي ويتمسك به إلى أن يصبح هذا الموضوع يشكل جزء كبير من أعماق ذاته، ويعبر عليه في هذا الشكل من الأغاني مثال ذلك: قصائد غوته، فقصيد «أنين الراعي» يمكن أن نصنفها في هذا النوع، فالقصيدة توحى إلى الأحزان والآلام التي تحطم القلب، وقد أوحى إلى هذه الأحزان من خلال تلميحات وإشارات خارجية التي تنقل إلينا عمق الإحساس.

أما الشكل الثاني فيخصّ موضوعية العمل الفني، بحيث ينبغي أن يتخذ مضمون الفن «شكل حقيقة موضوعية موجودة من قبل ويتجلى لنا على هذا المظهر الخارجي المعروف»²⁵، يعني أن المضمون الفني ينبغي أن يكون غير ظاهر قدر الإمكان، أي يظهر بطريقة غير مباشرة يستخدم فيها الفنان نشاطه الخلاق وموهبته الفذة وذلك من خلال استخلاص الجانب العقلي للأشياء وتمثيلها على الشكل الخارجي حتى يعبر عن الحقيقة الباطنية، وهكذا تكون الحقيقة واضحة وجلية بذاتها.

إن كل فنان له طريقة خاصة به في التمثيل، وأداء العمل الفني «الطريقة لا تمس، سوى صفات الفنان الخصوصية، وبالتالي العارضة، صحيح أن الطريقة لا يمكن معرفة مصدرها ومبّر وجودها في الشيء ذاته، وفي تمثيله المثالي، لكنها تتظاهر مع ذلك في إنتاج العمل الفني وتعرض نفسها عليها»²⁶، إذ أن الطريقة تختلف من فنان لآخر فكل فنان له طريقة خاصة به ومثال ذلك: أن الفنان الذي يهتم بتتبع الأحداث التاريخية ورسمها وتصويرها له طريقة مختلفة تماماً عن الفنان الذي يرسم المشاهد الطبيعية، وعليه فطبيعة الموضوع الفني هي التي تفرض الطريقة، وبالتالي تصبح الطريقة سمة مميزة عند كل فنان التي تفرضها طبيعة موضوعه.

وهنا يكمن التباين والاختلاف بين طريقة كل فنان، وبذلك يصبح كل فنان متميّز على الآخر وله طريقة خاصة به في تجسيد أعماله الفنية، وتفقد الطريقة خصوصيتها وميزتها الجوهرية من كثرة التكرار المتواصل، فالتكرار يجعل من العمل الفني صناعة إنتاجية، ومن ثم يفقد الفنان خصوصية الإبداع الناتج عن الموهبة والإلهام، وبهذا «يتفاقم خطر انحطاط الطريقة بمزيد من السهولة، طرداً مع خصوصيتها، إلى تكرار وضع آليين لا يُساهم فيهما الفنان بكل روحه وإلهامه، عندئذ يسقط الفن إلى مرتبة الحرفة المحض ومرتبة المهارة الصرف... وتصبح الطريقة شيئاً، باهتاً بارداً، هامداً»²⁷، ولذا يتوجب على الطريقة الحققة تحاشي الخصوصية المحدودة الضيقة، التي تجعل من الطريقة عادة، ولتفادي هذا ينبغي أن يتخذ الفنان طابعاً لا يفصل بينه وبين نمط تمثيله، وأبرز من طبّق الطريقة بكل احترافية هو «غوته»، وذلك في مختلف أشعاره: «أشعار الذاتية»، «أشعار الجادة»، و«أشعار الرزنية» لكل شعر من هذه الأشعار له طريقة خاصة في التمثيل.

أما الأسلوب «هو ما به تتكشف شخصية الذات التي تتظاهر في طريقة التعبير عن نفسها وصيغ جملها»²⁸، إذ يعني أن الأسلوب هو الذي يكشف شخصية الفنان، من خلال طريقة الأداء والتعبير والتنفيذ، وانعدام الأسلوب دليل على عجز الفنان عن التمثيل، ومن أشهر الذين تميزوا بأسلوبهم البارع نجد دورر* فهذا الأخير تمكّنه من أسلوب الحضر على الخشب جعله يتقيّد به في كل لوحاته وخاصة فيما يتعلق بالرسم.

وتبقى الأصالة الخاصة أو الميزة التي يتميّز بها الفنان عن غيره، وذلك من ناحية الطريقة والأسلوب والعمل الفني، وبهذا نقول إن الفنان الأصيل هو ذلك الفنان المميّزة الذي يبتعد عن التقليد، بحيث ينفرد بفكره وطريقته وأسلوبه، عن غيره من الفنانين، والأصالة لها دور مركزي في أداء العمل الفني، لكونها تقدم حقيقة روحية نابغة من عمق

إحساس الفنان وشعوره لأن الفنان غير الأصل ليس بوسعه تقديم هذه الحقيقة الروحية. وعليه فإن هيغل يعرف الأصالة على أنها «امتلاك الذات بعينها لبعض الطرائق الخاصة في السلوك والعمل، وعدم امتلاك أي ذات أخرى لشبيبتها»²⁹، فالأصالة إذاً تقوم على ذلك النشاط الخلاق الذي يتميز به الفنان عن غيره. والأصالة أهم ما يميزها هي أنها تقرن بين الجانب الموضوعي والجانب الذاتي حتى تندمج أصالة الموضوع مع أصالة الذات وتخلق عملاً فنياً أكثر سموً، والأصالة كثيراً ما ترتبط بما يسمّى بالمزاح، النكت، والدعابة، وأهم من برز في هذا المجال جان بول* الذي تميّز بعمق أحاسيسه ومشاعره وجمال نواذره.

لقد رفض هيغل مبدأ المحاكاة، كغاية للفنّ، لأن هذه الأخيرة «وسيلة لنسخ الأشكال الطبيعية على نحو ما هي عليه، على نحو يتطابق معها تطابقاً تاماً»³⁰.

فهذا النوع من الفن قائم على مبدأ التقليد والنسخ، وهذا من شأنه يقضي على الإبداع الخاص بالفنان، لأن هذا المبدأ لا يستطيع أن ينتج سوى خداعات لا تعبر عن حقيقة روحية للفن الصادرة عن روح الفنان، بل يحوّل الفن إلى المحاكاة الشكلية المجردة التي تدعي أنها تقدم الحقيقة، وهذا النوع من العمل الفني يرفضه هيغل، لأنه ليس بمقدور هذا الفن التعبير عن الحقيقة الروحية النابعة عن عمق الروح، وبالتالي هذا الفن ناقص لكونه لا يقدم لنا الحقيقة كاملة.

وعلى هذا فإن الفنّ حسب هيغل «ليس محاكاة وإذا كان محاكاة فهو لا يستطيع أن ينافس الطبيعة، وإذا حاول منافستها فسيبدو أشبه بدودة ترحف وراء فيل»³¹. فالمحاكاة هي عبث وتقليد لا طائل منه، فهذا النوع من العمل الفني ينقص الجمال الطبيعي ويجعله يبدو أدنى مما كان موجوداً عليه من قبل فهو لعبة ساخرة وبالتالي فالمتعة التي يخلقها هذا النوع من العمل الفني تكون أكثر سخرية وسخافة مثال ذلك: أن نسمع إنسان يقلّد صوت العندليب، فأول وهلة نعجب بهذا الصوت، لأنه في اعتقادنا أن العندليب هو الذي يصدر هذه النغمات ولكن سرعان ما نكتشف أن هذا الصوت إنما يصدره الإنسان لا العندليب، نتضايق ونكتشف أن هذه خدعة وليست حقيقة، ومنه نستنتج أن المحاكاة هي ضرب من الغشّ والخداع، وبالتالي فهي لا تنتج أثراً فنية ذات قيمة عالية بل تنتج مهارة صناعية إنتاجية قائمة على التقليد.

وانطلاقاً من هذا، رفض هيغل أن يكون الفنّ مظهرًا وإيهام ذلك أن «تجليات الفن ليست أبداً مجرد مظاهر وهمية... بل هي تحتوي حقيقة واقعية أسمى، وعلى وجود أكبر حقيقة

من الوجود المعتاد»³²، وهذه الحجة مستمدة من صلب مذهبه المثالي، فهو يرى أن عالم الحقّ هو عالم الماهيات والتصورات، والعالم الخارجي هو عالم الوهم، وبذلك تكون أهداف الفن وغايته القصوى، هو البحث عن الحقيقة الأسمى من المحاكاة الآلية للطبيعة، وعليه فإنّ الفنّ يتمثل في الأهداف الآتية:

أ - إيقاظ المشاعر:

إن هدف الفن الأول هو إيقاظ المشاعر وذلك من خلال استخدام مضمونه الروحي، لكي يستحضر الانفعالات والعواطف ليكمل الحياة الخارجية، وبالتالي فمضمون الفن يحوي مضمون الروح والنفس، فهو يكشف عن كل ما هو عظيم وجوهري في الذات، وعليه فإنّ هدف الفن «قائم على أن يوقظ ويبعث الحيوية في مشاعرنا الهائجة وميولنا وعواطفنا من كل نوع وأن يملأ القلب»³³، وذلك من خلال تمثيل هذا الفن لكل ما يجيش صدر الإنسان وما يريد أن يعبر عنه.

ب - تهدئة الذات:

أما الهدف الثاني للفن، فيقوم على تهدئة وتهذيب الذات وذلك من خلال تلطيف وحشية وهمجية الغرائز وأهواء الإنسان ذاتها، وهذه التهدئة تكون من خلال عرض المباشر لهذه الأهواء حتى يستطيع الإنسان أن يدرك نفسه ويعي ما هو عليه وبهذا يمكن «أن يُقال عن الفن أنه محرر، فالأهواء تتلاشى قوتها، لمجرد أنها أضحت مواضع للتمثيلات مواضع خالصة محضة، وتموضع هذه العواطف يؤدي بالضبط إلى تجريدها من شدّتها وحدّتها»³⁴، وهكذا يمكن تلطيف هذه الغرائز الهائجة فبمجرد أن تعرض هذه الغرائز في المشاهد والتمثيلات، تخف حدتها على ما كانت عليه من قوة وشدّة، وبهذا العرض المباشر يدرك الإنسان حقيقة نفسه ويحاول إصلاحها والمحافظة على صفوها وهدوتها، وما دام أن الفن ملطّف لوحشية الغرائز، فإنه بذلك يتحول إلى وسيلة لتهديب الأخلاق البشرية وإصلاحها.

ج - تهذيب الأخلاق:

يقوم الفن كذلك على تهذيب الأخلاق، وذلك من خلال تهذيب السلوك الغرائزي، إذ يصبح باستطاعة هذا الفرد أن يتصدى لهذه الأهواء، وعلى هذا نص هيغل على ضرورة الفن في إصلاح أخلاق الفرد وتهذيبها، حتى يسمو هذا الفرد بذاته ويصبح أكثر رفعة مما كان عليه ولهذا يقول هيغل: «إن على العمل الفني، أن يكون ذا مضمون أخلاقي إذ على الفنّ أن يحتوي على شيء سام. تحلق به النوازع والأهواء ويجب أن يصدر عنه مفعول

أخلاقي قادر على تشجيع الروح والنفس في الصراع مع الأهواء»³⁵، وهكذا كلما أسهم الفن بالاهتمام بتلطيف الأهواء والنوازع وتهذيبها أخلاقياً بها يصبح هذا الفن أكثر روعة وسمواً، لأنه ينشد هدف روحي وله دور في تعليم وتهذيب أخلاق الشعوب وتربيتها.

د- إيضاح الحقيقة:

كذلك أن مهمة الفن تقوم أيضاً على إيضاح الحقيقة وجعل كل الأمور واضحة أمام أعين الناس، فبالفن نستطيع أن ندرك حقائق كل الأشياء شرّها وخيرها، وما يبعث السعادة والسرور وما يحقق الضرر والنفع وعلى هذا «الفن يحرق المحتوى الحقيقي لظواهر من المظهر الخالص والخداع الخاص بهذا العالم الانتقالي، ويعطيه أسمى واقعية، وقد تولدت من الروح»³⁶، وبهذا نخلص إلى أن الفن يسعى إلى بيان وإعطاء الحقيقة كاملة بعيدة عن كل خداع وزيف، وبالتالي فالفن يعتبر أحد الطرق التي يمكن من خلالها التعبير عن حقائق الأشياء وكشف خداعها، وعليه فإن الغاية القصوى التي ينشدها الفن، هي تقديم للإنسان أعلى درجات الفهم والرضى، بحيث يستطيع أن يدرك حقائق هذا العالم الخارجي ويكشف متناقضاته المختلفة.

ينبغي علينا إبراز أنماط الفن التي ذكرها هيغل وهذا حسب تصوّره النسقي، من خلال إظهار أن هناك فترات، وهناك جدل داخل كل فترة، هذا الصراع يؤدي بنا إلى البحث الدائم عن العلاقة بين المضمون والشكل في كل فترة. ومن ذلك يرى أن الإنسان يعي ذاته في تطوّر الفن فالدين ثم الفلسفة. فالفن هو المرحلة الأولى لتحرّر الروح.

إذاً، في أي مرحلة يتحقق المبدأ الجمالي في رأي هيغل؟ وكيف رأى سيرة العقل؟ ولماذا انتهت عند الرومانسيين؟

إن التطور الذي يقدمه هيغل للفن في ثلاث مراحل، وهو في الأساس تطوّر عقلي ومنطقي، ويرجع هذا إلى تطور الفكرة المنطقية في نسقه الفلسفي العام، وهي «قضية وحدة المضمون والشكل، فالعلاقة بين الشكل والمضمون هي التي تحدد لنا صور أنماط الفن الثلاثة»³⁷، إذ أن تاريخ الفن يظهر في ثلاثة أنماط وكل نمط يعبر عن حضارة من الحضارات، وكل نمط من هذه الفنون ينبغي أن يتضمن الوحدة بين الشكل والمضمون، باعتبار أن المضمون الداخلي للفن هو الذي يحدّد الشكل الخارجي، ومن ثم يصبح الشكل والمضمون في وحدة واحدة يستحيل الفصل بينهما، وهذا يعني أن الفكرة الأساسية في تطوّر الفن عند هيغل مستمدة من عمق مذهبه العام الذي يؤكد ارتباط فلسفته الفنية بفلسفته العامة، بحيث أنه طبّق فلسفته العامة على فلسفته الفنية.

ويرى هيغل أن الفن في تاريخ تطوره قد مرّ بثلاث مراحل وهي الآتية:

1 - النمط الرمزي وتطوره:

يتميّز هذا النمط بتعارض الموضوع الفكري مع الشكل الخارجي، كما يتميّز المضمون الفكري فيه بصفات الألفاظ والغموض والإبهام، ومن هنا يسود فيه الطابع السحري المملوء بالأسرار، فتكون علاقة الشكل الخارجي بالمضمون في العمل الفني علاقة مصطنعة. ومنه فإن الرمز لا يستغرق كل صفات مدلوله حين يشير إلى جانب معيّن من جوانب الفكر. من خلال هذه الصلة المصطنعة بين المدلول أو المضمون الفكري والشكل الخارجي في الأعمال الفنية، تبين لهيغل صراع داخل هذا النمط. ومنه ميّز بين مراحل مختلفة في تطوره وهي: الرمزية اللاواعية، رمزية الجليل والرمزية الواعية.

إن الصورة الرمزية للفنّ حسب هيغل قد اختصت بها حضارات الشرق القديم وهذا النوع من الفنّ يمثّل بداية الفن من الناحيتين التاريخية والفكرية، ويعرّف هيغل الرمز على أنه «وسيلة للتعبير وماهية الرمز - حينذاك - هي أن يوحي بالمعنى المراد التعبير عنه، ولكن لا يفصح عنه كما هو الحال حين يتخذ الأسد رمزاً للقوة، والمثلث رمزاً للفكرة الدينية عن التثليث»³⁸، وهذا يعني أن الرمز ينبغي أن يكون شديد الصلة بمغزاه. إضافة إلى ذلك أن يكون هذا الرمز محتويّاً على مضمون التمثيل فمثلاً لا يمكن أن نرّمز للشعب بالشجاعة والقوّة، ففي هذه الحالة الرمز لا يتفق مع معناه، فرمز القوة والشجاعة يتطابق في تمثيلها مع الأسد، كما أن الرمز وتمثيله يختلف من حضارة إلى أخرى مثلاً: المثلث بالنسبة إلى الديانة المسيحية هو إشارة إلى عقيدة الثالوث الأقدس، أما بالنسبة إلينا فنراه أنه شكل هندسي، وهذا من جانب التعريف، أما من جانب الفكرة وعلاقتها بالمضمون، فكان الشكل الأول لظهورها وتمثيلها هو الشكل الرّمزي.

في هذه المرحلة يرى هيغل أن المضمون يطفئ على الشكل، ومنه يُحدّد مفهوم الرمز على أنه «يقوم على الترابط المباشر بين المدلول العام، وبالتالي الروحي، وبين الشكل الذي يُمكن أن يكون مطابقاً أو غير مطابق... غير أن هذا الترابط لا بد أن يصوغه من جهة مقابلة الخيال والفنّ معاً»³⁹.

في الفنّ الرمزي حسب هيغل، تظهر الفكرة لا متعيّنة في الأشكال الطبيعية غير المطابقة لها، وبهذا يصبح مضمون هذه الفكرة «مجرد بقدر أو بأخر، مشوّش، يفتقر إلى الدقّة والوضوح الحقيقي، والشكل الخارجي والإكثرائي يعدّ مباشر وطبيعي، ذلك هو التعيّن الأول، التعيّن المجرد»⁴⁰، وهذا يدلّ على أن المضمون يكون مشوّش ومجرّد لأنّ مظهره مقتبس من الطبيعة المباشرة، وبالتالي يكون المضمون غير متعيّن، وغير واضح، كذلك

نجد الشكل ناقصاً لأنه يتوافق مع مضمونه، وذلك لأنه يجتث المفهوم من المعرق والمغصنة والأوراق ما يعلق بعد بالصور ويخلصها فيجعل منها تكوينات يرفع فيها الخطّ المستقيم والسطح المستوي للزجاج إلى صلات لا تُقاس⁴¹، إذ أن هذا النمط من الفنون هو غاية في التجريد وهذا راجع إلى خيال الإنسان الواسع، بحيث نجده في هذه المرحلة يبتكر أشياء عجيبة وغريبة لا تمت بأي صلة للجمال الفني الحقيقي، ومنه يرى هيغل أن أول محاولات الخيال وأكثرها غرابة تلك التي تُوجد في بلاد الهند، فقد ارتبطت فنونهم بالجانب الديني فكثرت فيها المغالاة في عبادتهم، من خلال تجسيد الآلهة في أشكال غريبة، بحيث نجد لديهم عدة تماثيل بعدة رؤوس وأذرع كثيرة مثل «إله براهما»*. وهذا المثال حسب هيغل لا يعبر عن الرمز، لأنه لا يتطابق فيه المضمون مع شكله، وهذا ناتج عن الحرية المجردة اللامتناهية التي تطلق العنان لذاتها.

وعلى هذا فإن فناني هذا النمط يجعلون الطبيعة نقطة انطلاقهم، بحيث يستمدون تمثيلاتهم الفنية من الأشكال الطبيعية، وهم لا يكتفون بتجسيد المماثل لها، بل يدفعون بها نحو المسخ، بمعنى أنهم يشوهون الشكل ويجعلونه أكثر بشاعة وغرابة، وعلى هذا ينظر هيغل للرمزية على أنها تتسم بالاختلاف «بين الخارج والداخل، بنقص في التناسب، في التكيف، في التطابق، بين الفكرة والشكل، الذي يفترض فيه أنه يدلّ عليها، مما جعل هذا الشكل لا يمثل التعبير الصافي عن الروحي، إن ثمة مسافة ما تزال تفصل الفكرة عن تمثيلها»⁴²، وعليه فالفن الرمزي له مدلول لا يلتحم ولا يتطابق لا بالتعبير ولا بشكل التمثيل، وهذا من شأنه يصنع الفارق بين الشكل والفكرة، وعلى هذا فالرمزية تمثل مرحلة انفصال الفكرة عن مضمونها وهذا بدوره أدّى إلى انحلال الفن الرمزي، لأن الفكرة بقيت مجردة وغامضة.

هنا يمكننا أن نطرح الإشكالية الآتية: إلى أي مدى اعتبر هيغل ما هو رمزي شكلاً فنياً؟ أو بمعنى آخر ما هو الشكل الفني الذي يمكن أن يُعدّ رمزاً؟

يتمثل الجواب على هذه الإشكالية في قول هيغل: «إن ما هو رمزي ينتهي هناك حيث الفردية الحرة تتخذ مضمون وشكل العرض، بدلاً من التصورات العامة المجردة، ذلك لأن الذات هي المهمة لذاتها وهي التي تشرح نفسها بنفسها. فهي حين تشعر، وتفكر، وتفضل وتنتج صفاتها وأفعالها وأخلاقها، تكون هي ذاتها. وكل دائرة ظهورها الروحي والحسي لا معنى لها إلا الذات. والتي في نشرها لذاتها تكون سيّدة على كل موضوعيتها وتعبّر عنها، والمعنى والعرض الحسي، والباطن والظاهر، والشيء والصورة لا ينفصل بعضها

عن بعضها، ولا تتجلى كمجرد شيء ذي نسب وقرابة، بل على شكل كل واحد، فيه لا تكون للظاهرة ماهية أخرى، وليس للماهية ظاهرة أخرى خارجها أو إلى جوارحها. فما تجلّى والتجلي يكونان وحدة واحدة عينية.

وبهذا المعنى فإن آلهة اليونان بقدر ما يصوّرهم الفن اليوناني على أنهم أفراد أحرار، مستقلون قائمون بذواتهم، ينبغي ألا يُعدوا مجرد رموزاً أو أن يفسّروا رمزياً، بل هم يكفون أنفسهم بأنفسهم»⁴³.

من هنا، فالمقصود بالفن الرمزي من جهة مجهود لتهيئة الحدس والتمثيل الفنيين، ومن جهة أخرى فنّ يحصر المعنى، وتسعى الرمزية إلى التسامي إليه تسامياً إلى حقيقتها. وهذا ما تميز به الشرق القديم عموماً، وهو بمثابة ابتكار، كان وصوله إلى أوروبا بعد أن أصابه التغيير، حيث أن الرمز عبارة عن شيء خارجي، وهو يتميز إلى معنى وتعبير، بيد أن المعنى وثيق الصلة بموضوع ما، أما التعبير فهو مرتبط بشيء حسي أو وجود حسي، وبالتالي فهو «يستلزم تداخلاً عينياً بين المدلول والشكل»⁴⁴.

كما يبدو الفن الرمزي من الناحية النفسية بالدهشة، إذ هي مصدر الحدس الفني، مثلما هي مصدر البحث العلمي والحدس الديني، كما أن الاندهاش ينشأ حينما يقطع الإنسان من حيث هو روح الروابط الأولى التي كانت تربطه بالطبيعة وينعتق من آثار الرغبات العملية البحتة التي كانت تشد وثاقه إليها. ويتغلب على الطبيعة وعلى وجوده الخصوصي النفسي، فلا يعود يطلب في الأشياء سوى جانبها الكوني الدائم، أي موجوديتها في نفسها، وهنا تُثير مواضيع الطبيعة تعجبه، فتعود كائنة مع ذلك بالنسبة إليه، حيث يمكنه الاهتداء إلى نفسه فيها، ويلقى فيها في الوقت عينه الكلي، العقل والفكر.

هذا جلّ ما يصبو إليه في ذلك الطور، وهنا يدرك الإنسان وجود تناقض بين مواضيع الروح والطبيعة، هذا التناقض يجعل المواضيع تُمارس جذباً وطردياً في الوقت عينه. وهنا يضع الإنسان ذاته في مواجهة الطبيعة، كما أنه يستطيع التأمل نتيجة شعوره النفسي بالكلي والجوهري. وينتج عن هذا عدم تقبله لهذه المواضيع كما هي في مُباشرتها الفردية، بل تقعد من قبل التمثل. وهنا نرتدي فيه شكلاً مواضيع ذات طابع كلي موجود في نفسه ولنفسه. فيبدأ الفن بتحويل هذه التمثلات بسبب جوهريتها وعموميتها في نفسها إلى صور قابلة لأن يعقلها الوعي المباشر، ولأن يقدّمها للروح في هذا الشكل المُتموّض. ومن هنا فهل يمكن القول أن الفن يكمن في التعبد المباشر للطبيعة أي عبادة الطبيعة وتقديس الأصنام؟

ما يميز الفن الرمزي أن الذهن الإنساني يحاول فيه التعبير عن أفكاره، لكنه يعجز عن

الوصول إلى التجسيد الكامل لها. ومن هذا المنطلق يستخدم الرمز، حيث يقوم بدور التجسيد المادي، والذي مغزاه المضمون، لأن الرمز لكي يكون رمزاً حقاً ينبغي أن يكون له علاقة روحية مع مغزاه. وهذا هو الحال مع الأرقام أي الأشخاص الثلاثة في فكرة الألوهية، كما مع أضلاع المثلث. ولكن لا بد أيضاً أن يختلف الرمز عن مغزاه وإلا لما أصبح رمزاً، بل يصبح لونها أصيلاً من ألوان التعبير، فالله له صفات عديدة وكثيرة لا يحملها المثلث، والعكس فقد لا تجد صفات المثلث في الله⁴⁵. هنا تبدو الفكرة غامضة في الفن الرمزي، لأنها لم تستطع إخضاع المادة، وبالتالي هذا التصور في الفكرة ينتج عنه قصور في المضمون مما يؤدي إلى قصور في الشكل. ومنه رأى هيغل أن عمارة قدماء الهندوس والصينيين والمصريين فيها قصور في الشكل، حيث أن مضمون ذلك الفن لم يكن كاملاً ولا مطلقاً لذا لجأ إلى المبالغات أي إلى ما هو غير عادي وغريب. ومنه احتفظت الفكرة في هذا الفن بالتعارض مع الوجود الظاهر والتميز عنه، وبالتالي قامت حالة من الانفصال واللاتكافؤ بين الشكل والمضمون.

في المرحلة الأولى من تطور الرمز تكون الوحدة مباشرة بين المضمون والشكل. وهنا كانت الشعوب البدائية لا تدرك التمييز بين الجانبين، إذ نجد الشعب الفارسي يعبد النور بوصفه إله. وهنا النور هو الله وبالتالي الله عندهم يكمن في بساطة ذلك الجوهر المادي، أي عدم تفريقهم بين المادة والروح. وهذه هي الوحدة بين ما هو مادي وما هو روحي، والتي تعطي قاعدة الرمزية في الفن، وهنا كبح وحدّ للإبداع الفني، كما أنه لم يكن مهمّ ما نصفه بالفن، لأنه لم يكن ممكناً الوصول إليه إلا بعد أن حلّ محل هذه الوحدة التمايز والصراع بين المدلول وشكله، وهذا ما حدث عند الهنود القدماء لما أحسّوا بشعور غامض بهذا الانفصال بين المضمون والشكل ولكن كان هناك انفصال للحظات واتحاد في لحظات أخرى. أدى هذا إلى مزج بين الإلهي والحسي، ولهذا تميّز الفن الهندي بأشكال شائعة، إذ «هي خليط بين الأحلام الخيالية وذلك الخيال الجامع»⁴⁶.

ما نتج عن هذا الخلط والغموض والإبهام هو عدم الكفاية في التعبير الذي يكشف عنه المضمون والتجسد المادي. يقول هيغل: «أن السمة المميزة الأولى للفن الرمزي تكمن في وجود توافق بين المدلول ونمط التمثيل، بحيث لا يكون الهدف من الأشكال الطبيعية والأفعال الإنسانية أن تمثل ذاتها، بما فيها خصوصية وفردية. ولا أن تعرض للوعي مباشرة الإلهي المتضمن فيها. بل كل دورها أن تكون بحكم صفاتها التي يرتبط بها مدلول موسّع، إشارة «إلى الإلهي وتلميحاً إليه»⁴⁷.

كما يرى هيغل أننا نجد الفن الرمزي كذلك في مصر، حيث أن شعب هذا البلد لم يكن شعباً من الزرّاع فحسب، وإنما شعباً من البناة أيضاً، قلب الأرض، وحضر أقتنية وبحيرات، وأنشأ أروع الإنجازات وأعجبها. وكان الهرم بمثابة التحقق النموذجي لعمل الفنان المصري، ومنه فإنّ الرمز في الفن المصري عبارة عن إشارة تشير مدلولاً عاماً انطلاقاً من شكل قادر على تجسيده دون أن يتوافق معه بصورة مناسبة، ومن هنا فقد كان يمثّل الهرم أبسط شكل للفنّ الرمزي، إذ يشبّه هيغل الهرم بأنه «بلورة هائلة تحتوي في داخلها على شيء مستور تحيطه بشكل خارجي، حتى أنها لتبدو كما لو كانت لا يُقصد بها إلا أن تكون غلظاً لذلك الباطن، مجرداً من خصائصه الطبيعية الخالصة. ولا معنى لها إلا من حيث علاقتها بالمحتوى، كما أن السر الذي يحتوي عليه الهرم ليس إلا الإنسان نفسه الذي لا يعترف بذاته كشخصية حرة، ولا يستطيع أن يتعرف على ذاته في إنجازات تبقى خارجية بالنسبة إليه»⁴⁸.

إذا كانت الأعمال الفنية المصرية القديمة ذات رمزية مبهمة، وكما يمكن أن نقول إنها كانت تعبيراً ولغزاً من الصعب الوصول إلى حلّه، حيث كانت رموزهم تمثّل سلسلة مترابطة، بحيث أن ما يتجلى لمرة كمدلول لا يلبث أن يُستخدم كرمز في مجال آخر. من هنا نجد أن الفن الرمزي انطلق من التشكيلات الطبيعية التي تُؤخذ كما هي، وتدخل فيه الفكرة المطلقة غير المُتعيّنة، ولا يُراعى التناسب بين الفكرة والشكل⁴⁹.

أما أكثر أشكال الفنّ تميّزاً فهو فنّ العمارة، فلقد كان فناً بوسعه أن «يبني معبداً لله، لكنه لم يستطع أن يُعبّر عن الله»⁵⁰. فقد كان البناء والفكرة التي يرمز إليها حالة انفصال، والعلاقة بينهما مبهمة. فنجد هيغل هنا يتحدث عن الجليل والانفصال الصريح الأول بين الموجود في نفسه ولنفسه، بين الحسي والحاضر، حيث يرفع المطلق إلى ما فوق الموجودات المباشرة كافة، ويُحقّق على هذا النحو تحراً مجرداً في البدء يكون بمثابة الأساس للروحي، أما مضمون الجليل في الفنّ الرمزي في رأيه فنلمسه في التفرقة بين الشكل المادي والمضمون الروحي، ويتمثّل هذا في الشعر عند العبرانيين وأنبيائهم. وفي هذا الأخير يكون تصوّر المطلق على أنه الماهية الإلهية للعالم، والأشياء بالنسبة إليها هي أعراض، حيث أن كل ما عداها ليس إلا ظلاً أو مظهراً أو تجلياً لها⁵¹.

وهنا يكون الإلهي إما تصوّراً على أنه يسلب العالم أو ينفبه بوصفه الحقيقة العليا السامية التي تفتى أمامها جميع الأشياء المتناهية لتتحول إلى عدم. ويتمثّل هذا في الشعر الديني عند العبرانيين. وإمّا قوة خالقة للعالم فيكون محايثاً أو مباطناً ثم يتكشّف في الظواهر

كلها، أي الفن يرتفع بالظواهر بوصفها تعبيراً عن الإلهي الكامن. ويتمثل هذا في الفن المعبر عن وحدة الوجود الذي مارسه الفرس والهنود.

كما أدى الانفصال واللاتلاؤم بين الشكل والمضمون إلى انتشار الحكايات الخرافية، والقصص ذات المغزى الأخلاقي أي القصص الرمزية، ويعتبر هيغل أن هذا هو سرّ انحلال الفن الرمزي لشيء فيما بعد وهو الفن الكلاسيكي⁵².

وعلى هذا الأساس اعتبر هيغل المرحلة الرمزية مرحلة تقريب الطبيعة من العقل وختمها بخاتم الروح. «لقد تجاوز ثنائية العقل والطبيعة وأسهم في تنقية العالم الخارجي وفي توحيده وجعله متجانساً تحت قوانين العقل»⁵³. هنا غلبت على هذه المرحلة المادة، إذ كانت بمثابة رمز للفكرة المحتواة في المادة، ويتجلى هذا كما أشرنا سابقاً في العمارة والمعابد القديمة. إذ لم يتحقق البعد الجمالي، لأن الفن بقي يقتبس مضمونه من معين المدلولات الطبيعية ويستعير أشكاله من المواضيع الطبيعية والشخصيات البشرية.

يخلص هيغل أن الفن الرمزي يقيم مبادلات بين الروحي والطبيعي، إما بإضافة المضمون الروحي إلى ما هو طبيعي، أو بانكشافه على الطبيعي من خلال الروحي، وهنا يأخذ الجليل مأخذ التعبير عن اللامتاهي، دون إمكانية العثور على وسط حسي كافٍ للتعبير عنه، أي أنه يبقى شيء لا يمكن التعبير عنه، وبالتالي يحطم كل شكل ويمزق كل صورة، وهذا ما يفرقه عن الجميل من حيث أنه يعتمد على أنه المطلق يجد تعبيره الكافي والكامل في تجسيد حسي. من خلال ما سبق فإن نهاية الرمزية دلالة على عدم كما هذا الفن، حيث أن المضمون لا يتفق على نحو سلس مع الإشارة الحسية، كما أن هناك هوة كبيرة تفصل الإنسان عن الله.

2 - النمط الكلاسيكي وتطوره:

يقوم في النمط الكلاسيكي التوافق والتطابق بين الفكرة وتظاهرها الخارجي، وبين المفهوم والشكل، أي أصبحت هناك وحدة متلاحمة بين الشكل والمضمون ليتجسد بذلك المظهر الحقيقي للفكرة، التي كانت مفقودة في النمط الرمزي، بمعنى أن النمط الكلاسيكي ظهر بعد انحلال النمط الرمزي بسبب عجزه عن تحقيق وحدة المضمون والشكل المطابق له. «في هذا النمط يكون الصراع الديالكتيكي ما بين الفكرة ومادتها المشكلة بها صراع متكافئ متوازن، بل تبدو اتحاداً وائتلافاً بين الشكل الخارجي وفكرته في العمل الفني»⁵⁴. يعتبر هيغل أن «في المرحلة الكلاسيكية يخرج العقل من سباته، يكسر

قشرة الغموض التي كانت تلفّه، ويتوهج في تحقّقه الذاتي شكلاً إنسانياً يوحد بين المعنى والمبنى، بين الفكرة وتجسيدها المحسوس، وفي هذه المرحلة يتخذ الفن الكلاسيكي من الشكل الإنساني المثالي، رمزاً للعقل الإنساني الكلي⁵⁵؛ «هو رداء العقل، وهو الروحانية في بعدها الفردي والملموس. هو ينقي الشكل الإنساني من العيوب التي علقت به في أثناء المرحلة الحسية، ويحرّره من الأعراض الظاهرية الكثيرة. لكن الروح لا يستطيع أن يتبدّى للعين إلا من خلال حضوره المادي، ولا يمكن اتهام هذه التشكيلة المادية الجمالية بأنها حطّ من مستوى الروح، بل هو رفع إلى مستوى الروح»⁵⁶.

وعليه فالفن الكلاسيكي يربط بين الحرية الفردية للشخص ويصبح بذلك مضمون هذا الفن حرّ ومستقل، يعبر عن مدلول ذاتي يسعى إلى تحقيق المثل الأعلى للفنّ من خلال تحقيق الوحدة بين الصورة ومدلولها، إذ أن هذا الاندماج لم يتحقق من تلقاء ذاته بل لأنه إبداع من قبل الروح... وما دام أن هذا الفن من نتاج الروح، فإنّ الرمزي، فالفنان في هذا النمط من - الفن الكلاسيكي - يصبح هو الصانع والخالق للفن بحيث يحرر الفن من كل إبهام وغموض وتكلف وتشويه، وبذلك يرتقي بالفنّ لأنه يمتلك كل القدرات اللازمة لتحقيق ذلك لأنه حرّ وبحريته يستطيع أن يمثل أي موضوع، من خلال التركيز على كل ما هو رئيسي وترك كل ما هو ثانوي، بعكس ما هو سائد في الفن الرمزي، وعليه «يظهر النمط الكلاسيكي للفنّ حين تصل الروح في تطورها إلى مرتبة التحرّر من الطبيعة، وتسمو عن التجسيدات الحيوانية لتتخذ من الشكل الإنساني مظهرًا لها، وحينئذ تدرك الروح ذاتها، منفردة ذات شخصية.

وقد تم هذا الوعي في الحضارة اليونانية القديمة، حيث أمكن للفنانين والشعراء، أن يقوموا بدور الأنبياء وقدموا وجهة نظر هذه الحضارة للألوهية، فكان الدين عند اليونان هو الدين المطابق للفنّ وأمکن للفنّ أن يُعبّر عن المطلق⁵⁷، وفي هذا النمط من الفن كشف الإنسان عن نفسه وعن وعيه بنفسه، بحيث اتسمت أعماله الفنية بالدقة والوضوح والنضج، واتصفت بالمثل الأعلى؛ هذا ما نلمسه في الأعمال الفنية اليونانية، وهذا يعني أن الشعب اليوناني قد وعى فرديته وذاتيته وأصبح بذلك يبحث في الغايات الكلية وهي تحقيق الحرية الذاتية، فأضفى بذلك على الآلهة أشكالاً حسية وعينية واتخذ منها موضوعات للحس والإدراك، وهذا من شأنه قد خلق تكاملاً بين الشكل والمضمون أي، بين الفردي والكلّي.

ومن ثمّ كان الفنّ في بلاد اليونان هو التعبير الأسمى عن المطلق، والديانة اليونانية هي

ديانة الفن»⁵⁸. بحيث أن الفن كان شديد الصلة بالجانب الديني، وهذا يظهر في تطوّر الفن الكلاسيكي، للآلهة باعتبارها قوى خالدة يسمو جلالها فوق كل ما هو جزئي، باعتبار أن الآلهة ليست تجريداً من التجريدات، وإنما هي عبارة عن أفراد حقيقيون يسعى كل واحد منهم أن يظهر كمثّل أعلى يمتلك حقيقة واقعية، لأنه يمتلك روحاً وعقلاً، وهنا الفن أصبح لا يؤخذ من الأشكال الطبيعية كما كان سائداً في السابق، بل أصبح يأخذ من الشكل البشري باعتباره هو وحده الأنسب الذي يناسب الروح من حيث أن الروح تتحقق وتسري فيه، وبذلك فالفن الكلاسيكي قد أنقص من المكانة السامية التي كانت تتمتع بها الحيوانات فيما مضى وأعلى من قيمة الإنسان باعتباره هو الشكل الملائم الذي يمكن للروح أن تتجلى وتظهر فيه، وذلك أن الروحي لا يغدو عينياً ومحسوساً إلا إذا تجسد في الشكل البشري، ومن ثم يكتمل توافق الشكل ومدلوله، وعلى هذا نجد الشعب اليوناني قد نسب آلهته «وجعلوهم يمارسون أنشطتهم في قلب الواقع الإنساني، فلم يعد الإله منفصلاً عن الواقع أو يوجد وجوداً مستقلاً عن الإنسان، كذلك لم يتخذوا عناصرهم من الطبيعة الخارجية الغريبة على الروح الإنساني، أو من المملكة الحيوانية أو العالم الخارجي ككل»⁵⁹، وعلى هذا فالشكل البشري ضروري لتحقيق ذلك الانسجام بين الشكل ومضمونه، وبالتالي فالتمجيد البشري على حساب الطبيعة الحيوانية، يُساهم بقدر كبير في رفعته وتقريبه من مستويات الآلهة.

يتجلى في الفن الكلاسيكي اتحاد الشكل والمضمون؛ حيث أن الآلهة الممثلة في فن النحت لا تعاني من الانفصال بين ذاتيتها، بل تتجلى فردانيتها الروحية الثابتة والجوهرية. وهنا الآلهة قوة خالدة، يسمو جلالها فوق كل أحوال الوجود الجزئي، متحررة من كل اتصال خارجي وأجنبي. وهذا لظهور واضح لطبيعتهم الثابتة واستقلالهم المطلق. وفي الوقت عينه هم أفراد حقيقيون. فكل واحد منهم يبدو أنه المثل الأعلى، والذي يملك في نفسه الحياة والحقيقة الواقعية.

إذاً، ما يميّز الفن الكلاسيكي عن الفن الرمزي هو التشبيه، وهذا بتصويره الآلهة في صورة بشر. فكيف ولماذا تجاوز هيغل هذه المرحلة؟ وما هي أسباب انحلال الفن الكلاسيكي؟ رغم أن الفن الكلاسيكي حقق التآلف والتكامل بين الشكل والمضمون، وبالتالي كان أكثر تطوراً من الفن الرمزي، إلا أنه في رأي هيغل «كان يحمل أسباب وعلل انحلاله داخل طبيعته، حيث أن الآلهة في هذه المرحلة حملت في ذواتها بذور انحطاطها. وهذا ما نتج عنه انحلال المثال الكلاسيكي»⁶⁰.

كما يرى هيغل أن أبرز سبب عَجَل بسقوط الفن الكلاسيكي هو ميله لنزعة التشبيه، كما عَجَل هذا بسقوط صفوة الآلهة في نظر الشعراء والمؤمنين البسطاء والأطهار. وهنا بدا تصوّر الجانِب الإلهي تصوّر معيب وخاطئ، حيث أن الله هو مصدر الحرية والروح اللامتناهية. في حين أن آلهة اليونان لم يكونوا كذلك، وهذا ناتج عن تعددهم وكثرتهم، إذ أن كل واحد منهم يحدّ الآخر ويقيده، وبالتالي لم تكن لهم السيطرة واليد المسيطرة والمتحكمة على العالم، بل حتى على مصيرهم أصلاً، ومن هنا كانت معظم مواجهاتهم وصراعاتهم وتدخلاتهم تُلغي سكونهم، حيث أنها تتصرف كأفراد فاعلين. وبالتالي بدأت تُعكّر جوهريتها، ودخلت في تناقض مع عظمتها وعزّتها وجمال وجودها. «ووقعت ضحية التعسف والمصادفة»⁶¹.

يرى هيغل هنا «أنه يعلو عليهم ما يسمّيه القدر (الضرورة) والذي له سلطانه على البشر والآلهة، وهو القوة الواحدة والكلية التي تتجاوز خصوصيات الآلهة الفردية. ومن غير الممكن أن تتمثّل هذه القوة في مظهر فرديّ، لأنها لن تعدو أن تكون هذه الحالة فردية إضافية بين سائر الفرديات الأخرى، ولن يكون في استطاعها بالتالي أن تهيمن عليها، ولهذا تبقى قوة القدر بلا شكل ولا فردية، كلزوم مجرد»⁶².

لا تكون الآلهة هنا سوى موجودات غير حرة متناهية، كالبشر تماماً تخضع لضرورة سير الحوادث.

كما نلمس هنا انطلاقات هيغل في تصوّره لله ورؤيته المثالية، فيرى أن الفن الكلاسيكي والذي كان أسمى الفنون، حيث تجسد فيه اللقاء الحر بين المضمون والشكل في أفضل صورته. عمل في طياته عوامل انحلاله كما قلنا من قبل بميوله أولاً إلى التشبيه والذي ميّزه عن الفن الرمزي، كما عرف الكثرة والتعدّد للآلهة، والذي ميّزه عن الفن الشرقي (الرمزي) في آسيا والهند. وبدورها كانت الآلهة تخضع خضوعاً ذليلاً لسير الحوادث. ونجد أن اليونانيين كان تمثيلهم لآلهة ليست ذاتية ولا متناهية، حقيقية في ذاتها، بل كانت متناهية وتخضع للقدر الغاشم.

لقد بقي الفن الكلاسيكي مرتبطاً بنفس الموضوعات التي تمّ معالجتها فيما سبق، وهي الأساطير، موضوعات التاريخ القديم، وبالتالي وقع في التقليد الساذج الذي يتطلب الحرفة لا الإبداع، مما أدّى إلى اختفاء ما هو أساسي وجوهري في الفن، وبضياع الجوهرية فإن الفن يبدأ في التفسخ والانحلال.

كما جاء الفن الكلاسيكي في مرحلة حساسة من التاريخ، حيث كان الهدف الأعلى

للحضارة اليونانية هو حياة الدولة ومصلحة المدنية والأخلاق والجمهورية والغيرة الوطنية عند المواطنين، ولكن هذه الغاية اصطدمت بطموحات الفرد اليوناني، وبحثه عن حريته واستقلالته، حيث أنه كان يسعى إلى شقّ طريقه مستقلاً، ومنه راحَ ينشد تحقق غاياته الخاصة. وبما أن الفن وليد الثقافة السائدة فهذا يفسّر التقابل بين الوجود الخارجي، وبين الروح التي تعي حريّتها. وهنا تحتمّ على الروح الانفصال عن عالم لم تعد تجد ذاتها فيه، وبالتالي فالنفس الحقيقية وعَتْ ذاتها، وأخرجت من ضميرها كل الحقائق الكلية للفكر، الأخلاق، الحق والخير، كتصوّرات صورتها هي واعتقادات راسخة وثابتة. صارت هنا الروح هي الأساس في التمثيل، ولم يُستمدّ من الطبيعة إلا الشكل الجسماني المحسوس، وهنا يتحقق ذلك التوافق السعيد بين الفكرة والشكل. ولكن هذا الاتحاد الذي تمّ في ميدان الواقع الحسي بإعطائه وجوداً ملائماً للروح يناقض بهذا نفسه المفهوم الحقيقي للروح، وبالتالي تحتمّ على الروح ترك هذا التوافق مع العالم الحسي، والانسحاب إلى داخل نفسها للعثور على انسجامها الحق في حضن الطبيعة الأليفة. كما أن ماهية الروح تكمن في التطابق مع ذاتها، وفي وحدة فكرتها وتحقيقتها. إنها لا تستطيع أن تجد حقيقة لائقة بها إلا في عالمها الخاص، أي في العالم الروحي للعاطفة والنفس، وبالجملة في الباطن. وبهذا تصل إلى الشعور بأن لها في ذاتها موضوعها روحاً، والاستمتاع بطبيعتها اللامتناهية وبحريتها⁶³.

قد كان انشقاق المضمون عن الشكل يجد تعبيره في الكوميديا والأهجية على حسب رأي هيغل، حيث أن «المطلق الذي يسعى إلى التحقق يجد نفسه عاجزاً عن ذلك، وينجم عن هذا العجز انفصال بين المطلق والوجود الواقعي، عندئذ لا يستطيع المطلق أن ينكشف إلاّ تحت شكل سلبي»⁶⁴، وبالتالي لم يتحقّق الجمال في هذه المرحلة رغم الائتلاف والتكامل بين الشكل والمضمون، وبقي يتغنّى بالفردية الروحية التي تعيش في الحاضر فقط وجسدياً، بينما تُهيمن عليها تجريدياً ضرورة القدر. هذا ما عَجَلَ بمجيء المرحلة الثالثة في الفنّ، وهي مرحلة الفن الرومانسي.

ما هي هذه المرحلة وهل أبقّت على نفس التآلف والتكامل بين الشكل والمضمون؟

3 - النمط الرومانسي وتطوّره:

في النمط الرومانسي ينفصل الشكل عن مضمونه وكأننا عدنا من جديد إلى الرمزية التي كانت أكثر تقدماً مما كانت عليه، بحيث أنّ في هذه المرحلة سعى الفنّ إلى الارتقاء إلى مستوى أعلى ممّا كان عليه في السابق، ويعني هذا أن الفن يجسّد رؤية جديدة للعالم،

ومن ثم يجسد شكلاً فنياً جديداً. «وفي الفن الرومانسي الذي تجاوز بمضمونه ونمط تعبيره الفن الكلاسيكي، توضع الفكرة المنتمية إلى الروح موضع التعارض مع الحسي، وهذا الانقسام مشترك بينه وبين الفن الرمزي، لكن مضمون الفكرة لديه ذو صفة أسمى، وطابع مطلق»⁶⁵.

يعني أن الفن الرومانسي تجاوز تلك النظرة العينية والحسية للروح المتجسدة في الطبيعتين البشرية والإلهية، كما كان سائداً في الفن اليوناني، أي أصبح مضمون الفن واقعي مجسداً في الذاتية، ولذا فالفرد الواقعي حسب هيغل يصبح تظاهر لله، أي يعبر عن حقيقة الله بوصفه هو المطلق الروحي، أي فאלله ليس مثال محض يولده الخيال كما كان سائداً في النمط الكلاسيكي الذي يمتلئ الإله من خلال موضوعات حيوانية وطبيعية، ولهذا فالفن الرومانسي يسعى إلى جعل الخارجي الحسي يعبر عن الداخلي المجرد، ومن ثم تصبح مهمته هي صيانة الاستقلال وجعل الروحي لله قابلاً في الإدراك الفردي.

وقد توصل هيغل إلى هذا من خلال تأويله للمسيحية التي ترى أن الله هو المطلق الذي يتجسد في الإنسان، وعليه يصبح الله إنسان فردي. «لهذا نرى المسيحية التي تتصور الله روحاً لا فردياً وخاصاً، بل مطلقاً والتي تحرص، بالتالي على تمثيله في الروح والحقيقة»⁶⁶، وهذا ما يتكشّف لنا في شخصية السيد يسوع المسيح، وعليه فإن هذا الاتحاد ليس شيئاً مجرداً وإنما هو شيء واقعي نابع من الإرادة البشرية، وهنا يغدو كل ما هو حسي جانباً ثانوياً من الفكرة الذاتية - الروحية، وبذلك يرى هيغل أن ما يميز هذا الفن عن غيره هو «موجوديته في ذاتها... هو الروحي الذاتي، إنه فن يفيد في التعبير عن كل ما يمت بصلة إلى العواطف والنفس»⁶⁷.

وفي هذه المرحلة من الفن يعي الفرد ذاتيته وحرية ويظهر الروحي بصفته روحياً، وبذلك تكون الفكرة حرة ومستقلة، وهيمنة تكون للعاطفة أي، أن هذا الفن يكون وليد العواطف والنفس والقلب والأشواق الإلهية وهذه المشاعر هي جوهر الرومانسية، بمعنى أن هذا الفن تنتصر فيه النفس وتنفصل عن العالم الخارجي الحسي، ويصبح بذلك التعبير عن المطلق نابع من الذات الفردية.

تعتبر هذه المرحلة الفنية من مراحل تحرّر الروح من المادة، وهي تقوم على فكرة الجدل بين الطبيعة والعقل، لأن الفكرة تابعة للوجود تغترب فيه وتعود. أي هناك حركة بين الطبيعة والعقل، وبالتالي التعبير عن روح الوجود، أي أنه ثمة إيمان أن الروح تتجلى في الطبيعة. في هذه المرحلة نعود لنجد تناقض بين المضمون والشكل، ولكن في مستوى أعلى روحياً من التناقض الموجود في الفن الرمزي.

يعتبر هيغل الفن الرومانسي هو أعلى أشكال الفنون، حيث تصبح المادة الخارجية مجرد إشارة، مجرد مظهر لفكرة، أي أن الشكل الحسي لا يعود كافياً لتجسيد الفكرة المتطورة، المنتصرة على الطبيعة، وهذا تأكيد آخر أن الإبداع الفني مرتبط أولاً وأخيراً بالفكرة. وبالتالي الطبيعة ذاتها ما هي إلا الفكرة وقد تخارجت عن ذاتها⁶⁸.
إذاً، كيف يبين هيغل الصلة الموجودة بين المضمون وشكله في الفن الرومانسي؟ ومن يتغلب على الآخر؟

في الفن الرومانسي يصبح الشكل والمضمون يمثّلان سبيلان متعارضان، وهنا تبدأ الروح في الرحيل عن عالم الفن. فكيف يحدث ذلك؟
لاحظ هيغل أن الحضور الإلهي يتقلص في هذه المرحلة، حيث نجد الطبيعة وقد خلعت طابعها الإلهي، إذ أن الجبال والوديان والبحار والسيول والينابيع والنهار والليل...
تفد قيمتها كوسائل لتمثيل المطلق، كما أنها لا تعود تخضع لعملية توسيع رمزي، أي أنها غير صالحة للتعبير عن سمات الآلهة فيصبح المطلق الكلي في ذاته المؤلف للمضمون الداخلي للفن الرومانسي.

يُبين هيغل في هذه المرحلة أن الفن في تمثيله للظواهر الخارجية لا يتجاوز حدود الواقع المادي المبتذل، وبالتالي لا يطمح إلى تمثيل الذات في الخارج بتجسيدها في جسم ولا إلى تمثيل الحياة في حالة الهدوء اللامتناهي. بل هو العكس «يسعى إلى ذروة الجمال، ليجعل الباطن يشارك كل ما هو عرضي في التشكيلات الخارجية، إذ يفصح مكاناً لا محدوداً للملامح التي تميز نقيض الجمال»⁶⁹، ومنه يتقلص الدور الإلهي وتفقد الطبيعة تمثيلها للمطلق، وهنا يتجاوز المضمون الشكل. كما أن الأعمال الفنية في هذه المرحلة تتسم بالغنائية وهنا يقول هيغل: «الأعمال الفنية التجسيمية وتحيطها، كالهالة، بضباب كثيف مبعث من النفس، لأنه في كل منتجات هذا الفن لا تتوجه الروح إلى النفس وإلى الروح»⁷⁰.
كما يُبين هيغل أيضاً هذه المرحلة مركزاً على العلاقة بين الشكل والمضمون، ومن هنا فإن الفن الرومانسي يمثّل الصراع والحركة والعمل، إذ يميّز هذه المرحلة ثلاث دوائر أساسية هي دائرة الدين، دائرة الفروسية، ودائرة الاستقلال الصوري للخصائص الفردية. أما دائرة الدين أولاً فيذكر هيغل فداء البشر وخلص البشرية جمعاء بواسطة السيد يسوع المسيح، وتجليات الروح المطلقة بواسطة الله ذاته منظوراً إليه بشكله الإنساني، بوصفه ذا وجود فعلي في العالم المتناهي، وفي ظروف عينية مستغلاً هذا الوجود ليكشف للناس وللعالم هذا المطلق.

ثم ينتقل هيغل إلى الدائرة الثانية لبيّن أن الفروسية قائمة على ثلاثة مفاهيم: الحب، الشرف، والإخلاص.

أما الحب فهو شكل عاطفة الاتحاد والمصالحة بين ما هو إلهي وما هو بشري. بينما الشرف هو قيمة لا متناهية، وفضله يشعر الشخص بنفسه اللامتناهية ولهذا السبب تعتبر كل إهانة للشرف أمراً لا متناهياً.

ولكن الإخلاص والولاء في خدمة سيد ما، فهو لا يرتبط بموضوعات القيمة الأخلاقية التي قد يعتز بها هذا السيد، بل بشخصية السيد وكل ما يقوم به من أعمال، سواء كانت شريرة أو خيرة.

كما أنه في هذه المرحلة الثالثة يتناول الجماعة المسيحية، وهنا يبين هيغل أن روح الله حاضرة بين الناس، نتيجة لاعتناق الناس للعقيدة، ونتيجة للقضاء على الجانب الطبيعي والمتناهي في الناس، لبحث فيما بعد في عودة البشرية إلى الله، التوبة، الفداء، (re-demption) والاستشهاد عوامل أساسية في هذه العودة وفي اتحاد الإنسان بالله.

هنا يقول هيغل: «هو (الفن) يجب أن يمثل لحياتنا الداخلية، تلك التي تتحد بموضوعها كما لو أنه ذاتها، أي يجب أن يمثل للروح، للقلب، للمشاعر، تلك الحياة التي تسعى بوصفها مجال الروح إلى طلب الحرية والتي لا تجد نفسها إلا في عالم الروح الداخلي. هذه الحياة الداخلية، العالم المثالي، هي مضمون الرومانسية، وهي تجد بالضرورة ما يعبر عنها في مشاعر وأفكار ذاتية وفي أشكال ومظاهر من النوع نفسه. ويحتفل عالم الروح والعقل بانتصاره على العالم المادي، ويجعل ذلك الانتصار بادياً حتى في العالم المادي، وذلك من خلال الفكر الذي يطفئ على الظاهر فيكاد يزول»⁷¹.

كما يتضاءل حجم الوسط الحسي، إذ ينبغي التعبير عن الروح بالفكر. ومنه فكيف تتجسد روح الفن الرومانسي؟ وهنا يلخص هيغل تجسد الروح في هذه المرحلة في الرسم، الموسيقى، والشعر. هذه الأنواع الفنية هي الأقل مادةً بين سائر الفنون، وهي توحد بين الحسي والروحي وبدرجة تبدو أكثر شفافية مما تجده في العمارة والنحت.

أ - الرسم: هو إحياء يعود بنا إلى الطبيعة، حيث أنه يحرّر الفن من موضوعية الشروط المكانية، وتغدو الرؤية أمراً مثالياً، أي إظهار الأبعاد الثلاثة على نحوٍ مثالي. وبالتالي يستطيع تصوير جوانب الطبيعة ومشاهدها كلوحات مليئة بالمشاعر، أي كنتاجات للوعي، مرفوعة للروح. كما يستطيع أن يصوّر مشاعر القلب البشري أو يقترحها. إذ يعرض أحاسيس النفس وآلامها، ويبين كيف يمتلئ القلب بالمحبة الإلهية، وهذا دليل على تأثره

بالدين المسيحي. وكيف يحقّ الإيمان بالله الطمأنينة والسلام. وهنا نجد أن الرسم لا يزال أسير المكان، حيث أنه يقدم معرفة فضلى للروح في وسط مادي سكوني، وهذا يعتبر تمثيلاً قاصراً.

ب- الموسيقى: هي خطوة متقدمة على الرسم، لأنها تجسّد مثالية جليّة ومشاعر ذاتية في مظاهر تتألف من أنغام رنانة بدل الأشكال المادية، حيث أننا لا نتأمل شيئاً خارجياً، بل نتتبع حركة الذات والباطن، ونسمع اللحن كما يتردد في داخلنا، وهنا تتدخل الذاكرة من حيث هي قوة نفسانية تتبع العمل الموسيقي كله. كما أنها ذاتية حرة من قيود المادة والامتداد، وهي لا تقوم كنتاج فني دائم إلاّ في الذاكرة، وعلى نحوٍ مثالي. فالنغمة تزول لحظة الانتهاء من سماعها، وبالتالي فالمضمون المادي يزول ويتحول إلى مُعطى سمعي. فهي تدخل إلى مشاعر الذات فتظهر جوهر حياتنا الداخلية.

ج- الشعر: يعتبر هيغل أن الشعر هو أكمل الفنون، حيث يقودنا إلى ما بعد الفن وهنا يقول هيغل: «إن مهمة الفن الأساسية لا يمكن أن تتحقق تماماً من قبله. ليس من شأن الفن أن يعبر ملباً عن المطلق الذي ليس قابلاً لترجمة حسبيّة خالصة، بل يتطلب داخلية التمثيل، وداخلية الفكر الخالص، هكذا يترتب على الفن أن يتجاوز نفسه، بحكم جدله الداخلي إلى دين أو فلسفة»⁷².

كما يعتبر هيغل أيضاً أن الشعر هو أفضل تمثيل وأعظم انتصار يحقّقه الفن حيث أنه باستطاعته إيصال مشاعر قوية متجانسة. وهو يستخدم العقل، الصوت، لكي يعبر عن تصوّرات ومُدركات مثالية، بل إشارة إلى أبعد من ذلك، أي إلى مجال الروح. وهنا الشعر يجسّد فكرة ملموسة لا غامضة ومبهمّة ومجردة كما في الرسم والموسيقى. «إلا أن مادة الشعر الحقيقية ليست الصوت وإنما المخيلة والفهم؛ ولأن المخيلة جزء حتمي في كل فنّ أمكننا بالتأكيد أن نجد في كلّ فنّ بعضاً من الشعر. غير أن ما يميّز الشعر هو أنّ المخيلة، مع الفهم، تشكل فيه العنصر الطاغي»⁷³.

إن إعلان هيغل عن موت الفن ما هو إلا تحقيقاً لنسقه الفلسفي الذي يعتبر أن الفن هو المرحلة الأولى من مراحل تحرر الروح، فصار ضرورياً أن يتوقف الفن عن إشباع العقل الأسمى، وبالتالي الانتقال إلى دائرة الدين اتساقاً مع رؤيته المثالية.

لقد اهتمّ الفلاسفة منذ القديم بتصنيف الفنون الجميلة، حسب قوتها التأثيرية ونفوذها إلى عمق الروح والمشاعر، ومن أشهر تصنيفات الفلاسفة، نجد تصنيف هيغل الذي نظّم هذه الفنون كلها في نسق هرمي يخضع لنظريته الخاصة بالأنماط الثلاثة التي تتحقق من

خلالها فكرة الجمال ويتداخل مذهبه في الفنون بتاريخه للفن فيصبحان وجهين لعملية جدلية واحدة. وقد صنّف هيغل هذه الفنون إلى صنفين وهما:

1 - الفنون الموضوعية: والتي تشمل على فنّ العمارة، النحت والرسم.

أ - فنّ العمارة (architecture): وهو أكمل الفنون الرمزية، وقد ظهر هذا النوع من الفنّ في الحضارة المصرية، وتطوّر هذا الفن حتى خلق نوعاً من التوافق بين مدلول الفكرة ونمط تمثيلها، وهنا الخيال في هذه المرحلة أصبح أكثر تطوراً مما كان عليه في الحضارة الهندية، لأنه مبتكر من قبل الروح ويصبح بذلك الشكل الفني ناتجاً عن نشاط الروح. فالفنّ المصري القديم يستخدم الفكرة لتجسيد مدلولها عينياً، ومن أبرز الفنون المعمارية في مصر نجد المسلة «وهي تكون حلقة وسطى بين المعمار وبين النحت، إنها لا تستمد شكلها من الطبيعة العضوية الحية، ولا من المملكة النباتية أو الحيوانية أو من شكل الإنسان، وذلك لأن شكلها منتظم تماماً... أنها تبدو بشكل حر ومستقل وتستمد معناها من أشعة الشمس»⁷⁴، وهذه المسلات قد بناها المصريون لعبادة إله الشمس الذي تتلقّى منه الأشعة إلى جانب هذا توجد أنماط أخرى من العمارة كالأهرامات التي بنيت خصيصاً للحفاظ على أرواح الموتى، هناك، كذلك نجد تماثيل الآلهة التي تتخذ الشكل البشري وتحوي بداخلها أغازاً ورموزاً.

ولكن رغم هذا التطور الذي لحق بفنّ العمارة إلا أنه بقي هناك انفصال بين الفكرة ومضمونها «والعلاقة بينهما غامضة، إذ لم يكن بمقدور المثال أن يتحقق كروح في مادة العمارة ونسيجها. فنسيج العمارة هو الأكثر مادة بين كل الفنون، وتبعاً لذلك فهو يخضع لقوانين الميكانيكا»⁷⁵، وبذلك لم تكن أشكال العمارة لتتناسب مع الفكرة وتعبّر عن عمق الروح، بل بقيت مجرد أشكال هندسية جامدة خاضعة لمجموعة من القوانين، وهذا ما أدى بدوره إلى انحلال هذا الفن لأن الفكرة بقيت مجردة وغامضة.

ب - فنّ النحت (sculpture): ويصنّف هذا الفن ضمن النمط الكلاسيكي، وقد اختصّت به الحضارة اليونانية، وذلك من خلال نحت العديد من الصور للآلهة لتحقيق المطابقة المثلى بين الشكل والمضمون. «ومبدأ هذا النمط هو التعبير عن الفردية وفي النحت الكلاسيكي يكون الباطن الروحاني مرئياً، ويكشف المظهر الجسماني الخارجي عن الروح وقد أمكن للنحت اليوناني أن يكشف عن المبدأ الإلهي في عظمتة وهدوئه»⁷⁶. وهذا يعني أن فنّ النحت قد خطى خطوة أمامية في التعبير عن الروح الكلي للإله، إذ أمكن وبفضل هذا الفن الكشف عن المظهر الجسماني للروح لأن الفكرة هنا كانت متطابقة ومتوازية

مع شكلها، وبهذا أصبح الإنسان في فنّ النحت أكثر حرية في التعبير عن أي فكرة تخطر على ذهنه. وذلك راجع إلى تعددية الآلهة. فكل آلهة تحمل شخصية معينة، ومن ثم فتعدد الآلهة والشخصيات التي تحملها من شأنه يوسّع دائرة الإبداع الفني.

وبهذا أصبح النحت اليوناني بمثابة التعبير عن المعتقدات الشعبية اليونانية، لكن رغم هذا فإن هذا الفن انحلّ لأنه لم يستطع التعبير عن الروح المطلق وذلك راجع إلى سيادة النزعة التشبيهية، أدت إلى سقوط القيمة السامية التي تميّزت بها الآلهة.

ج - فن التصوير أو الرسم (Dessin): هو فنّ يندرج أيضاً ضمن النمط الرومانسي، إذ يرى هيغل أن هذا الفن قادر على إعطاء رؤية مثالية للروح، تختلف عن تلك الفخامة في التمثيل الموجود في العمارة والنحت، لأن «الرسم مثالي، فهو يستطيع بالتالي أن يصوّر مشاعر القلب الإنساني أو يقترحها، ويستطيع أن يصوّر جوانب الطبيعة ومشاهدها كلوحات مملأى بالمشاعر»⁷⁷، أي أن فن الرسم هو إبداع ناتج عن الوعي مرفوع إلى الروح.

لكن رغم هذا، فإن هذا الفن وتمثيلاته لم يتخلص ويتحرر من قصوره لأنه ما زال أسير المكان، وهو بذلك يقدم المعرفة في وسط مادي سكوني، وعلى هذا يرى هيغل أن هناك فنّ آخر قادر على التعبير عن الروح الداخلية بطريقة تُثلى وهو فنّ الموسيقى.

2 - الفنون الذاتية: وتشتمل على فنّي الموسيقى والشعر.

أ - الموسيقى (Musique): هذا الفن يندرج أيضاً ضمن النمط الرومانسي، إذ يرى هيغل أن هذا الفن هو نقيض الرسم «فهي ذاتية - الموسيقى - وهي لا تبدي كبير التمسك بالمكان، إلا كالصدي مثالي كالتواصل في العقل، هي حرة من قيود المادة والامتداد، وهي لا تقوم كنتاج فني دائم، إلا في الذاكرة وعلى نحو مثالي، - إذ أن النغمة تزول لحظة نفرغ من سماعها - تدخل الموسيقى، وقد تحررت من كل قيد إلى مشاعر النفس»⁷⁸، وهي خطوة متقدمة عن الرسم لأنها تجسد مثالية ذاتية واضحة، فهي قادرة عن التعبير عن مشاعر الروح الداخلية، في مظهر يتألف من أنغام رنانة تخاطب الروح، بدل من الأشكال المرئية المحسوسة.

ولكن رغم هذا يرى هيغل أن الموسيقى لا يمكن أن تمثل أعلى أنواع الفنون، لأنها مشاعر مبهمة وغير محددة، ومن ثم دعى إلى نوع آخر من الفنون قادر على التعبير عن الروح ويتمثل هذا الفن في الشعر.

ب - فن الشعر (Poésie): يعتبر هيغل أن الشعر هو أعلى أنواع الفن الرومانسي، لأن صوت الشعر ليس مادة مجردة كما في الموسيقى، بل هو أبعد من أن يكون مجرد صوت،

وهذا يعني أن الفكرة «التي يجسدها الصوت الشعري الآن هي فكرة ملموسة، ولم تعد كما في الموسيقى والرسم غامضة مجردة»⁷⁹، وهذا يعني أن الشعر مجاله المخيلة. والفهم وبذلك هو أكثر حرية وسمواً عن غيره من الفنون فمجاله هو إغراء الروح، وبهذا يعتبر هيغل فنّ الشعر فناً كلياً، لأنه ينتمي إلى حياتنا الداخلية حياة العقل والمشاعر، وهذا الشعر ينقسم إلى ثلاثة أنواع أساسية:

الشعر الملحمي، الغنائي والدرامي.

يظهر الشعر الملحمي عادةً في المجتمعات النامية التي لم تصل بعد إلى مرحلة التطور، فهذا الشعر يُعبّر عن حركة العالم بأجمعه وتاريخ عصره ويعبّر عن مجموعة الأفكار والعقائد التي لدى شعب من الشعوب وعلى هذا «الشعر الملحمي يظهر عادةً روح المجتمع حيث تتوارى فردية الشاعر، خلف أحداث وبطولات مجتمعة كالإلياذة والأوديسة»⁸⁰. فالقصيدة الملحمية تُعبّر عن حياة أمة بأكملها وشعب بأجمعه.

وعليه فالشاعر الملحمي هو شاعر قومي معبّر عن تاريخ أمته بأسرها مثال ذلك: أشعار هوميروس التي كلّها تصف مجتمعه اليوناني، وعلى هذا نجد موضوع هذا الشعر يكون موضوعي يعبّر عن أوضاع اجتماعية عليا وفيه تختفي شخصية الشاعر وذاتيته.

أما الشعر الغنائي يختلف عن الشعر الملحمي، لأن أهمّ ما يميزه هو التجلي الواضح، لذاتية الشاعر الذي يعبّر عما يحسّ به من عواطف الإعجاب والفخر تجاه أمنه وحضارته، وعلى هذا فإنّ هذا النوع من الأشعار ناتج «من كبرياء الفنان المتأتية بدورها من الوعي المترسخ لديه بتفوق الحضارة التي إليها ينتمي، هذا الوعي الذي يحمله، على أن يعتبر أن الأفكار والأخلاق والمواصفات الاجتماعية السائدة في هذه الحضارة هي وحدها القيّمة والمقبولة»⁸¹، ومنه فإنّ هذا الشعر يقوم على التغني والفخر والاعتزاز بما تقدمه حضارته من إنجازات مثال ذلك الشعب الفرنسي الذي يفتخر جداً بمجتمعه وثقافته فهو لا يتذوّق شيء ولا يعجبه إلا إذا تمّ فرنسته وجعله تابعاً لحضارة مجتمعه. وعليه، فإنّ القصيدة الغنائية تكون محبوكة من الفكر الباطني لشاعر نفسه، وهذا لا يتحقق إلا إذا كان يملك موهبة شعرية حقيقية وخيالاً ثرياً بالحساسية وأن يكون عظيماً وعميقاً في فكره.

ولكن النوع الثالث من الشعر فهو الدرامي الذي يختلف عن الشعر الغنائي، فهو يعبّر عن الأوضاع الداخلية للمجتمع المرتبطة بنوع من النزاعات التي تحركها قوى القدر، ويقوم هذا الشعر على عرض «الأفعال والعلاقات في الحياة الإنسانية ممثلة أمام عيوننا بواسطة شخصيات تعبّر عن هذه الأفعال بالأقوال»⁸².

إذ يعني أن هذا الشعر ينقل لنا الواقع الاجتماعي الموضوعي من خلال عرض مشاهد مسرحية درامية تظهر الصراع بين مختلف الطبقات الشخصية للمجتمع بسبب اختلاف في الأهداف والمصالح، وسط مواقف مختلفة محضوفة بالمخاطر ويقوم المشهد المسرحي، على العرض والكشف على الشخصيات من خلال عرض أخلاقهم وطبائعهم وتأثيرهم المتبادل، فيما بينهم وفي الأخير يحاول هذا المشهد المسرحي بعرض الحل الملائم لإنهاء هذا النزاع، ليحلّ بعده السلم والهدوء.

وهذا النوع من الشعر يخصّ الحضارة المتقدمة والمتطورة بخلاف الشعر الملحمي والغنائي، وعليه فإن الأفكار، قد نمت وتطوّرت مما كانت عليه من قبل، وهذا الشعر ينقسم إلى قسمين بارزين هما:
التراجيديا والكوميديا.

1 - التراجيديا: (Tragédie): «التراجيديا عبارة عن مسرحية ذات موضوع جاد، ذي طابع حزين، يتعرض لأفعال البشر في صراعاتهم مع القوى التي تحيط بهم، وتتحكم في مسار سلوكهم، سواء أكانت قوى خارجية مثل البشر أو الآلهة أم قوى داخلية مثل النزاع والأهواء»⁸³، يعني أن موضوع التراجيديا يتناول مشاكل الفرد وقضاياها، وهذه التراجيديا تنقسم بدورها إلى قسمين أساسيين:

أ- التراجيديا القديمة: إن موضوع التراجيديا القديمة يتمحور حول موضوع النزاع بحيث تعيد الوحدة للجوهر الأخلاقي الذي كان منفصلاً، ويقوم هذا العمل على إسقاط المطالب أكثر غرابة وتطرفاً، وهذا الحلّ هو أساس العمل التراجيدي لأنه يلغي التناقض والنزاع «بالبلوغ إلى مركب أعلى من خلال تنظيم جدلي بينهما، يبرز في العقل ضرورة انكسار قيمة لحساب قيمة أعلى منها»⁸⁴، وبهذا الجدول والنزاع الذي يعتبر حتمية تحكم الحركة الدرامية يحصل المركب الذي يجمع بين الطرفين المتنازعين، وبهذا العمل التراجيدي يظهر لنا هيغل أهمية المنهج الجدلي في تحصيل الحقيقة.

ب - التراجيديا الحديثة:

أما التراجيديا الحديثة فسمتها الأساسية هي أنها أصبحت تهتم بالجانب الشخصي والذاتي من خلال استحضار مشاعره وعواطفه والتعبير عنها، وهنا الذاتية أصبحت تظهر بصورة أقوى بعكس مما كانت عليه في التراجيديا القديمة التي تحكمها القوى العليا من السلطة والقانون والبطل في هذا العمل التراجيدي أصبح يمثل نفسه دون أن يمثل السلطة

والقانون، وهذا ما مثلته مختلف المسرحيات الحديثة مثل: أعمال وليام شكسبير* حيث يضعها هيغل «في مواجهة أعمال الإغريق. ويبدو موقفه هذا واضحاً في ملاحظاته على «هاملت». فهو يرى في «هاملت» ذلك التصادم الأساسي الذي نجده في Choephore لأسخيلوس و Electra لسوفوكليس. في المسرحيات الثلاث يقتل الملك - الأب، ويتزوج القاتل الملكة - الأم. لكن القتل في مفهوم التراجيديين الإغريق إنما يمثل عقاباً تمليه العدالة الأخلاقية... أما في مسرحية شكسبير فإن الأم تبدو بريئة من الجريمة، والعمل الشائن ذلك إنما ارتكبه ملك دموي دونما مسوّغ من حق أو مؤسسة»⁸⁵.

وعلى هذا يرى هيغل أن شخصيات التراجيديا الحديثة تبدو أن لديها ميل أقل للمصالحة، لأن الجوهر الأخلاقي هنا هو داخلي تمثله عواطف ورغبات وميول الفرد، وعليه نلتبس اختلاف واضح بين التراجيديا القديمة والتراجيديا الحديثة، فالتراجيديا القديمة تعرض شخصيتين لهما حقين متعارضين، أي لها نفس الغاية القدسية، في حين نجد التراجيديا الحديثة، تعنى بما هو ذاتي وتمثل العواطف وتعرض الشر واللامصالحة بخلاف التراجيديا القديمة، كما أنها تختلف في حلّ النزاع. فالتراجيديا القديمة تنتهي إلى تحقيق العدالة المطلقة التي تسعى إلى تحقيق الروح. في حين، نجد التراجيديا الحديثة تترك حل النزاع إلى المصادفات أو الظروف ومرجعها إلى علاقات الأفراد. أما النوع الثاني من أنواع الشعر الدرامي نجده في الكوميديا.

2 - الكوميديا (Comédie): هي «مسرحية ذات طابع فكاهي ساخر، يرمي إلى عرض النقائص الإنسانية، والعيوب الاجتماعية، عن طريق تصوير البشر في مواطن نقصهم وضعفهم»⁸⁶، وهنا نلاحظ أن الكوميديا بخلاف التراجيديا، لأن هذه الأخيرة تقوم على التناقض النزاعي من أجل تحقيق مبدأ جوهري وهو تمثيل أفكار حقيقية وعرضها، أما الكوميديا هي على عكس من ذلك فهي تقوم على مبدأ المفارقة، بحيث أنها تعرض حقائق عميقة جداً وجوهرية، لكن بطابع هزلي وطريف يبعث على الضحك والملهاة والسخرية، إلا أن الضحك هو سخرية من العقل لأنه وضعنا في مفارقات وتصوّرات أفكار وعلاقات على غير وجهها الصحيح، فالكوميديا تقوم على عرض مصالح الأفراد المتعارضة والمتناقضة، لكن لا تكشف عن مسار واحد لهذه الأحداث وهذا النوع من الكوميديا قد مثله أرسطو فانس* من خلال مسرحيته الكوميديّة «جمعية النساء». ففي هذا العمل الكوميدي قد سخر فيه من السياسة الديمقراطية المفترطة القائمة على المبادئ الفاسدة التي تتعارض مع ما ينبغي أن تكون عليه الدولة، فهو يشبه الحكام الديمقراطيين بالمجتمع النسوي الذي

تتغلب فيه الأهواء والعاطفة والمشاعر على العقل. ويقصد بهذا العرض، هو أن الحكم الديمقراطي هو حكم ناقص بحكم أنه لا يقوم على مبادئ عقلية وأسس منطقية، إنما يقوم على مبادئ وأسس ضعيفة.

وهنا يرى هيغل أن الكوميديا هي «نوع من أنواع برهان الخلف في المنطق بحيث تعرض الكوميديا نقيض الحقيقة وتتصرف معه على أنه حقيقة حتى تكشف المفارقة عن الكذب هذا النقيض، فتردنا السخرية إلى الحقيقة، ويثوب العقل إلى الحق بعد أن ضحك من نفسه حين توهم ما يخالفه»⁸⁷، وهذا النوع من العمل الفني ينتقده هيغل، لأنه يقدم الحقيقة بطريقة ساخرة يقول: «فكرتا الجميل والخير الخالصتان إنما تظهران المشهد الكوميدي المتمثل في كونها تصيران خاويتين، من حيث تحرران من الرأي الذي ينطوي على تعيينهما كمضمون، كما على تعييناتها المطلقة، أعني رسوخ الوعي، فتصيران بذلك لعبة الرأي والاعتباط الذي للفردية العرضية»⁸⁸، يعني أن هذا الفن ليس بمقدوره تقديم الحقيقة الجمالية الخالصة التي هي الغاية القصوى لكل عمل فني.

وانطلاقاً من هذا التتبع التاريخي للفنون ومراحل تطورها، يعلن هيغل عن النهاية الحتمية للفن. فهذا «الإعلاء الهيجلي للشعر إلى مستوى يقارب المثالية الخالصة، حيث الخيال نسيجه الحقيقي الوحيد، يقود منطقياً إلى ما بلغه «غروتشه» (بعد ذلك) حيث الفن هو بكيته مثالي، بمعنى أنه حدس (عيان) روحي مكتمل قبل أي صلة له بالخارج»⁸⁹. هذا الإعلاء للشعر، ليس إلا بداية النهاية، فالموت الوشيك هو قدر الشعر، أعلى الفنون منزلة، لكن مصير أنواع الفنون الأخرى، والأقل منزلة ليس أفضل حالاً وإنما يجري استيعابها كلها في نشاط روحي أعلى، فالتطور المطلق عند هيغل لا يتوقف، ولقد قال هيغل: «لا يمكن اعتبار الفن، لا مضموناً ولا شكلاً، كأعلى أو أكمل أشكال تقديم هموم حياتنا الروحية الحقيقية إلى الوعي... إن المستوى القائم في العمل الفني وفي نتاجات الفن عموماً لا يفي على الإطلاق بالحاجة الأعلى لدى الإنسان. إن الأمر هو أبعد من مجرد مدح نكيه لأعمال الفن أو نعوت تجعل تلك الأعمال سامية وجديرة بالعبادة... هوذا موضع التفكير والفكر»⁹⁰. لقد تجاوزت الروح التعبير أو التجسيد الحسي عنها. وهذا ما يؤدي إلى الانتقال إلى دائرة الدين. لذا نجد هيغل يقول في «فلسفة الفن الجميل»: «ولأن الفن يحمل في ذاته حدوداً لا يستطيع أن يتخطاها، لذلك يتجاوز الوعي الإنساني نحو أشكال تبدو تلاؤماً مع المضمون الروحي. هي ذي دلالة الفن وقصوره في أن معاً، وهو لتقييم الحقيقي الوحيد الذي يمكن منحه للفن في أيامنا هذه. إذ لم يعد الفن الأوروبي بالنسبة لنا، السبيل الأفضل لالتقاط الحقيقة»⁹¹.

رغم هذا الإعلاء للشعر والمكانة الجليلة التي حظي بها على غيره من الفنون الأخرى، إلا أن هيغل فقد أعلن عن نهايته، ونهاية الفنون كلها. ذلك لعجز الشعر عن تقديم الحقيقة الروحية الأعلى، وهذا راجع إلى نقصه التكويني. بحيث انغمس بالفرديّة وغلّف المضمون الروحي بالخيال إلى جانب ذلك غربة الشكل الخارجي واختلافه عن مضمونه الروحي والشكل المادي وهنا الروح في الشعر يسحب تماماً من التجسيد المادي الأمر الذي يناقض تعريف الفن الذي يقوم على فكرة أساسية وهي تطابق الشكل مع مادته إذ أن الشعر وصل إلى مرحلة إذ لا يمكن أن نطلق عليها أي تسمية من مسميات الفن، لأن هذه اللحظة من تطوّر الشعر أصبحت غير قادرة على حمل الروح بمواصفاته الجديدة، وبالتالي فهو عاجز عن حلّ مشاكل وهموم واحتياجات الإنسان المعاصر، لذا يقول هيغل عنه: «إننا قد أنزلناه منزلة عالية ومع ذلك فيجب أن نذكر أنه سواء في مضمونه، أو صورته لا يعدّ من الوسائل السامية التي ترد إلى وعي الروح غرائزها الحقّة، فهو محدود بسبب صورته»⁹². وهنا يرى هيغل، أن الشعر ليس من الوسائل السامية التي بإمكانها أن تعطي الحقيقة الروحية الحقّة، فهو محدود، لكن هذه النقائص التي تعترى الشعر هي في الوقت عينه علامات لكمال شيء آخر سام وجليل يسعى هيغل لنقل الروح إليه، إنها لحظة الفلسفة «وفي الفلسفة فقط يتحقق الروح المطلق أو الله تمام التحقق، لأن فيها تصل الثقافة الإنسانية إلى أقصاها»⁹³.

فلحظة الفلسفة هي لحظة الكمال ولحظة التعبير عن ما هو مطلق وكلي. فهي تمثّل أعلى أشكال الروح وباستطاعتها تلبية كل حاجيات الإنسان ومتطلباته الأساسية التي عجز الفن عن تحقيقها. فغاية الفلسفة كلية حسب هيغل هو تحقيق المطلق، أي الدولة المثالية التي تتأسس على الحرية والوعي الفردي، ويسودها الحق والخير والجمال. فالدولة «هي تحقيق المطلق للروح في العالم وهذا التحقيق لا يوجد بعده أي شيء آخر، أي شيء أعلى يمكن تصوّره»⁹⁴. يعني أن الغاية القصوى للمطلق هو تحقيق دولة ولا يوجد أي تصور آخر غير هذه الغاية.

وعليه فالفلسفة هي وحدها التي تعطينا معرفة الكون بوصفها كلية عضوية، فهي تتطور بداية من مفهومها، ثم تؤوب إلى نفسها من جديد، مما يجعل منها مجموعاً أو كلاً واحداً ترتبط فيه كل الأجزاء وبذلك الترابط تشكل عالماً من عوالم الحقيقة، وعليه فإنّ الفن يعتبر جزءاً أساسياً من الفلسفة. فالفن يقدم حقيقة جزئية غير كاملة، أما الفلسفة فهي تقدم حقائق شاملة وكلية. وعليه يرى هيغل أن مفهوم الجمال والفن هو مسلّمة تتبع من النسق الكلّي الفلسفي يعني أن الفن يمثّل حلقة أساسية من حلقات الفلسفة.

خاتمة

في ختام هذه الدراسة، نستخلص أن فلسفة هيغل الفنية، كان لها الأثر البالغ على فلسفة القرن العشرين، وذلك لأن هيغل رغم تأثره بالمفكرين الذين سبقوه، إلا أنه كانت له رؤية بعيدة المدى جعلت من فلسفته تأخذ منحى آخر. إذ أنه نظر إلى الأعمال الفنية على أنها حقائق ذات قيمة لا تختلف عن غيرها من الحقائق البشرية والطبيعية الأخرى، فهي تميز كل حضارة عن غيرها، وهنا نجد أنه قد وضع ما يشبه تاريخاً للفن في نظرية الأنماط الثلاثة الرئيسية التي فسّر بها تطور الفن عبر الحضارات البشرية بهدف الكشف عن الأعمال الفنية والثقافية التي ترجع إليها.

لذلك اعتبر هيغل النمط الرمزي بحثاً عن المثال وعن اتحاد الشكل بالفكرة، بينما النمط الكلاسيكي تم فيه بلوغ المثال واتحدت الفكرة بالشكل في حين أن النمط الرومانسي تخلّصت فيه الفكرة من الشكل المحدود وأدركت ذاتها روحاً متعالية. ويتميز كل نمط بخصائصه المستمدة من ميتافيزيقيا هيغل في علاقة الفكرة بتجسدها الخارجي.

لقد أظهر لنا هيغل أن فلسفة الفن شأنها شأن الدين والفلسفة في الكشف عن طبيعة الوجود المثالي أي العالم الروحي، والتي يربطها بنسقه من خلال رحلة حضارية طويلة تتجلى الروح فيها من خلال الفنون الجميلة وعلى مدى الأزمان المتتالية.

كما تبين لنا كيف يسير الفن في كشفه عن الحقيقة الروحية من خلال الأساليب المختلفة التي يتشكّل بها في الحضارات البشرية. وتبيّن أن هيغل في الأخير يخلص أن كلاً من الجمال والفن وسيلة من وسائل معرفة الحقيقة القصوى للوجود. ولقد أتاح لنا هذا التنقيب في المجال الجمالي الكشف عن النسق المعرفي الهيجلي وارتباط الفن به. وبالتالي يتضح أن هيغل لم يهدف إلى وضع قواعد وشروط للإنتاج الفني، وإنما سعى إلى معرفة طبيعتي الجمال والفن.

وتبيّن لنا أيضاً أن المقصود بالجمال الهيجلي هو الجمال الفني الذي تبده الروح البشرية، وليس الجمال الطبيعي.

وختم هيغل محاضراته الجمالية والفنية بتقديمه نسقاً للفنون الجميلة ورتبها ترتيباً تصاعدياً حسب قيمتها وقربها من درجة المثال وما تكشف عنه من تصورات وحقائق روحية وإلهية. فأحلّ في العمارة في أدنى الفنون درجة ثم يليها النحت والرسم والموسيقى ويتّوج في الأخير الشعر بأعلى مرتبته، إلا أن هذا الأخير قد أعلن عن النهاية الحتمية للفن،

لأنه فشل في التعبير عن الروح المطلق، وهذه النهاية الحتمية للفن، تعبر عن كمال شيء أعظم من الفن وهو الفلسفة التي هي وحدها القادرة على البحث في الحقيقة الروحية ولا شيء يعلوها، وبهذا تصبح فلسفة الفن هي حلقة لأزمة في مجمل الفلسفة التي هي وحدها تعطينا نظرة شاملة عن الكون بوصفها كلية. وعلى هذا يكون مفهوم الجمال والفن مسلّمه تتبع من نسق الفلسفة التي تحوي كل من الدين والفن. وهذا الارتباط ضروري لتجلي الروح المطلق، لأن هذا الأخير يعي نفسه من خلال هذه النظم الفكرية الثلاث. أما بالنسبة لأهم النتائج التي توصلت إليها في هذه الدراسة، فأستعرضها من خلال النقاط الآتية:

أ - تقديم لمحة أساسية عن دراسات هيغل الفنية كانت بمثابة موجز لمعرفة تاريخ الفنون الأوروبية.

ب - التعرف على العلاقة الجدلية ما بين الدين والفلسفة والفن وفقاً للرؤية الهيجيلية.
ج - توضيح الصلة المتميزة ما بين الأسطورة والفن ودور كل منهما في خدمة الأغراض الدينية.

د - رغم الدور الفعّال الذي يقدمه الفن للدين في خدمة الأهداف الدينية ودعم العقائد في جل المجتمعات فإن جل الأديان اتخذت موقفاً سلبياً ومعارضاً للفن في أمور كثيرة أو قليلة وصلت إلى حد التحريم القطعي.

هـ - لقد عرضت هذه الدراسة رؤية هيغل المثالية في إشكالية المضمون والشكل في الفن من حيث الأهمية بمكان وسط الاختلاف والجدل القائم فيما بين الفلاسفة على مرّ الحقب التاريخية المتعاقبة.

يشدنا هذا الأمر إلى افتراض إن لم نقل الجزم باحتمالية إشكالية تمثل خاتمة آفاق لدراستنا: هل يمكن القول بمرحلة جديدة من الفن بعد صورة الفن الرومانسي هي مرحلة الفن الحر؟ ومضمون هذا الفن الحر لا يكتفي بدائرة محددة من الأفكار والموضوعات، وإنما بقدر تصوير أي شيء يشعر فيه الإنسان بنفسه، ويجد فيه حرّيته واستقلالته المفقودة، وحين يترك الفنان العنان للخيال الحر، لكي يعطيه الشكل والمضمون والتجريد. وهذا مجرد استنتاج نطرحه بعد هذه الدراسة لأفكار هيغل الفنية.

الهوامش

- (1) هيغل، موسوعة العلوم الفلسفية، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، المجلد الأول، ط3، 2007م، ص 179.
- (2) د. محمد غانم، البسطاويسي، رمضان، فلسفة هيغل الجمالية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1991م، ص 123.
- (3) هيغل، المدخل إلى عالم الجمال، فكرة الجمال، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط3، 1988م، ص 253.
- (4) Friedrich. Gweiss (ed) Beyond Epistemologies, new studies in philosophy of hegel, Mortinus nujhoff, The Hague, 1975, p.374.
- (5) هيغل، المدخل إلى علم الجمال، فكرة الجمال، مصدر سابق، ص 253 - 254.
- (6) إ. نوكس، النظريات الجمالية (كانط - هيغل - شوبنهاور)، تعريب أ. د. شفيق شيئا، محمد، مؤسسة بحسون للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، طبعة 2018م، ص 141.
- (7) د. المقدم عدرة، غادة، فلسفة النظريات الجمالية، جروس بريس، طرابلس، لبنان، ط1، 1996م ص 14.
- (8) عبدالله المعطي محمد، علي، الحسن الجمالي وتاريخ التذوق الفني عبر العصور، د. ط.، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2005م، ص 125.
- * أرغس، أمير من أمراء مدينة أرغس، تقول الأسطورة إنه كانت له مئة عين وأن خمسين منها تبقى مفتوحة على الدوام.
- (9) هيغل، المدخل إلى علم الجمال، فكرة الجمال، مصدر سابق، ص 250.
- (10) أبو الريان، محمد علي، فلسفة الجمال، د.ط.، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، مصر، د. ت.، ص 44.
- (11) د. الصباغ، رمضان، الفن والقيم الجمالية بين المثالية والمادية، دار الوفاء لنديا للطباعة والنشر، ط1، الإسكندرية، 2001م، ص 129 - 130.
- (12) هيغل، علم الجمال وفلسفة الفن، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، ط1، مكتبة دار الحكمة، بيروت، 2007م، ص 41.
- (13) إ. نوكس، النظريات الجمالية، مرجع سابق، ص 144.
- (14) د. بدوي، عبد الرحمن، فلسفة الجمال والفن عند هيغل، دار الشروق، ط1، 1996م، ص 27 - 28.
- (15) المرجع نفسه، ص 29 - 30.
- (16) هنري، لوفافر، في علم الجمال، ترجمة محمد عيتاني، دار المعجم العربي، بيروت، 1954م، ص 22 - 24.

- (17) هيغل، علم الجمال وفلسفة الفنّ، مصدر سابق، ص 123.
- (18) المصدر نفسه، ص 125.
- (19) المصدر نفسه، ص 127.
- (20) المصدر نفسه، ص 81.
- (21) هيغل، المدخل إلى علم الجمال، فكرة الجمال، مصدر سابق، ص 66.
- (22) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- * هوميروس Humerus (عاش حوالي القرن 8 ق.م) شاعر ملحمي إغريقي أسطوري اشتهر بالملحمتين الأوديسة والإلياذة.
- (23) د. بدوي، عبد الرحمن، فلسفة الفن والجمال عند هيغل، مرجع سابق، ص 206.
- (24) هيغل، المدخل إلى علم الجمال، فكرة الجمال، مصدر سابق، ص 451.
- (25) د. بدوي، عبد الرحمن، فلسفة الفن والجمال عند هيغل، مرجع سابق، ص 207.
- (26) هيغل، المدخل إلى علم الجمال، فكرة الجمال، مصدر سابق، ص 454.
- (27) المصدر نفسه، ص 456.
- (28) المصدر نفسه، ص 457.
- * دورر (Durar) (1471م – 1528م) اسمه الكامل «ألبريخت دورر» رسام ونقاش ألماني، تجلت عبقريته في الرسم الزيتي والمائي والحفر على النحاس والخشب.
- (29) المصدر نفسه، ص 460.
- * جان بول Jan Boul (1763م – 1825م) اسمه الكامل، يوهان فريدريش ريختر، كاتب ألماني، من رواد المدرسة الرومانسية، تميّز بالحساسية والتهكم والطرائف.
- (30) هيغل، علم الجمال وفلسفة الفن، مصدر سابق، ص 211.
- (31) عبد المنعم مجاهد، مجاهد، فلسفة الفن الجميل، د.ط.، دار الثقافة القاهرة، د.ت.، ص 39.
- (32) د. بدوي، عبد الرحمن، فلسفة الفن والجمال عند هيغل، مرجع سابق، ص 23.
- (33) هيغل، المدخل إلى علم الجمال، فكرة الجمال، مصدر سابق، ص 89.
- (34) المصدر نفسه، ص 50.
- (35) المصدر نفسه، ص 53.
- (36) عبد المنعم مجاهد، مجاهد، فلسفة الفن الجميل، مرجع سابق، ص 40.
- (37) د. محمد غانم، البسطاويسي، رمضان، جماليات الفن وفلسفة تاريخ الفن عند هيغل، د.ط.، د.ت.، ص 20.
- (38) المرجع نفسه، ص 30.
- (39) هيغل، الفن الرمزي الكلاسيكي الرومانسي، ترجمة جورج طرايشي، دار الطليعة، بيروت، 1986م، ص 38.

- (40) هيغل، المدخل إلى علم الجمال، فكرة الجمال، مصدر سابق، ص 135.
- (41) هيغل فينومينولوجيا الروح، ترجمة وتقديم د. ناجي العونلي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2006م، ص 686.
- * إله براهما: هو إله الديانة الهندوسية، نُسب إليه أصل العالم والخلق، يتميز بصفة الكونية.
- (42) هيغل، المدخل إلى علم الجمال، فكرة الجمال، مصدر سابق، ص 137.
- (43) د. بدوي، عبد الرحمن، فلسفة الجمال والفن عند هيغل، مرجع سابق، ص 225.
- (44) هيغل، الفن الرمزي الكلاسيكي الرومانسي، مصدر سابق، ص 12.
- (45) ترنس، ستيس ولتر، فلسفة هيغل، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، العدد الرابع، دار التنوير، بيروت، 1972م، ص 141.
- (46) المرجع نفسه، ص 142.
- (47) هيغل، الفن الرمزي الكلاسيكي الرومانسي، مصدر سابق، ص 76.
- (48) برا، جيرار، هيغل والفن، ترجمة منصور القاضي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 1993م، ص 70.
- (49) أبو ملحم، علي، في الجماليات نحو رؤية جديدة إلى فلسفة الفن، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 1990م، ص 69.
- (50) إ. نوكس، النظريات الجمالية، مرجع سابق، ص 147.
- (51) هيغل، الفن الرمزي الكلاسيكي الرومانسي، مصدر سابق، ص 93.
- (52) ترنس ستيس ولتر، فلسفة هيغل، مرجع سابق، ص 145.
- (53) إ. نوكس، النظريات الجمالية، مرجع سابق، ص 147.
- (54) عبد حيدر، نجم، علم الجمال أفاقه وتطوره، ط2، كلية الفنون الجميلة، بغداد، 2001م، ص 73.

- (55) هيغل، المدخل إلى علم الجمال، فكرة الجمال، مصدر سابق، ص 139.
- (56) إ. نوكس، النظريات الجمالية، مرجع سابق، ص 148.
- (57) الرحمان آيات، فلسفة الموسيقى، ترجمة صلاح قنصوة، ط1، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2010م، ص 38.
- (58) د. بدوي، عبد الرحمن، فلسفة الجمال والفن عند هيغل، مرجع سابق، ص 235.
- (59) د. الصباغ، رمضان، الفن والقيم الجمالية بين المثالية والمادية، مرجع سابق، ص 158.
- (60) هيغل، الفن الرمزي الكلاسيكي الرومانسي، مصدر سابق، ص 207.
- (61) ترنس ستيس، ولتر، فلسفة هيغل، مصدر سابق، ص 148 - 149.
- (62) هيغل، الفن الرمزي الكلاسيكي الرومانسي، مصدر سابق، ص 309.
- (63) د. بدوي، عبد الرحمن، فلسفة الجمال والفن عند هيغل، مرجع سابق، ص 262.
- (64) جارودي، روجيه، فكر هيغل، ترجمة الياس مرقس، دار الحقيقة، بيروت، ط2، 1988م، ص 231.
- (65) هيغل، المدخل إلى علم الجمال، فكرة الجمال، مصدر سابق، ص 141.
- (66) المصدر نفسه، ص 141.
- (67) المصدر نفسه، ص 142.
- (68) أونسيانيكوف، الجمال في تفسيره الماركسي، ترجمة يوسف الحلاق، منشورات وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، دمشق، 1968م، ص 50 - 51.
- (69) هيغل، الفن الرمزي الكلاسيكي الرومانسي، مصدر سابق، ص 346 - 347.
- (70) د. الصباغ، رمضان، الفن والقيم الجمالية بين المثالية والمادية، مرجع سابق، ص 162.
- (71) إ. نوكس، النظريات الجمالية، مرجع سابق، ص 150.
- (72) جارودي، روجيه، مرجع سابق، ص 234.
- (73) إ. نوكس، النظريات الجمالية، مرجع سابق، ص 152.
- (74) د. بدوي، عبد الرحمن، فلسفة الجمال والفن عند هيغل، مرجع سابق، ص 231.
- (75) إ. نوكس، النظريات الجمالية، مرجع سابق، ص 147 - 148.
- (76) د. حلمي مطر، أميرة، فلسفة الجمال (أعلامها ومذاهبها)، د.ط.، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998م، ص 137.
- (77) إ. نوكس، النظريات الجمالية، مرجع سابق، ص 151.
- (78) الرحمان، آيات، فلسفة الموسيقى، مرجع سابق، ص 41.
- (79) المرجع نفسه، ص 49.
- (80) محمد إبراهيم، وفاء، علم الجمال، د. ط.، مكتبة الغريب، د.ت.، ص 70.

- (81) هيغل، المدخل إلى علم الجمال، فكرة الجمال، مصدر سابق، ص 417.
- (82) د. بدوي، عبد الرحمن، فلسفة الجمال والفن عند هيغل، مرجع سابق، ص 352.
- (83) حمدي إبراهيم، محمد، نظرية الدراما الإغريقية، ط1، الشركة المصرية العالمية، مصر، 1994م، ص 24.
- (84) محمد إبراهيم، وفاء، علم الجمال، مرجع سابق، ص 70.
- * وليم شكسبير (1564 William Shakespeare م - 1616م)، شاعر وكاتب وممثل إنكليزي برز في الأدب.
- (85) إ. نوks، النظريات الجمالية، مرجع سابق، ص 165.
- (86) حمدي إبراهيم، محمد، نظرية الدراما الإغريقية، مرجع سابق، ص 27.
- * أرسطو فانس (446 Aristot Vans ق.م، - 386 ق.م)، مؤلف مسرحي كوميدي وهو من رواد المسرح الساخر في اليونان من أعماله: «مسرحية السحب».
- (87) محمد إبراهيم، وفاء، علم الجمال، مرجع سابق، ص 71 - 72.
- (88) هيغل، فينومينولوجيا الروح، مرجع سابق، ص 117.
- (89) إ. نوks، النظريات الجمالية، مرجع سابق، ص 155 - 156.
- (90) المرجع نفسه، ص 157.
- (91) المرجع نفسه، ص 159.
- (92) عبد المنعم عباس، راوية، القيم الجمالية، د.ط.، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1987م، ص 153.
- (93) كرم، يوسف، تاريخ الفلسفة الحديثة، ط5، دار المعارف، مصر، د.ت.، ص 286.
- (94) ماشيري، بيار ولوفيفر، جان بيار، هيغل والمجتمع، ترجمة منصور القاضي، ط1، المؤسسة الجامعية، 1993م، ص 89.

مقومات الإستثمار في الإقتصاد المعرفي

الدكتور بلال
علي الحاج سليمان

تمهيد

تبرز الحاجة الى المعلومات في كل أوجه الأنشطة الإنسانية، والإقتصادية، والإجتماعية، والسياسية، والعلمية، والعسكرية، والثقافية، وحتى الترفيهية. ويرى الكثيرون أننا نعيش اليوم في فترة مجتمع المعلومات، ذلك المجتمع الذي يعتمد على الإستثمار بالتكنولوجيا الحديثة.

قد يبدو للوهلة الأولى أن الفكر الإقتصادي هو نفسه الفكر الإستثماري، فالفكر الإقتصادي هو قاعدة الإنطلاق نحو الإنتاج، لأن معطيات العمل الإنتاجي تؤكد أن صناعة الفكر الإستثماري، تعتمد على توفر بنية فكرية مستندة الى القوانين الإقتصادية، ويمكن القول أن إمتلاك الفرد نظاماً فكرياً مبنياً على النظم الإقتصادية هو بالطبع مساعد لنشوء الفكر الإستثماري، إلا أن العمليات الإنتاجية تفترض نموذجاً متخصصاً لنجاحها، ينحصر بسلوكيات تؤمن نتائج أولية في دراسة المشاريع وكذلك ما يختص بالتخطيط والتنفيذ.

هناك مجموعة من الهواجس التي تعترى المستثمرين في الإقتصاد المعرفي، ومن أهمها التحقق من قيمة الأرباح المنوي تحقيقها، إلا أن مستوى بلوغ الهدف من العملية الإنتاجية، يبقى ضعيفاً عند البدء بالعملية الإنتاجية لدى الشريحة الكبرى من المستثمرين وبخاصة لدى البلدان النامية حيث يعتمد المستثمر دائماً على ذاته ومؤسساته وعلومه المتعلقة بتخصصه الإقتصادي،

دون أن يكون للدولة أي دور تفعيلي أو داعم، من هنا نلتمس فروق التباين المبني على القدرة والإختصاص والخبرة والعلم، ويظهر هذا التباين والإختلاف من خلال ما نشاهده من تأثر وإنعكاس للعمليات الإستثمارية المبنية على الإقتصاد المعرفي في الإنتاج والتصنيع والتسويق، فهناك مؤسسات قد تقفل نهائياً بشكل مبكر، أو مؤسسات تستمر بمستوى ثابت ولكن ضعيف، وأخرى قد تقفل نهائياً بعد مرور عدة سنوات.

1- أهمية التكنولوجيا في الإقتصاد المعرفي:

للتقنيات الحديثة دوراً حيوياً ومهماً في حياة الفرد والمجتمع، وتعتبر التكنولوجيا الحديثة عنصراً أساسياً في أي نشاط نمارسه أو عمل نقوم به، فهي المادة الخام للبحوث العلمية، والعمليات الإنتاجية¹. يُعتبر رأس المال بأنه جبان، وهذه المقولة أصبحت فعلاً ثابتاً، ولم تأتي من فراغ، حيث يظهر التناقض في توفر المال الذي تتوافق قيمته مع كلفة منشأة إقتصادية معينة، والقدرة على إدارته بالشكل الصحيح، والتمكن من تفعيله، وثماره، بالإضافة الى مدى توفر الظروف الملائمة والبيئة الحاضنة لإستقرار ونمو هذا المال في الإنتاج. من هنا فإن إدارة المشاريع تعتمد بصورة أساسية على العلم كمادة أساسية فاعلة في إدارة وتنظيم وتحضير الإنتاج وتسويقه. تُعبّر الكفاءات العلمية التي تجيد في عملها للأعمال عند مقارنتها مع منافسيها، وتتمثل في الروتينية، المميّزة لها، وفي الممارسات، والمهارات، التي تترجم نجاعة الإجراءات المعمول بها لحل مشاكلها². إن التوعية بين التكنولوجيا والعلم يمثلان موضوعان مختلفان في الظاهر عن بعضهما البعض، ولكنهما ينجزان معاً مهام معينة. ففي كافة مجالات الحياة اليومية يمكن تطبيق التكنولوجيا، إذ تُستخدم في القطاعات الإقتصادية كالعامل في الزراعة، وكافة الأعمال الصناعية والخدماتية، وفي كل الاستخدامات المفيدة للإنسان بكافة مجالاته حياته المنزلية.

إن التطبيقات التكنولوجية الحديثة المعاصرة تتمثل في جانبين أساسيين، أولهما، ما توفره التكنولوجيا الحديثة من برامج يستخدمها أصحاب الإختصاص اعتماداً على الإنترنت، وثانيهما الأدوات كمادة تتمثل بالتقنيات والتطبيقات الناتجة عن الثورة في الأدوات المتطورة الأكثر حداثة التي يحتاجها الإقتصاد المعرفي الذي يعتمد على العلم. من هنا تُعتبر شبكة الإنترنت أولى التطبيقات ولا تُعتبر آخرها، حيث تشعبت هذه التطبيقات بشكل كبير ما جعلها تطل جميع حقول النشاطات الصناعية والخدمات بكافة مجالاتها.

تعني بالتكنولوجيا الحديثة بأنها العلم الذي يُعبّر عن المقدرة في الأداء، وهي تُعبّر عن المصدر للمعرفة المخصّصة لصناعة الأدوات، والإجراءات المعالجة للإنتاج، والمعالجات

المستخدمة في تبسيط وتسهيل ظروف الحياة اليوميّة³. تستحوذ عملية التنمية القائمة على التكنولوجيا الحديثة بكافة جوانبها الاقتصادية والاجتماعية على الاهتمام الأكبر، ولم يكن هذا الاهتمام بالأمر المستغرب إذ أن له الكثير من الأسباب والدوافع الموضوعية والمنطقية. إن أهم هذه الدوافع تكمن في:

أ- أنها تتعلق أساسا بالطموحات الاقتصادية والرغبة في توفير مستويات معيشة أفضل للمواطن العادي تقي باحتياجاته المادية والثقافية.
ب- أنها تتعلق أساساً بالأمن والسلامة القومية لدعم الاستقلال الوطني ومواجهة الأطماع الخارجية.

تفاوت أهمية هذه الدوافع بين الدول تبعاً لظروفها الموضوعية التي تحيط بها. فمنها لا يهددها خطر خارجي، وتشعر بأمن نسبي تجد في التنمية ضرورة لتحسين مستوى معيشة مواطنيها، وأخرى تهددها الأطماع الخارجية فتجد في التنمية ضرورة وأمل لتحقيق قدرتها في المجابهة والمواجهة⁴.

عند مقارنة التكنولوجيا القديمة بالتكنولوجيا الحديثة، نلاحظ أن التكنولوجيا في هذا العصر كسلوك أو عادة معتمدة، ترتبط بالشخصية الفردية وبالمؤسسة التي ينتمي لها. قديماً لم يشهد هذا التطور الحاصل الذي نواكبه اليوم. بينما في عصرنا هذا، أصبح الإنسان كشعوب مرتبطة بعضها ببعض بواسطة الشبكة العنكبوتية التي تحيط بالكرة الأرضية⁵، لذلك تعاضم التطور في الأنشطة الاقتصادية بفعل التكنولوجيا الأكثر حداثة فدخل الفكر الإستثماري لأجل الإنتاج حيث طالت مرافقه كافة النواحي الحياتية لدى الأفراد والمؤسسات، فالأحداث تطورت وواكبت الأجيال وأصبحت التكنولوجيا هي الحل لكافة الأمور، وأختصرت الوقت، إن في السفر، أو من خلال النقل الحديث الذي يمثل كسب، كما أن التكنولوجيا وفّرت فوائد متعددة، تعود بالنفع على الفرد والمجتمع⁶، ومن ناحية أخرى فإنها تُسبب العديد من الأضرار الناتجة عنها عندما تستخدم بشكل خاطئ، حيث تصبح منتجة للتلوث الذي أصبح اليوم مدار بحث عالمي⁷.

2- إقتصاد المعرفة.

ويقصد به بأنه المحرك الرئيسي للنمو الاقتصادي. واقتصادات المعرفة تعتمد على توافر تكنولوجيا المعلومات والاتصال واستخدام الابتكار والرقمنة. وعلى العكس من الاقتصاد المبني على الإنتاج، حيث تلعب المعرفة دوراً أقل، وحيث يكون النمو مدفوعاً بعوامل الإنتاج التقليدية، فإن الموارد البشرية المؤهلة وذات المهارات العالية، أو رأس المال البشري،

هي أكثر الأصول قيمة في الإقتصاد الجديد، المبني على المعرفة. وفي الإقتصاد المبني على المعرفة ترتفع المساهمة النسبية للصناعات المبنية على المعرفة أو تمكينها، وتتمثل في الغالب في الصناعات ذات التكنولوجيا المتوسطة والرفيعة، مثل الخدمات المالية وخدمات الأعمال. إن إقتصاد المعرفة لديه عدد معين من الخصائص التي تتمحور حول مجموعة من النقاط⁸:

أ- الابتكار، نظام فعال من الروابط التجارية مع المؤسسات الأكاديمية وغيرها من المنظمات التي تستطيع مواكبة ثورة المعرفة المتنامية واستيعابها وتكييفها مع الاحتياجات المحلية.

ب- التعليم، أساسي للإنتاجية والتنافسية الاقتصادية. يتعين على الحكومات ان توفر اليد العاملة الماهرة والابداعية أو رأس المال البشري القادر على ادماج التكنولوجيات الحديثة في العمل. وتنامى الحاجة إلى دمج تكنولوجيا المعلومات والاتصالات فضلا عن المهارات الابداعية في المناهج التعليمية وبرامج التعلم مدى الحياة.

ج- البنية التحتية المبنية على تكنولوجيا المعلومات والاتصالات تسهل نشر وتجهيز المعلومات والمعارف وتكييفه مع الاحتياجات المحلية.

د- حوافز تقوم على اسس اقتصادية قوية تستطيع توفير كل الاطر القانونية والسياسية التي تهدف إلى زيادة الإنتاجية والنمو. وتشمل هذه السياسات التي تهدف إلى جعل تكنولوجيا المعلومات والاتصالات أكثر اتاحة ويسرا، وتخفيض التعريفات الجمركية على منتجات تكنولوجيا وزيادة القدرة التنافسية للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة.

عند وصف الإقتصاد العالمي الحالي يتكرر استخدام مصطلحين أساسيين هما: العولمة واقتصاد المعرفة. لقد ظل العالم يشهد تزايد عولمة الشؤون الاقتصادية وذلك بسبب عدة عوامل من أهمها ثورة تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، وكذلك التخفيف من القيود التجارية على المستويين الوطني والدولي. كما ظل العالم يشهد بالتوازي مع ذلك ارتفاعا حاداً في الكثافة المعرفية بالأنشطة الاقتصادية مدفوعاً بثورة تكنولوجيا المعلومات والاتصالات وتسارع خطى التقدم التكنولوجي.

3- الفكر الإستثماري قاعدة الإقتصاد المعرفي.

يتحقق الربح المادي والمعنوي في العمل الإستثماري، وفق قيمة رأس المال الفكري، لأنه أساس المعرفة والقدرة، ومن الضروري أن يمتلك العاملين قدرات عقلية، تتكون عناصرها من المعرفة، والمهارة، والخبرة، والقيم، التي يمكن توظيفها وإستثمارها في

زيادة المساهمات الفكرية، لتحسين أداء العمليات الإقتصادية، وتطوير مساحة الإبداع، من أجل تحقيق الترابط بين كافة الأطراف المتعاملة مع بعضها البعض⁹، وهذا ما يجعل رأس المال الفكري يمثل استثماراً حقيقياً يدفع إلى الاستمرارية والتطور في النشاط ولا يمثل عبئاً على تكاليف المؤسسة، لا بل يمنحها ميزة المنافسة في السوق في ظل اقتصاد المعرفة، القائم على أساس إنتاج واستخدام وتوزيع المعرفة والإفادة منها، في الحصول على خدمات ومنتجات وأساليب عمل تكون أكثر حداثة تساهم في توسّع أسواقها الحالية وتفتح لها أسواقاً جديدة. إن أساس العملية الإستثمارية هي المعرفة الفكرية، وهي عبارة عن معرفة تكوّنت من الأفراد وخبراتهم التي بُنيت في المجتمع¹⁰. يمكن إستخدام هذه المعرفة وإستغلالها في إنتاج الثروة، ومضاعفة إنتاجيتها المادية، وإكتساب ميزة تنافسية، ما يُعزّز قيمة أنواع أخرى من رؤوس الأموال.

ومن هنا، أصبح رأس المال الفكري يصنف على أنه رأس المال الحقيقي، لأنّ الاستثمار واستبدال الأفراد يرقى إلى الاستثمار في الآلات والمصانع، كما أن النفقات التي تتكبدها الدول في التعليم والتدريب - للحفاظ على صلاحية الأصول الفكرية - تعادل تكاليف استهلاك الأصول المادية.

4- أهمية التكنولوجيا في العمل الإستثماري:

يشهد العالم اليوم تطوراً سريعاً وكبيراً، لا يمكن إدراكه أو تصوره. ومن الطبيعي أن يحدث ذلك لأنّ الأثرية البشرية داخل المجتمع العالمي تتلقى تلك التطورات وتعيش معها، دون أن تسهم في إيجادها من الأساس وهذه الفئة هي الفئة المستهلكة والمستفيدة من كل ما يدور حولها من إيجابيات.

ومن البديهي القول، أن شريحة المنتجين في المجتمعات الفقيرة، تفوق بدرجة لا تقارن بها الشريحة ذاتها في المجتمعات الغنية، فهذا ما يُميّز الدول الغربية الأكثر تقدماً والأكثر نهضة من غيرها، وما ساهم في إتساع تلك الشريحة المنتجة فسح المجال للعقول المفكرة والمبدعة واحترام المواهب الذهنية، إبتداءً من نشوئها خلف أسوار المدرسة الى إحتضانها وتميئتها.

إن ما يعرفل فكرة التطور في الدول العربية أو النامية عامةً، هي الخطوات البيروقراطية أو النظام الروتيني الذي يحجب الموهبة والفكر العلمي عن النور وبهذا فإن الكثير من القدرات لم تجد الحافز الحقيقي للوجود أو التكوّن، وهذا ما يفرض علينا أن نعلّم الجيل الجديد لغة العصر، فعجلة التطور سريعة. إن البلدان النامية تحتاج إلى ما يجعل الذهن

يتجه إلى التفكير الاستثماري، في كافة المجالات، ولعل أول مجالات الإستثمار تبدأ من كيفية إستثمار الوقت وإدارته، وهو أمر من الضرورة أن يستحدث ضمن المواد الدراسية من المراحل المدرسية الأولى كي يتعلم الأبناء قيمة الوقت الذي يعد من الأسباب الرئيسة في إهدار الجهد مهما كانت مهمة، هذا إضافة إلى الأهمية البالغة لتحويل تفكير الجيل الجديد من مجرد عقول متلقية إلى عقول مشاركة. وبمعنى آخر أكثر وضوحاً أن يتحول الأفراد في الدول النامية من شرائح إجتماعية مستهلكة، إلى شرائح منتجة تدرك كيفية إستغلال ما يمكن إستغلاله¹¹.

5- أهمية الإقتصاد المعرفي تكمن في الإستثمار.

يُعرّف الإستثمار بأنه رأس المال المُستخدم في العملية الإنتاجية، أو توفير الخدمات أو السلع، وقد يكون استثماراً ثابتاً كالأسهم والسندات، أو استثماراً مُتغيراً مثل الممتلكات، ويُعرف الإستثمار بأنه العملية الإنتاجية التي تقوم إما على الأفراد والمنشآت من أجل الحصول على دخلٍ حالي أو مستقبلي. تهدف عملية الإستثمار إلى تحقيق مجموعةٍ من الأهداف وهي:

”- تأمين حماية وحصانة للمال من إنخفاض قوّته الشرائيّة بسبب التضخم: فالهدف من الإستثمار يكمن في تحقيق الأرباح الرأسماليّة، وتأمين عوائد تُحافظ على القوة الشرائيّة للمال المستثمر.

- المحافظة على إستمرار نمو الثروة الماليّة: من أجل تحقّق عوائد ماليّة مقبولة، بالتزامن مع زيادة قيمة رأس المال.

- تحقيق قيمة كبيرة من الدخل الجاري: ويكمن ذلك في تركيز المُستثمرين على الاستثمارات التي تُحقّق العوائد الماليّة المهمة دون الأخذ بالمخاطر التي قد تواجههم.

- منع تآكل الدخل بفعل الضرائب: فالاستثمار يهدف الى إفادة المُستثمرين والتقليل من الضرائب الناتجة عن التشريعات.

- الوصول إلى أكبر نمو من الثروة، ويهتم المضاربون في الأسواق بتحقيق هذا الهدف من الاستثمار، حيث يحرصون على اختيار استثمارات مُرتفعة المخاطرة، ويقبلون كافة الأشياء المُرتبة على إختياراتهم.

6- أنواع الاستثمار.

توجد مجموعة من أنواع الاستثمار التي تُصنّف وفقاً لعدّة معايير مُحددة، وفيما يأتي أهمّ هذه الأنواع:

- أ- وفقاً لنوعه:
- الاستثمار الاقتصادي: هو إنتاج الخدمات أو السلع المُخصصة للاستثمار أو الاستهلاك، مثل المشروعات الزراعيّة والصناعيّة.
 - الاستثمار الاجتماعي: هو السعي نحو رفع رفاهيّة الأفراد الاجتماعيّة، مثل المشروعات الثقافيّة، والرياضيّة.
 - الاستثمار الإداري: هو تطوير الأماكن الإداريّة التي تهتمّ بالمحافظة على المجتمع، مثل المباني العسكريّة والحكوميّة.
 - استثمار الموارد البشريّة: هو السعي لتحقيق التنمية البشريّة التي تظهر في البرامج التدريبيّة، والتعليميّة المُقدمة للأفراد في الدولة.
- ب- وفقاً لتطبيقاته:
- الاستثمار الحقيقي: يُعرف أيضاً باسم استثمار الأعمال أو المشروعات، ويُعدّ الاستثمار حقيقيّاً عندما يُوفّر للمستثمر الحقوق في الحصول على أصول حقيقيّة، مثل الذهب والعقارات.
 - الاستثمار المالي: هو شراء حصّة في رأس مال أو قرض توفر لصاحبها أرباحاً أو فوائد مضمونةً بالقانون.
 - الاستثمار المعنوي: هو الاستثمار المعتمد على الحصول على معرفة أو أصول فكريّة، مثل تنفيذ بحث علمي.
- ج- وفقاً لمعيار التعدد وعدمه:
- الاستثمار المُتعدد: يُعرف أيضاً باسم استثمار المحفظة؛ وهو الاستثمار في أكثر من نوع من أنواع الأدوات الاستثماريّة الماليّة أو الماديّة.
 - الاستثمار غير المُتعدّد: هو المشاركة باستثمار واحد، مثل شراء أصل ماليّ أو أصل ماديّ
- د- وفقاً لمعيار الملكيّة:
- الاستثمار الخاص: هو استثمار يُنفّذه فرد أو مجموعة أفراد بشكل قانوني ضمن شركة خاصّة.
 - الاستثمار العام: هو استثمار تُنفّذه منشأة أو مجموعة منشآت تتبع ملكيّتها للدولة ضمن شركة عامّة.
 - الاستثمار المُختلط: هو استثمار يُنفّذه شخص أو مجموعة أشخاص، أو منشأة أو مجموعة منشآت خاصّة، مع منشأة أو مجموعة منشآت عامّة، ضمن أيّ نوعٍ من أنواع المنشآت المُختلطة التي تُوزّع ملكيّتها بين طرفين عام وخاص.
- 7- قواعد وخصائص الفكر الإستثماري.

تتمثل عملية الإستثمار بفكرٍ يعنى بإدراك كافة مفاصل العملية الإنتاجية، بالإعتماد على مبادئ الفكر الإقتصادي الذي يعبر عن شمولية في فهم الإقتصاد عامةً ومعرفة واقعه وخصائصه الإجتماعية في المكان والزمان. لكن الفكر الإستثماري يقوم بدراسة حالة المكان الطبيعية، والبشرية لناحية المستوى المعيشي لسكانه، ومقدرات الدولة، ومدى الترابط الإقتصادي والخدمات بين الدولة والمجتمع، وكذلك تحدد نسبة الهجرة السنوية والفئة العمرية التي تطالها، وكذلك مستواها العلمي، بالإضافة الى تحديد نواقص أعداد اليد العاملة ولأي مجالٍ إقتصادي ينتمون. كثيرةً هي الدول النامية التي تواجه عقبة التنمية الإقتصادية، إما في الضغط السكاني، أو في طبيعة البنيان الإجتماعي، أو في عدم كفاية الكوادر الفنية والإدارية اللازمة للإضطلاع بأعباء التنمية الإقتصادية لذلك¹². لقد أضحى العقل البشري أكثر وعياً في ظل التقدم الذي أحرزته البشرية، فلا مناص من أن يستثمر في نفسه ليضمن الديمومة للتنمية الفكرية التي تعدّ بوابة التنمية الاقتصادية والتطور العلمي، فكل ما وصلت إليه البشرية من إنجازات وقدرات يعود إلى ما تستثمره المجتمعات والدول في التنمية الفكرية، وحماية الحقوق الفكرية لأصحابها ومؤسساتها، لضمان وجود دافع للتفكير والتطوير يحقق التنمية الاقتصادية والتطور العلمي.

إن الاستثمار الفكري، عامل مهم لدفع عجلة الإنتاج الاقتصادي المتمثل في تكنولوجيات الإنتاج، وصقل مهارات العمالة، وتحسين جودة التعليم. إن عدم الإلتفات إلى هذا النوع من الاستثمار لدى الدول النامية هو سبب رئيسي في تدهور عجلة الإنتاج المحلي، وعدم اتزان إدارة الاستثمارات، وتردي جودة التعليم، وسرقة الأفكار، وهو كذلك سبب رئيسي في هجرة العقول والإمكانات، الأمر الذي يزيد الوضع تعقيداً.

يوجد فرق كبير بين الفكر الإقتصادي الذي يتمثل بفهم شامل للأوضاع الإقتصادية، والفكر الإستثماري الذي يختص بدراسات معمّقة للمشاريع بكافة نواحيها ومجالاتها بقدر ما يظهر التفاوت في قيمة رأس المال المتوفر لدى المستثمرين، حيث يمكنهم من تأمين مقوّمات الإنتاج كافة، إلا أن تفاوتاً كبيراً يظهر أيضاً في مدى إمتلاك المستثمرين للفكر الإستثماري الذي يقوِّض أو يفتح أفاقاً نحو إستثمار أفضل.

تسعى محاور الإستثمار في الأساس للتوصل إلى إطار شامل وملائم من الإجراءات والسياسات وذلك لتدعيم وتنشيط دور الاستثمار الأجنبي المباشر في الإقتصاد، وبما يمكن من تعظيم إيجابياته ويقلل في نفس الوقت من سلبياته. وذلك من خلال الدور المهم لهذه الإستثمارات، من رأس مال وتكنولوجيا ومعارف إدارية وتنظيمية بالإضافة إلى القدرات التسويقية¹³.

إن توزيع الاستثمار الأجنبي المباشر بين مجموعتي البلدان المتقدمة والبلدان النامية يشير إلى أن ثمة اختلالاً يشهده هذا التوزيع. إذ يتجه معظم هذا الاستثمار إلى البلدان المتقدمة ويبقى النصيب الأقل للبلدان النامية.

إن الأسباب الرئيسية وراء تنامي حركة الاستثمار الأجنبي المباشر كالشركات المتعددة الجنسيات في العالم تتمثل في ازدياد حاجة بلدان العالم إلى التمويل الخارجي، والإقبال المتزايد من جانب العديد من البلدان النامية نحو تقليص الإجراءات الروتينية واتباع برامج الإصلاح الاقتصادي والخصخصة، واتساع نطاق العولمة.

تكن الإستفادة من تدفق الإستثمار الأجنبي في الإقتصاد، في المحاور التالية:
 ” – الاستمرار في إنجاز مراحل برنامج الإصلاح الإقتصادي والحفاظ على ما تحقق من نتائج إيجابية.

– الصياغة المرشدة لنظام حوافز الاستثمار، بحيث يكون هناك نظام أفضليات محدد في هذا الخصوص.

– تنظيم وتسهيل الإجراءات الإدارية والقانونية الخاصة بالتعامل مع الاستثمار الأجنبي المباشر.

– تحقيق الاستقرار في البيئة الداخلية المؤاتية للاستثمار الأجنبي المباشر.

أما عن محاور التطوير المشار إليها على المستوى الدولي، فقد تمثلت في:

– السعي الجاد نحو تفعيل أحد أشكال التكامل الإقتصادي والإقليمي بين البلدان العربية.

– صياغة برامج للترويج للمشروعات المسهتدفة الاستثمار فيها يسعى هذا البحث في الأساس للتوصل إلى إطار شامل وملائم من الإجراءات والسياسات وذلك عبر مجموعة من المحاور

– لتدعيم وتنشيط دور الاستثمار الأجنبي المباشر في الإقتصاد المصري، وبما يمكن من تعظيم إيجابياته ويقلل في نفس الوقت من سلبياته¹⁴.

8 – أهمية رأس المال الفكري.

يحتاج الاستثمار الفكري إلى تعاون الحكومة ممثلة في التشريعات والجهات الرقابية وأصحاب الصناعات، والمجتمع ككل، ويتلخص استثمار رأس المال الفكري، في خمسة محاور رئيسية هي:

– براءات الاختراع التي تتمثل في منح المخترع الحق في استبعاد الآخرين من صنع أو استخدام أو بيع أو عرض بيع واستيراد الاختراع لفترة محدودة من الزمن، في مقابل الكشف العلني عنه.

– حقوق الملكية الفكرية التي تُعطي حقّ الطبع والنشر لمنفذ العمل الأصلي، وعادةً لفترة زمنية محدودة.

وقد تنطبقُ حقوقُ التأليف والنشر على مجموعةٍ واسعةٍ من النماذج الفكرية، والفنية، والإبداعية، أو ”الأعمال“.

– حقوق التصميم الصناعي، حيث تقع حماية التصميم المرئي، أو الرسم، أو النموذج الصناعي الذي يتكون من إنشاء الشكل والتكوين، أو تكوين نمط، أو اللون، أو مزيج من النمط واللون في شكل ثلاثي الأبعاد، يحتوي على القيمة الجمالية. كأن يتم رسم نموذج صناعي لإنتاج منتج أو سلعة، أو حرف يدوية صناعية.

– العلامات التجارية، وهي علامة التعريف أو التصميم أو التعبير الذي يميز المنتجات أو الخدمات.

– الأسرار التجارية، وهي الصيغة والممارسة والعملية والتصميم والنمط، أو تجميع معلومات لا يمكن التحقق منها بشكل معروف، والتي يمكن لأصحاب الأعمال الحصول على ميزة اقتصادية على المنافسين أو العملاء عند معرفتها أو استعمالها.

تُمثل هذه المحاور النقاط الأساسية في حماية الصناعات التي يترتب عليها النهوض الاقتصادي للدول، حيث توفر حماية براءات الاختراع وحقوق الملكية الفكرية وحقوق التصميم الصناعي، الحماية اللازمة للمصنعين والمبدعين والمخترعين من سرقة أعمالهم، وضمان التنافسية العادلة التي توفر بيئة خصبة للعمل.

من هنا لا بد من السعي الى تأمين المستقبل عن طريق الاستثمارات المُرتبطة بالأفراد الذين وصلوا إلى سن التقاعد، حيث يكون هدف الاستثمار هنا هو تأمين المستقبل، من خلال عمل استثماري يقدّم عوائد متوسطة، مع أقلّ درجة من المخاطرة¹⁵.

9- معوّقات الاستثمار الفكري؟

يمكن أن يلعب الإعلام دوراً في توعية المستهلكين بأهمية شراء المنتجات ذات العلامة التجارية المسجلة عن طريق إطلاع كافة شرائح المجتمع بالآثار الضارة لانتهاك العلامات التجارية تواجه حقوق الملكية الفكرية في العالم العربي مشكلات معقدة لم يتم تداركها إلا منذ بضع سنوات نتيجة الاستثمارات القادمة من الخارج، ووصول العلامات التجارية العالمية إلى المنطقة، والتي تنص عقودها مع الوكلاء على حماية حقوق الملكية الفكرية لتلك المنتجات والصناعات، ومحاربة عمليات التقليد.

يتضح الأمر في صناعة البرمجيات والإنترنت في المنطقة، حيث أن عدم إدراك خطورتها

والمعرفة الحقيقية بأبعادها دفع كثيراً من مواقع الإنترنت العربية إلى فتح أبوابها لإستضافة مثل هذه المخالفات، والانتهاكات الصارخة والعلنية لحقوق الملكية الفكرية، لا سيما مع عدم وجود رادع حقيقي لأصحاب المواقع من نشر البرمجيات المقرصنة، واقتصار دور المنظمات والجهات الحكومية على ملاحقة متاجر بيع البرمجيات المقرصنة على أرض الواقع، وتجاهل العالم الافتراضي الذي بات يشكل جزءاً لا يتجزأ من حياة الإنسان في البلدان العربية.

في هذا الإطار تنعكس أصداء الآثار المرتبطة بهذا الموضوع سلبيًا على مجالات التوريد والتوزيع، وقياساً على ذلك صناعات أخرى في المنطقة على سبيل المثال، دولة الإمارات البالغ عدد سكانها 4 ملايين نسمة أنفقت خلال العام الماضي ما يقارب 2.7 مليار دولار أميركي على تكنولوجيا المعلومات التي تشمل على أجهزة الكمبيوتر، وملحقاتها، والتجهيزات الشبكية، والبرمجيات، وخدمات تكنولوجيا المعلومات.

وقد شكل هذا الإنفاق 1.5 بالمئة من إجمالي الناتج المحلي، الأمر الذي أسهم في دعم أكثر من 4400 شركة عاملة في مجال تكنولوجيا المعلومات، تضم ما يقارب من 33400 موظف متخصص في هذا القطاع، وساهم في تحقيق 670 مليون دولار كضرائب متعلقة بتكنولوجيا المعلومات.

10- أهمية الإستثمار الأجنبي.

لا بد من التأكيد على الدور الهام للاستثمارات الأجنبية، كحزمة من رأس المال والتكنولوجيا والمعارف الإدارية والتنظيمية بالإضافة إلى القدرات التسويقية في تعويض النقص المحلي في هذه الموارد في البلدان التي تنتقل إليها. إن توزيع الاستثمار الأجنبي المباشر بين مجموعتي البلدان المتقدمة والبلدان النامية يشير إلى أن ثمة اختلالاً يشهده هذا التوزيع. إذ يتجه معظم هذا الاستثمار إلى البلدان المتقدمة ويبقى النصيب الأقل للبلدان النامية. إن الأسباب الرئيسية وراء تنامي حركة الاستثمار الأجنبي المباشر في العالم تتمثل في ازدياد حاجة بلدان العالم إلى التمويل الخارجي، والإقبال المتزايد من جانب العديد من البلدان النامية نحو تقليص الإجراءات الروتينية واتباع برامج الإصلاح الاقتصادي والخصخصة، واتساع نطاق العولمة.

تعود متطلبات جذب الاستثمار في أسواق المال إلى عوامل اقتصادية وسياسية، وعوامل خاصة بالسوق المالي، وأخرى تنظيمية وإشرافية وقانونية، بالإضافة إلى حماية حقوق المستثمرين عن طريق توفير المعلومات الملائمة في التوقيت المناسب. أوصت الدراسة

بحث الجمعيات والمنظمات المهنية ولجنة معايير المحاسبة بإصدار معيار محاسبي يُحكم القياس والإفصاح المحاسبي عن مكونات رأس المال الفكري، على الشركات التي تعتمد في نشاطها بشكل أساسي على قدرات وابتكارات العاملين واستخدام التقنيات الحديثة والتكنولوجيا تطبيق المحاسبة عن رأس المال الفكري بالإفصاح عنه في القوائم المالية المنشورة.

أ- أدوات الاستثمار.

يعتمد الإستثمار على مجموعة من الأدوات الخاصة به، وتُشكل أصولاً مائيّةً أو حقيقيّةً تتبع ملكية المستثمرين، وتُعدّ هذه الأدوات وسائط استثماريّة تُصنّف إلى قسمين هما:

1- أدوات الاستثمار الماديّة، وتشمل الآتي:

- المشروعات الاقتصادية: هي من أكثر أنواع الأدوات الاستثماريّة الماديّة انتشاراً، وتشهد تنوعاً في نشاطاتها التجاريّة، والخدميّة، والزراعيّة، والصناعيّة، وتسعى إلى إنتاج الخدمات والسلع التي تُشكل حاجات الأفراد.
- العقارات: هي استثمارات تعتمد على طريقتين هما:
- الاستثمار المباشر: هو شراء المُستثمر لعقار حقيقيّ، مثل الأراضي والمباني.
- الاستثمار غير المباشر: هو شراء المُستثمر لسندٍ عقاريّ؛ من خلال المُشاركة بإحدى المحافظ الاستثماريّة أو المصارف العقاريّة.
- السلع: هي المُنتجات التي تتميز بخصائص استثماريّة، وتمتلك أسواقاً خاصّةً بها تشبه أسواق الأوراق الماليّة، ومن الأمثلة على هذه السلع الذهب والبن.
- الأسهم: هي الوثائق الماليّة التي تُسلّم للأفراد الذين يَمتلكون حصصاً من رأس مال شركة مُعيّنة، وتُقسم هذه الأسهم إلى نوعين هما:
- أ- الأسهم العاديّة: هي عبارة عن مُستندات ملكيّة تمتلك قيمةً سوقية، ودفترية، واسميّة، فالقيمة الاسميّة هي القيمة المدوّنة على سند السهم، والقيمة الدفترية هي قيمة حقوق ملكيّة السهم ولا تتضمن الأسهم المُمتازة، بل الأرباح والاحتياطات، أمّا القيمة السوقيّة فهي التي تُشكل سعر بيع السهم في السوق الرأسماليّ.
- ب- السندات: هي وثائق تثبت امتلاك أصحابها حقوقاً معيّنة في ملكيّة الأشياء أو استخدام خدمات مُحددة، كما تُعدّ ديوناً مترتبةً على أشخاص طبيعيين أو معنويين، وتشمل السندات الأنواع الآتية:

1- السندات الصادرة عن الحكومة، وتُعرف باسم السندات الحكوميّة، وهي عبارة عن صكوك ذات مديونيّة طويلة ومتوسّطة الأجل، وتصدّرها الحكومات للحصول على موارد تساعد على مواجهة التضخّم أو تغطية العجز الاقتصاديّ.

2- السندات الصادرة عن المؤسسات: هي عقود بين المنشآت (المقترضة) والمستثمرين (المُقرضين)، ووفقاً لهذا الاتفاق يُقرض الطرف الثاني مبلغاً مالياً للطرف الأول الذي يتعهّد بأن يردّه مع قيمة الفوائد المترتبة عليه في تاريخ مُحدّد.

11- إقتصاد المعرفة يبني على الفكر الإقتصادي.

الفكر الاقتصادي يهتم بدراسة التطورات والنظريات الإقتصادية التي بنت الإقتصاد وجعلته على ما هو عليه الآن، وتمحورت حول دراسة وتحليل الأفكار المتعلقة بفن إكتساب الثروة، ووضع قواعد وأصول الإلتزام الأخلاقي في بيع السلع بسعرٍ عادل¹⁶ ”.

منذ العصور الوسطى، كان الإقتصاد يتطوّر تقريبا بشكل حصري في الغرب حتى القرن العشرين، وذلك لأن الإستعمار وفّر لدوله فائضاً مالياً مهماً، سمح لإقتصادياتهم أن تنمو وتتطور بشكلٍ سريع.

من هنا يمكن القول أن أي فعلٍ إقتصادي يحتاج الى رأس مال من أجل تمكنه من بناء الحراك الصحيح لهذا المال واثميره. إلا أن النشاط الإقتصادي يحتاج الى فكرٍ مبني على كيفية الإستثمار والإستغلال الصحيح، من أجل نجاحه، وإلا فإن شوائب كبيرة قد تصيب العملية الإنتاجية وقد تصل في النهاية الى الفشل، من هنا تطرح مسألة الفرق بين الفكر الإقتصادي، والفكر الإستثماري (الإنتاجي) المتمثلة بالموارد البشرية.

أ- القواعد التي يبني عليها الفكر الإقتصادي.

تعتبر طاقة الموارد البشرية المادة الأولية الأساسية لوضع خطة العمل الإقتصادي، ولكنها تبقى عرضة لظهور عوارض النجاح أو الفشل في المؤسسة، لكن فروقات صياغة الأفكار والدراسات تبقى رهينة لمدى التنبه لنقاط القوة ونقاط الضعف ومكامن الضعف التي يمكننا تحويلها وتطويرها لتصبح نقاط قوة، ومتابعة نقاط القوة وحمايتها كي لا تتحول الى نقاط ضعف.

إن تطور الفكر الإقتصادي مرتتهن لمدى تأقلمه بواقعه الإجماعي، ومستواه المعيشي، والإقتصادي، والثقافي، وهو يتأثر بشكلٍ مباشر بمدى توفر الإستقرار السياسي الجاذب

للإستثمار، من هنا فإن الفكر الإقتصادي يحتاج الى فكر إستثماري. يعتبر الفكر الإقتصادي المسؤول عن تعيّر معالم الحياة الإنتاجية وتطورها عبر السنين، وهو المسؤول عن توفير الأمان لشريحة إجتماعية، وكذلك السعي الى خلق الترابط بين القطاعات الإقتصادية كافة، فبقدر ما تنحو القطاعات الإنتاجية مجال التقدم والنمو، فإن التكامل يحظى بمكانة عالية مع القطاع الخدماتي. من هنا لا بد من تفعيل الفكر الإقتصادي بغية إنفتاحه على باقي القطاعات، فكأنما نجد حالة من الإستقلالية بين المستثمرين حيث تؤدي الى ضيق في التفاعل والترابط الذي من شأنه أن يخلق سوقاً واسعة لتصريف الإنتاج، إنطلاقاً من فكرة ان القطاعات الإقتصادية تخدم بعضها البعض. متى يصبح الإنسان الإقتصادي منفتحاً على باقي المنتجين، يخلص من خلالهم الى دراسة حالة السوق، وتكون ثمرة فعله الإنتاجي خدمة لباقي العمليات الإنتاجية، التي بدورها تجد في هذا باباً للتوفير وتخلصاً من كلفة الإستيراد.

ب- هل يمكن إعتبار أن كل فكر إقتصادي هو بالطبع فكر إنتاجي؟

من الأفضل توجيه المستثمر فكره الإقتصادي ورأس ماله نحو الإنتاج، فهناك من تسبّب في بوار مساحاتٍ شاسعة لأن رأس المال تفوّق على الفكر الإنتاجي، فكثيرٌ من أصحاب رؤوس الأموال الجبابة يعتقدون أن الإستثمار في أرباح الفائدة أكثر ضماناً من عمليات إنتاجية قد تؤدي الى الفشل والخسائر الكبيرة. كما أن تفوّق الفكر الإقتصادي على رأس المال أيضاً عرضة للفشل بسبب أن كثرة مصادر التمويل وبخاصة التي تتراكم عليها الفوائد هي عرضة للإنكسار الكبير. لذا لا بد من التوفيق بين قيمة رأس المال وحسن إدارته، شرط أن يتكامل التنسيق مع باقي العمليات الإنتاجية التي تلائم العمل الإنتاجي المنوي القيام به. من هنا نطرح إشكالية التشبيك بين المستثمرين، حيث يتم من خلالها تحديد أنواع الأعمال الإنتاجية وأعدادها، وإظهار الأنواع التي يحتاجها السوق، ما يساعد في التقليل من نسبة الإستيراد، كما أن الترابط الإقتصادي المتكامل وحضور الدولة الراعية، يؤدي الى تدارك الإحتكار خاصة وأن التوسع في الإنتاج وتنوّعه بات حاجة ملحة في ظل عولمة السوق وهيمنة الشمال على الجنوب بفعل كثافة إستثماراته.

إذن نحن أمام قراءة جديدة تقصل بين عقلية رجل المال وعقلية رجل الاقتصاد، فتعد العقيدة أو النظرية الاقتصادية هي الأساس الذي يُبنى عليه النظام الاقتصادي في بلد ما، وفي ضوء هذا النظام الاقتصادي تأتي حزمة التشريعات والقوانين البرلمانية، والتعليمات الحكومية، التي من شأنها تسيير الشؤون الاقتصادية للدولة، كتوزيع الثروة، ورفع دخل

الأفراد، وبما يؤدي في النهاية إلى تحقيق رفاهية المجتمع. وعندما يفترق المجتمع لهذه العقيدة أو النظرية، ويعجز عن تحديد بوصلته الاقتصادية، يتحول البلد - كما يصفه خبراء الاقتصاد - إلى (بلداً مجنوناً اقتصادياً)، والذي من مظاهر ومؤشرات جنونه هو انخفاض مستوى الدخل، وارتفاع معدلات الفقر بين سكانه، حتى مع كونه من أغنى البلدان ثراء وثروة.

يتشكل الفكر الاقتصادي المعاصر من حزمة من المبادئ والأفكار المتفاعلة مع بعضها، والتي تشكل مجموعها ملامح النظام الاقتصادي لأي بلد، بمعنى أن أي نظام اقتصادي ينبع من فكر اقتصادي، وعندما نجد نظاماً اقتصادياً متهاكماً، فذلك يعني أن هناك فكراً اقتصادياً فقيراً يقف وراءه، وعندما ترى دولة ذات نظام اقتصادي قوي ومتماسك، فتلك دولة يتمتع قادتها بفكراً اقتصادياً حديثاً. وعليه فإن دراسة أي نظام اقتصادي لتشخيص عناصر الضعف فيه، يتطلب أولاً معرفة العقلية أو الفكر الاقتصادي الذي يسنده؛ وكما أسلفنا فإن الفكر الاقتصادي يتألف من مجموعة من المبادئ والأفكار، والتي ربما من أهمها هو ذلك المبدأ الذي يخبرنا (لا يهم حجم الأموال التي يملكها البلد، المهم كيف تُستثمر هذه الأموال؟)، ويوضح لنا هذا المبدأ اختلافاً جوهرياً بين مفهومي "المال" و"الاقتصاد" فالماليون والمصرفيون يتحدثون دائماً عن "حجم الأموال المتاحة للتداول في السوق" أما الاقتصاديون فيهتمون بـ "من أين جاءت هذه الأموال وإلى أين تذهب، وكيف توزع على أفراد المجتمع؟". فالإقتصاد العراقي مثلاً، نجدُه يُدار سواء من قبل الساسة أو من قبل الشعب بعقلية "رجال المال"، وليس بعقلية "رجال اقتصاد". وهذا ما تسبب بهدر مخيف للثروات طيلة قرون طويلة، وخصوصاً في العقد الأخير، حيث تزايدت مستويات الفقر في بلد وُصفت ميزانيته بـ (الانفجارية).

ونأخذ مثلاً آخر، لأجل تعميق فهمنا للفرق بين "المال" و"الاقتصاد"، يتطلب ذلك أولاً معرفة مفهومي آخرين، هما: "قائمة الدخل" و"قائمة الميزانية".

فمع بدايات النهضة الصناعية الأوروبية، ظهرت حاجة أصحاب الشركات إلى نظام لمساعدتهم على معرفة حجم التكاليف التي تُصرف لإنتاج سلعة ما، وكذلك حجم الإيرادات المتحققة من بيع تلك السلع، لكي يستطيعوا في المحصلة معرفة أرباحهم المتحققة، فأتجه المحاسبون إلى وضع قائمة سُميت بـ (قائمة الدخل)، حيث توضح هذه القائمة كلاً من نفقات الشركة وإيراداتها، والنتيجة بينهما هي الأرباح، أي أن (الربح = الإيرادات - التكاليف)، ولكن وبمرور الوقت لاحظ المستثمرون وأصحاب الشركات

وخبراء المال والأسهم، أن الشركات الأكثر ربحية ليست بالضرورة هي الأفضل، وإن العديد من الشركات الأقل ربحية هي الأكثر جاذبية للمستثمرين في سوق الأسهم، وهذا ما دفعهم بخبراء المال والمحاسبة إلى البحث عن أسباب وحيثيات هذه المفارقة الغريبة، فما الذي يجعل أحياناً الشركات الأقل ربحية هي أكثر جاذبية للمستثمرين.

لقد وجد الخبراء والمختصين، إن المستثمرين لا يبحثون عن المال والأرباح فقط، بل أيضاً يبحثون عن مصدر هذه الأموال، فالعديد من الشركات الإنتاجية تقترب رؤوس أموالها من مصارف بفوائد اضافية، وهذا ما يجعل الشركات عالية الربحية المقترضة لرؤوس أموالها، أقل جاذبية، من تلك الشركات منخفضة الربحية، ولكنها ذات التمويل الذاتي لنفسها.

كذلك، فإن المستثمرين الراغبين في تقييم ربحية وجاذبية شركة ما، يبحثون أيضاً عن الكيفية التي تُنفق بها الشركة أرباحها المتحققة، فالشركات التي تخصص جزء من إيراداتها لأغراض التوسع الإنتاجي أو السوقي، هي بالتأكيد أفضل بنظر المستثمرين من تلك الشركات التي لا تخصص أية مبالغ للتوسع الإنتاجي أو السوقي.

وهذا كله ما دفع إلى ظهور قائمة جديدة، هي " قائمة الميزانية"، التي تبين للمخطّط الاقتصادي، مصادر الأموال وأبواب إنفاقها، بعد أن كانت "قائمة الدخل" توضح فقط حجم الأموال. وهكذا نرى إن تطوراً في الفكر الإنساني قد حصل، أدى لتغير نظرة الإنسان إلى المال: (فالأهم من المال، هو كيفية إنفاق هذا المال)، فالبلد الذي ينفق ميزانيته (نصف مليار دولار) على إنشاء بنى تحتية ومشاريع إنتاجية وصناعية، هو أفضل من ذلك البلد الذي ينفق ميزانيته (مليار دولار) على استيراد السلع الاستهلاكية والإنتاجية؛ وهكذا لم يعد حجم المال هو المهم، بل كيفية أنفاقه، وأن البلدان الأكثر أموالاً لم تعد هي الأقوى اقتصاداً، بل نجد أن العديد من البلدان ذات الميزانيات المتواضعة، باتت مجتمعاتها ذات مؤشرات معيشية جيدة، مقارنة بالكثير من تلك البلدان التي قد تبلغ ميزانياتها حداً "إنفجارياً". "وفي هذا سياق يمكن رؤية أزمة الإقتصاد العراقي في يومنا هذا، فمشكلة الإقتصاد العراقي، تعود في جزء كبير منها إلى عدم وجود رؤية اقتصادية للمشرع العراقي، وغياب التشريعات والقوانين التي من شأنها تشجيع الإقتصاد الوطني وجذب الاستثمارات الوطنية والدولية؛ أما على الصعيد التنفيذي، فما يزال صانع القرار العراقي يفتقد لإرادة حقيقية قادرة على توجيه المال العراقي للإستثمار بدلاً من توجيهه للإستيراد"¹⁷.

13- أهمية تطبيق الحوكمة في المجال الإقتصادي: كيف ننمي الفكر الإستثماري (الإنتاجي) إنطلاقاً مما يحدده الفكر الإقتصادي؟

إن الظروف السائدة في مجتمع ما، هي بادرة إما للنهوض الإقتصادي أو عدمه، وبالتالي فإن تنمية الفكر الإقتصادي والوصول به لأن يكون فكراً إستثمارياً منتجاً يحتاج الى بيئة ملائمة يكون للدولة بكافة وزاراتها ومصالحها ودوائرها، دوراً فاعلاً يساهم في خلق حافز للمستثمرين. فالفكر الإقتصادي إذاً يحتاج الى رعاية وإهتمام، يبدأ من توجيه الطالب في دراسته في التعليم الثانوي الأكاديمي والمهني ويحضر وفقاً لما تستهويه رغباته من العمل في المستقبل، وهذا ما يفترض رعاية مبكرة من أجل توجيهه وتعليمه طريقة التفكير الصحيحة.

إن الحوكمة¹⁸ بالمفهوم الإقتصادي، تعني الترابط الصحيح بين ربّ العمل والعمّال، عن طريق إشراك كل عامل وفقاً لمهنته وإختصاصه في التخطيط والتنفيذ، ليصبح العامل جزءاً أساسياً من العملية الإنتاجية، إن تعزيز الحوكمة في الإدارة تساهم في رفع مكانة العمّال وتزيدهم إنتماءً للمؤسسة، وبالتالي نجاح وزيادة في الإنتاج كمّاً ونوعاً. من هنا نلتمس أهمية تطبيق الحوكمة القائمة على مبدأ التشبيك لترسيخ الشراكة الفاعلة لدى العمّال وكذلك سعيهم بدافع معزز بالرغبة نحو تحقيق النجاح.

إن الفكر الإقتصادي يختص بقراءة واضحة حول الواقع المالي للدولة، والواقع الزراعي والصناعي والخدماتي كإقتصاد متكامل، لكن، بنظرة شاملة تفسر حقيقة أمر القطاعات الإقتصادية، لناحية إظهار مشاكلها وتحديد الحلول اللازمة لتحسينها والنهوض بها نحو تنمية مستدامة.

أما الفكر الإستثماري، فهو الوسيلة المباشرة التي تناط بالإحتكاك بمفاصل النواحي الإقتصادية، ومن خلالها نؤكد مدى تعافي الإقتصاد أو تراجعها.

إن حوكمة الشركات هي احد العناصر الرئيسية في تحسين الكفاءة الاقتصادية والنمو الاقتصادي، ومن ثم فان قوة وسلامة ومثانة قطاع الشركات له تأثير ايجابي على نمو الاقتصاد الكلي، إلى جانب تعزيز ثقة المستثمرين حيث تتضمن حوكمة الشركات مجموعة العلاقات بين إدارة الشركة ومجلس إدارتها وحملة الأسهم ومجموعة أصحاب المصالح الآخرين، وإن درجة مراعاة الشركة للمبادئ الأساسية لحوكمة الشركات الجيدة هي احد العوامل التي تتزايد أهميتها بالنسبة لقرارات الاستثمار، وان تأثير الحوكمة على هذه القرارات تكون من خلال اقتناع المستثمرين بمستوى المساهمة أو التمويل فيها لا سيما

أن عملية الاستثمار وفي جميع الحالات تتسم بقدر من المخاطر وقد كلفت الأزمات المالية المستثمرين خسائر هائلة مما دعاهم إلى التدقيق والتقييم للتأكد من مدى تطبيق القوانين والقواعد والمعايير الخاصة بالحوكمة قبل الإقدام على الاستثمار في الشركات.

– كيف يمكن التوصل الى فكر إستثماري (إنتاجي) بالإستناد الى الفكر الإقتصادي؟
إن ما تقوم به الدول المتطورة (الصناعية) من تقديمات للطلاب المتفوقين، يُعدّ جهداً مهماً في تأمين موارد بشرية أكثر إنتاجية، كما أن تفعيل التوجه نحو التخصص في العمل وتعزيز الشراكة، ورفع قيمة الأجر، والمتابعة البناءة لتطوير المعلومات التي تساهم في متابعة نتائج الأبحاث الحديثة وإدخالها في العمليات الإنتاجية.
إلّا أن الفكر الإستثماري، يحتاج الى قاعدة إنطلاق قبل تحديد نوع العمل، وذلك عبر أساسيات هذه أبرزها:

أ – في الوصف العام تحديد:
عدد السكان في المكان – أنواع الموارد المتوفرة فيه – مستوى معيشة السكان – التعرف على الخصائص الثقافية السائدة في المكان – المستوى الثقافي الذي يمثل الشريحة الأكبر من مجتمع المكان – نوع الإنتاج السائد بنسبة عالية – طاقة الموارد البشرية.

ب – في التخصيص نحو عمل معين:

- 1 – تحديد الموقع الجغرافي للمنشأة.
 - 2 – إنشاء علاقة بين رب العمل والسلطة المحلية.
 - 3 – تنفيذ إستطلاع رأي يطل الأنواع المناسبة للإنتاج لإختيار النوع الكثر حاجة.
 - 4 – تحديد الحاجات اللازمة لمجتمع المكان.
 - 5 – مدى توفر رأس مال.
 - 6 – مدى توفر التقنيات والألات.
 - 7 – تطبيق الحوكمة كشراكة قائمة بين رب العمل والعمّال.
- فالأرباح المحققة مثلاً، هي ليست دائماً في حالة فائض ويمكن الإستغناء عنه لصالح المصارف، فلا بد من تعريفه أن فائض الأرباح يمكن الإستفادة منها في حال حدوث تعثر ما أو ركود إقتصادي طارئ.

14 – أهمية حماية السوق المحلية من هيمنة نظام العولمة.
يحظى الشمال (الدول الصناعية) بنصيب كبير من الإستثمارات في عالم الجنوب النامي

وذلك بفعل الإستعمار الحاصل بنمطٍ جديدٍ ألا وهو سيطرة الشركات العالمية العابرة للقارات على أسواق الدول ذات البيئَة الخصبة للإستثمار، إن هذه الشركات هي بمثابة الإسفنجة التي تمتص أموال الجنوب وموارده الطبيعية بحماية فرضتها القوانين والقواعد التي رسمتها المؤسسات المالية العالمية كالبانك الدولي وصندوق النقد الدولي بعد أن تمكننا من فرض هيمنتهم وسلطتهم والإيقاع بمجمل دول الجنوب في فخ المديونية وبالتالي التبعية الإقتصادية، مما جعل من إقتصادها ساع دائماً لتسديد الدين وخدمة الدين.

إن السعي للإنتاج وطنياً لما يتم إستيراده، وخلق التمكين الفكري في الإنتاج، وتثبت ثقافة الإلتزام عن طريق شراء الإنتاج الوطني، ومنع الإحتكار عن طريق فتح المسارات الإنتاجية على بعضها البعض في الإنتاج المتشابه، يساعد على الإستثمار محلياً والتخلي عما نستورده من سلع جاهزة أو مواد أولية أو صناعية معيَّنة للعمليات الإنتاجية، كبعض المواد الأولية التي يمكن إنتاجها محلياً، فيما لو تم تحفيز اليد العاملة المتخصصة وإستغلالها في إبتكار آلات تتم عن تخطيط، ويساعد في منعها من الهجرة، وبالتالي إستقرارها. وفي هذا المجال لا بد من الإشارة الى سياسة إنتقاء اليد العاملة المتخصصة والتي تبدأ من خلال ما تقوم به بعض المؤسسات الخارجية التي تعمل بالتنسيق مع المؤسسات التربوية والجامعات حيث تقوم بدراسة حالة الطلاب المتفوقين الذين باتوا على أبواب الجامعات، حيث يتم تأمين منح دراسية مشروطة، من أجل إلتزام الطلاب بدراساتهم وإجتهادهم، وبعد تخرجهم يتم تأمين فرص عملٍ لهم برواتب مغرية وتقديمات تساعد على ثباتهم وعدم عودتهم الى بلادهم. لذا لا بد من اعتماد سياسة تتمثل كإستراتيجية لمواجهة الإختطاف الفكري وإغراق الدول النامية باليد العاملة العادية. إن تطوير الإختصاصات العليا، وتوجيههم لإعدادهم فنيا وتقنيا، يؤمن الأداة المهمة للعمليات الإستثمارية، وكذلك القدرة على توجيه صحيح لرأس المال وتنظيم عمله وحسن الإستفادة منه.

أثر نظام العولمة وإنفتاح الأسواق سلبياً في إقتصاديات الدول التي أغرقت بالسلع المستوردة ”مع بداية التطور الصناعي وما صاحبه من إتساع في نطاق الإنتاج، حيث تزايدت الدعوة الى فتح الحدود الخارجية أمام تدفق المنتجات الى أسواقٍ إضافية، وفتح الحدود الداخلية أمام مستلزمات الإنتاج“¹⁹. فالعالم لا يستطيع تجمُّل العنف المفرط الذي تمارسه العولمة الإمبريالية - النيوليبرالية، فالدول قد تتكسر، والمجتمعات قد تنفجر عنفياً، لأن قوى العولمة تحاول أن تسد أبواب المقاومة السياسية على المجتمعات بعد أن عطّلت قدرات الدول السياسية في وجه القوة العظمى لا في وجه دولها وحكوماتها.

هذا الموضوع ليس مجرد فرضية نظرية، إنه احتمال وارد وقوي يتزايد يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة²⁰. من هنا، فإن التخلص من الإنتاج المستورد هو الفعل الإقتصادي الذي يجب حصاد نجاحه بفضل تنمية الفكر الإستثماري المُنتج حفاظاً على السوق الداخلية وحمايةً للإنتاج المحلي.

15- أثر التكنولوجيا على الفكر الأستثماري.

”إن الاستثمار الفكري في المنطقة العربية يحتاج إلى تعاون عدة أطراف تتمثل في: الحكومة ممثلة في التشريعات والجهات الرقابية، وأصحاب الصناعات، والمجتمع نفسه، حيث أنّ هذا النوع من الاستثمار يساهم بشكل مباشر في التنمية الاقتصادية والبحثية للدول، لا سيما في مجال الصناعات والخدمات عن طريق عائدات الاستثمارات في التدريب والتطوير والبحث.

16- الحلول والتوصيات.

عدم وجود الوعي الكافي بأن الاستثمار الفكري يُعد ركيزة من ركائز استقرار الصناعات بشتى أشكالها وسببا رئيسيًا في النهوض بالاقتصادات، وجذب الاستثمارات الخارجية، يعدّ إشكالا حقيقيا.

لذا فالحل يكمن في وجود آلية لتشجيع الملكية الفكرية، وضمان حمايتها ضد الانتهاكات، وتشجيع البحث والتطوير، وخاصة في الصناعات المحورية التي تعتمد بشكل جذري على الدراسة والأبحاث، وآلية أخرى لمراقبة الانتهاكات ومعاقبة أصحابها، لضمان وجود مناخٍ عادلٍ من المنافسة، مع حفظ الحقوق والاستثمارات الخاصة لمن قدموا براءات اختراع وتسجيلات للعلامة التجارية عن طريق وضع قوانين وتشريعات صارمة لهذا الغرض.

من جهة أخرى، فإنّ الجهات الحكومية لها دور مهم أيضاً في دعم الاستثمار الفكري عن طريق التوعية البناءة، وتسهيل إجراءات التسجيل لأصحاب الأفكار والصناعات، ومنح الدعم للشركات والأفراد الذين يتقدمون بطلبات التسجيل، كما يمكن أن يلعب الإعلام دوراً في توعية المستهلكين بأهمية شراء المنتجات ذات العلامة التجارية المسجلة عن طريق إطلاع كافة شرائح المجتمع بالآثار الضارة لانتهاك العلامات التجارية، والتركيز أكثر على الوعي بشأن حقوق الملكية الفكرية. الاعتراف بأن رأس المال البشري، ورأس المال الهيكلية، ورأس مال العلاقات، جميعها تؤثر في جذب الاستثمار للأوراق المالية في أرض الدولة، وذلك من خلال الآتي:

1- تتمثل العناصر المكونة لرأس المال الفكري في رأس المال البشري ورأس المال الهيكلية ورأس مال العلاقات.

- 2- الافصاح عن تنمية مهارات العاملين وخبراتهم وعلاقاتهم داخل وخارج المنشأة وتفاعلهم يشجع على جذب الاستثمار في سوق الخرطوم للأوراق المالية.
 - 3- الافصاح عن قدرة المنشأة على التجديد المستمر وتوليد أفكار جديدة لإنتاج السلع وتقديم الخدمات وتطوير اساليب وطرق التشغيل لتحسين الجودة وخفض التكاليف باستخدام التكنولوجيا الحديثة يمكنها من المنافسة وجذب الاستثمار في سوق الخرطوم للأوراق المالية.
 - 4- الافصاح عن كفاءة استخدام نظم المعلومات وأساليب التقنيات الحديثة في المصارف عينة الدراسة يزيد من كفاءتها التشغيلية ويساعد في جذب الاستثمار.
 - 5- ضرورة مراجعة واختيار أفضل أنظمة الممارسات والتجارب الملائمة في هذا المجال، من بين هياكل العمل الخاصة بتطبيقات الأنظمة الرقمية للحكومة الحاسوبية، وليس مجرد الانصياع للقوانين والتشريعات الإدارية السائدة.
- الخاتمة.

ترتكز التكنولوجيات الجديدة على الأسس التي حققتها التكنولوجيات المجربة. فالتكنولوجيات الجديدة أقدر على الاستفادة من التكامل الإقليمي في جميع المجالات المتصلة بالعلوم والتكنولوجيا والابتكار. والتكنولوجيات المناسبة ضرورية لترسيخ العملية التنموية ومواجهة أثر تغير المناخ في المنطقة العربية، وذلك من خلال تعزيز التعليم والنهوض بالوعي العام، ولا بد من زيادة القدرات المحلية في مجالات التخفيف من تغير المناخ، والتكيف معه، والحد من أثره، والإنذار المبكر بشأنه، ومن وسائل تحقيق ذلك التركيز على النساء والشباب والمجتمعات المحلية والمهمشة.

تحتاج التنمية المستدامة في المدن ذات الكثافة السكانية المرتفعة إلى الابتكارات في استخدام الطاقة، واستهلاك المياه، وإدارة التلوث والنفايات، والنقل، والأمن، والإسكان، فبحسب تقديرات البنك الدولي فإن نحو 80 في المائة من سكان العالم سيقطنون في المدن مستقبلاً، وسيسبب ذلك بضغط هائلة على مدن مثل بغداد والدار البيضاء ودبي والرياض وعمان والقاهرة، وستحتاج هذه المدن إلى إدارة احتياجات الأعداد المتزايدة من المجموعات السكانية المحلية.

بدأت وسائل التواصل الاجتماعي تضطلع بدور حاسم في تثقيف الناس بشأن القرارات المتخذة في المجتمعات المحلية التي تؤثر على المياه، والهواء، وإدارة النفايات، والنقل، ونوعية الحياة. وتتيح خدمة الإنترنت مزيداً من التمكين للمواطنين في جميع أنحاء العالم

وحافزاً للاتجاه نحو الاستدامة، وسيصبح إنشاء المحتوى العربي الرقمي على المنصات المحلية والعالمية جزءاً من بناء مجتمعات أكثر تماسكاً.
 إن كل هذا التمكين والإستدامة في التنمية، هو ما نطلق عليه إقتصاد المعرفة الذي طال كافة جوانب الحياة وأصبح من الأدوات التي تعتمد عليها العولمة الإقتصادية.
 ويبقى السؤال في هذا المضمار،

– هل سيسمح التطور الفكري إنتاج إطار علمي لقياس رأس المال الفكري داخل منشآت الأعمال؟.

– وهل سيبرز أثر طرق ووسائل محاسبة رأس المال الفكري في تحقيق الميزة التنافسية؟.

– المراجع:

1– د. طواهرية الشيخ، الإستثمار البشري وإدارة الكفاءات معاملاً لتأهيل منظمات الأعمال وإندماجها في إقتصاد المعرفة، ديسمبر 2011 ص: 7.

2– منشورات: كتابة بانا ضمراوي ٢٠٢٠، وكتابة هالة فهمي – تاريخ 24 يونيو، 2021.

3– محمد السيد عبد السلام، التكنولوجيا الحديثة والتنمية الزراعية في الوطن العربي، مجلة عالم المعرفة، 1998، العدد: 50، ص: 9 – 10.

4– ربي حسان، عصر التكنولوجيا بين الماضي والحاضر، جامعة الحسين بن طلال، مقالة إلكترونية، الأربعاء 16 نوفمبر 2022.

5– com.Mawdo3

6– موقع زيادة، موضوع تعبير عن التكنولوجيا بالعناصر 30\اب\ 2021.

7– ورقة عمل بعنوان: الإقتصاد المعرفي أساس التنمية الاقتصادية والاجتماعية في الدول العربية – للأستاذ: سعد خضير عباس الرهيمي – مقدمة لكلية القانون – جامعة بابل.

8– رياض بن صوشة ”الموارد الإستراتيجية الرهان الأقوى لتميز المؤسسات الاقتصادية في ظل الإقتصاد اللامادي“، منشورات المنتدى العربي لإدارة الموارد البشرية، صحيفة العرب، الإستثمار الفكري رأس مال الحاضر والمستقبل، أيلول 2014.

9– كريم صالح، في دراسة صادرة عن المركز الإقليمي للدراسات الاستراتيجية بالقاهرة.

10– د. نجلاء أحمد السويل، بناء الفكر الإستثماري وإدارة الوقت.. هل يفهمهما

أبناءؤنا؟، الجمعة 1 مايو 2009

abna_swail@hotmail.com

- 11- يحي أحمد الكعكي، الشرق الأوسط وصراع العولمة، دار النهضة العربية، بيروت - لبنان - طبعة أولى، 2002، ص: 145.
- 12- صحيفة العرب، الاستثمار الفكري رأس مال الحاضر والمستقبل، 12 أيلول 2014.
- 13- حسني مهران، التطورات المحلية والإقليمية والدولية، الاستثمار الأجنبي المباشر في مصر وإمكانات تطويره، المجلة المصرية للتنمية والتخطيط، 2021.
- 14- د. جميل خالد، أساسيات الاقتصاد الدولي (الطبعة الأولى)، المملكة الأردنية الهاشمية: الأكاديميون للنشر والتوزيع، 2014، ص: 308 - 309. بتصرف.
- 15- تاريخ الفكر الإقتصادي، ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.
- 16- حيدر مرتضى علي، "كتابات" صحيفة إلكترونية شاملة مستقلة، 1 / 9 / 2002، الأربعاء 6 تموز / 2016
kitabab@kitabab.com
- 17- الحوكمة هي مجموعة من القوانين والنظم والقرارات التي تهدف إلى تحقيق الجودة والتميز في الأداء عن طريق اختيار الأساليب المناسبة والفعالة لتحقيق خطط وأهداف الشركة أو المؤسسة، وبذلك فإن الحوكمة تعنى تطبيق النظام أي وجود نظم يعمل على التحكم في العلاقات بين الأطراف الأساسية التي تؤثر في الأداء، كما تشمل مقومات تقوية المؤسسة ...
- 18- محمد محمود الإمام وآخرون، منطقة التجارة الحرة العربية التحديبات وضرورات التحقيق، مركز دراسات الوحدة العربية، طبعة أولى، بيروت، ك (1) 2005، صفحة: 45.
- 19- يوسف الأشقر، "عولمة الرعب" طبعة ثانية، بيروت - لبنان - 2002 صفحة: 42.
- 20- كريم صالح، الصادرة عن المركز الإقليمي للدراسات الاستراتيجية، إلى أن الاستثمار الفكري في المنطقة العربية، صحيفة العرب، الاستثمار الفكري رأس مال الحاضر والمستقبل، أيلول 2014.

من السؤال الفلسفي، إلى فلسفة السؤال. في السؤال عن السؤال

عدنان الأحمد

أستاذ جامعي

أولاً_ مقدمة: في ما السؤال

نحاول في هذه المقدمة أن نمتحن إمكانيّة التفكير في السؤال، فالسؤال الفلسفيّ ليس اعتباطيّاً، بل هو شرط الإمكان للقول الفلسفيّ. ونحن نعلم أنّ الفلسفة لم تشغل عبر تاريخها الطويل بشيءٍ مثلما انشغلت بطرحها للسؤال. والقول في ماهية السؤال ملازم لخطاب الفلسفة وتاريخها. فهو قول فلسفي في السؤال، قول يسأل عن ماهية السؤال من داخل الفلسفة. السؤال عن الماهيّة سؤال فلسفيّ، السؤال عن ماهيّة السؤال، سؤال تطرحه الفلسفة على نفسها عن السؤال، على شاكلة السؤال عن ماهيّة: ما الوجود؟ ما المعرفة؟ ما القيم؟ ما السلطة؟ ما العدالة؟ ما الشر؟ ما السياسة؟...

من هنا نقول، تتبني الفلسفة على مبدأ أساسيّ هو السؤال، أو قل إنّ ممارسة السؤال، المدخل الأساسيّ لفعل التفلسف. فالسؤال في الفلسفة خالد في حين أن الجواب فان. ولما كان السؤال يضع في اعتباره السؤال عن كل شيء، حتى عن ذاته، فقد جعلنا من السؤال عن السؤال محور تفكير فلسفي!

ونحن حين نجعل من أسئلتنا موضع تساؤل، فإننا غالباً ما نتساءل عن أصلاتها، وطبيعتها، وأدواتها. ومهما كانت الإجابات متنوعة في صحتها أو خطئها، فإن وعياً جديداً يتشكل يحمل في طياته مستوى وعينا بالسؤال.

يعد السؤال عن السؤال، السؤال الأساسيّ في الفلسفة بشكل

عام، ولم يكن الأمر على هذا القدر من الأهمية إلا بوصفه ثمرة للوعي بالحاضر الآن. ولكن لماذا يمر الوعي بالحاضر عبر الوعي بالسؤال؟

في السؤال الحقيقي تخرج الذات من عزلتها، نحو أفق التفتح والتلاقي مع الواقع والاستجابة له. هكذا تكون خصوبة السؤال سبباً في تفتح الوعي الفلسفي نحو امتلاك الواقع والقبض عليه. وإذا كان من شأن السؤال الحقيقي أن يظهر في تاريخ الفلسفة بصوفة منتجاً لمفاهيم جديدة، فذلك لأنه تحوّل إلى مركز إشعاع لتلاقي الأفكار من خلال الكشف عن مفاهيم جديدة.

ولكن، لماذا السؤال اليوم عن السؤال، بعد كل هذا التاريخ الطويل من ممارسة السؤال الفلسفي؟

إنّ الدافع الأساسي للانشغال بالسؤال اليوم، الخطر من سيطرة الأنظمة المعرفية العتيقة على وعينا المعاصر، هذه الأنظمة المتمثلة في ثقافة الأجوبة الجاهزة. من هنا، كان الهدف من السؤال، تفكيك تلك البنى الجامدة في وجه كل جديد، والتحرّر من سطوة الأسئلة الزائفة. ولأنّ الحل يجب أن يكون جذرياً راديكالياً، كان الإهتمام بالسؤال. في السؤال يتحرّر وعينا باعتباره أكبر مفكك لتلك الأجوبة، إذ يصبح هاجس السؤال الحفر الأركيولوجي في أعماق الأجوبة. هنا تصبح مهمة السؤال النبش والتّعزير والتّكنيس للأجوبة الزائفة. فعندما يخون الجواب الزائف السؤال الحقيقي، يسعى هذا الأخير إلى عملية تحرير هذا الجواب، وتصويبه نحو هدف السؤال.

إنّ استنابات الأسئلة القلقة في وجه الأجوبة الجاهزة، فتح للأبواب المغلقة بأجوبة جديدة، وإمكانية مواجهة الآن، نتيجة اشتداد فعل الدهشة، وتفكيك هيمنة الأجوبة التقليدية المطلقة، والتحرر الجذري منها؛ غاية أساسية في تناولنا لهذا الموضوع. فالجواب مشروط بلحظة السؤال الآن وهنا، وليس أجوبة عليا تتجاوز مشروطيات اللحظة الحاضرة، نحو الماضي الملبس المختلف في سياقه عن لحظة تفتح الوعي القصدي.

إنّ محاولة التصدي لمهمة البنية التقليدية، ومواجهة هيمنتها، عبر تأصيل ثقافة السؤال في ثقافة راكدة تاريخياً، عمل شاق دون شك. وذلك لأنّ هذه البنية التقليدية المسيطرة والمتجذّرة في وعينا، مسؤولة إلى حدّ كبير عن كل ما نعانية.

من هنا، غايتنا أن نجعل من السؤال الفلسفي سؤالاً قصدياً، نتجه به إلى تفكيك بنية الوعي المتشكّل سلفاً، من أجل بناء معرفة تتسم بالواقعية، بعيداً عن أي سلطة قد تجعل منه صندوقاً مغلقاً، فهو موجّه بالخصوص إلى أولئك الذين يعتقدون امتلاك الحقيقة، غير أنّ السؤال هو الأداة التي تعمل على تحطيم أشكال الدغمائية، وهدم البنية العتيقة،

والتصدّي للفكر الأحادي، وفتح المجال أمام فعل الإمكان، وهذا كله لا يبدأ إلا من حيث يبدأ السؤال.

إن إمكانية مواجهة الآن، بسؤال الحاضر ينتج معرفة حقيقية أصيلة وجديدة، وهنا تصبح صناعة الرؤية الجديدة للواقع تبدأ من السؤال الحقيقي. فالأجوبة الجاهزة لا تؤدي إلا إلى إعادة إنتاج الماضي القديم بحاضر جديد. والعقل الراكد يعشق الأجوبة العتيقة، في حين أن السؤال الأصيل، الصادر عن وعي أصيل بالواقع، ليس له أي إرتباطات بأي إعتبارات قبلية سابقة له.

ولهذا، فإن السؤال في جوهره اعتراض مستمر من قبل الوعي ضد كل محاولة يراد بها إعطاء أجوبة نهائية ومغلقة.

ولذلك أبت الفلسفة إلا أن تجعل من «السؤال» محور تأملاتها، فالفلسفة لا تبدأ إلا حينما يقلع العقل عن الإنشغال بالأجوبة دون الأسئلة. ومن هنا، في وسعنا أن نقول، إن الفلسفة يجب أن تبقى مخلصه لذاتها. فليست للفلسفة أجوبة تحيا خارج الزمان، بل أسئلة حية هنا والآن. وهكذا، كان محاكاة الكون بأسئلتنا، والإشتباك النقدي معه، تدشين لوعي جديد، وتجذير لفعل السؤال بما هو خدش لعلامات استهتام أصيلة، لكل ما هو ثاوي خلف الواقع المجهول. هذا الخدش هو الهجس الأنّي لإنتصارالسؤال في لحظة هشاشتنا النفسية. فالسؤال وقح، ومزعج، ولذلك فإن إطلاق صراحه، يفضي به إلى نتائج لا ترضي الجميع، من هنا كان لجم السؤال، لجم لكل جديد.

أجل، إن مهمة الفلسفة اليوم هي خلق «السؤال»، غير أن هذا الخلق لا يكون من عدم، وإنما من تتّح الوعي نحو الإشتباك بالموضوع، وهذا ما عبر عنه هوسرل في حديثه عن قصديّة الوعي. إن الأمر يتعلق في الحقيقة بإعادة وعي الوعي المتشكّل، عبر السؤال عنه، وقد يكون في بعث الحياة في الأسئلة القديمة الأصيلة، أو طرح أسئلة جديدة كل الجدة. إن ولادة السؤال في لحظة الإنتماء إلى الحاضر، وانهمام الذات في فعل الحدث، تجعل منه سؤالاً أصيلاً محايثاً لفعل الإبداع، ضمن سيرورة الواقع.

فالتساؤل لصيق بطبيعة الإنسان، ولأنّ الإنسان هو الكائن الوحيد من بين جميع الموجودات، المتساؤل عن سبب وجوده، والذي لا يكفّ عن إثارة الأسئلة، وإعادة طرحها في كل مرة يشعر بها بمأزق وجودي وحضاري ينتظره؛ كان عليه البدء بالسؤال، فالسؤال بداية جديدة لفعل التفلسف، وتجربة وجودية فريدة للذات السائلة في حضرة الدهشة، وثمره للوعي النقدي، ومظهرًا من مظاهر الإبداع، أو قل هو بداية البحث الفلسفي المبدع، والمدخل لإنجاب خصوصية التفلسف.

فالذات التي تحررت من الأجوبة القديمة عبر أسئلتها الملتصقة بالواقع الحاضر ذاتاً أصيلةً. السؤال تفكيك للأجوبة القديمة، من أجل إعادة الاجابة عنها. من هنا، كانت الأسئلة الحقيقيّة تأمل للذات التي انفتحت على كل إمكانيّاتها القصوى، ليصبح مسار الوعي هو مسار الأسئلة الأصيلة. ولذلك إن حدوث هذا الإنكشاف للمجهول، يمكن أن يتحقق عبر إمتلاك الذات السائلة للسؤال الحقيقي. فإشتباك الأسئلة مع الواقع يحيل الذات إلى وجود حر، إلى داخل مدار الرؤية الواقعية الأصيلة للحاضر، وعندها تكون الأجوبة المعطاة هي فقط من صنع علاقتنا بهذا المعيش.

هنا يصبح بإمكاننا القول، إنّ الذات لا تخرج عن صمتها، وتتكشف عن وعيها، في أي لحظة من لحظات حضورها، قبل السؤال. فالسؤال كشف، وهو يعطي للوعي أفسى أنواده، ففيه يتفتح الوعي وينفجر ويتحرر من عزلته القصريّة التي شكّلته قبل ذلك.

السؤال هو القلق الناجم عن مواجهة مشكلات الحياة، وهو أيضاً تفتح وإثراء لإمكانات الوعي. والوعي الذي لا يستجيب لحدث الدهشة، وعياً مسكيناً هامشياً، لا يملك سبب تشكّله الذاتي. الذات الحرة تفرح باستدامت السؤال، من دون الإلتزام بالأعراف والعادات والتقاليد وثقافة البنية المجتمعيّة. إنها الذات التي ترفض أن يتم التكرار لأنويّتها الحرة وحققها في التساؤل. فالذات التي تملك موضوع وعيها هي الذات التي تبدأ السؤال. هذا التصور لمفهوم السؤال يؤسس لوعي نضاليّ ضد كل محاولة متعالية تحاول قولبتنا بأجوبة جاهزة.

إن موضوع الفلسفة الأول هو البحث في مشكلة السؤال؛ ولا شك أنّه ليس ثمة مشكلة يمكن أن تكون أشد خطورة بالنسبة إلينا من مشكلة السؤال الذي يملك مسبقاً أجوبته. ولهذا، ليس بدعاً أن نجعل من هذه المشكلة مركز تفكير فلسفي.

ولكن الفلسفة التي دأبت على إثارت المشكلات، ما كانت لتأخذ «السؤال» على أنه قضيّة مسلّمة، بل سرعان ما جعلت «السؤال» نفسه مشكلة. وراحت تسأل عن طبيعته وأدواته وغايته وقيّمته الإستفهاميّة، وتعيين حدوده وتحديد معالمه.

فمن خلال السؤال تتجلى قدرة الإنسان على البحث والإبداع والتحليل فهو نشاط مباشر لإنتفاع الذات العارفة على الظواهر والأشياء.

والحال هذه، يصبح الفيلسوف هو العقل الذي ينتج الأسئلة الكلية الوجودية وبالتالي المفاهيم، للوصول إلى ماهيّة الأشياء، الفيلسوف يسأل ما الخير ما الشر، يبدأ دائماً سؤاله بما، والسؤال بما هو سؤال عن الماهية. يقول كارل ياسبرز: «إنّ الأسئلة في الفلسفة أكثر أهميّة من الأجوبة، وكل جواب يغدو سؤالاً جديداً»¹.

الفيلسوف ينظر إلى العالم بإعتباره موضوعاً إشكاليّاً يحتاج إلى الشرح والفهم، ولغز

يحاول تقديم أجوبة عنه، ولهذا نجده يستغرب من كل شيء، ولا يعتاد على كل شيء، كي لا يفقد فعل الدهشة، ولهذا يجعل كل شيء محل تساؤل، من هنا الفيلسوف وحده يمتلك الشجاعة على القيام بهذه المهمة الخطيرة، متجاوزاً كل المسلمات، بعكس غالبية الناس التي تعيش وتموت دون أن ترى أي ظاهرة تدعو لفعل الدهشة والسؤال؛ وحدهم الفلاسفة ايقظوا في الانسان فعل السؤال.

نستنتج من كل ما تقدّم، أنّ الفلسفة هي الكشف عن السؤال الحقيقي، والسؤال الحقيقي هو فاعلية العقل في امتلاك الواقع.

ثانياً: السؤال الحقيقي والسؤال الزائف (في أنماط العلاقة بين السؤال والجواب)

ليس من شك في أنّ الإنسان منذ مغامرته الأولى مع الطبيعة، قد بدأ كائنًا فضوليًا بطبعه، يجب دائماً التعرف على المحيط؛ والطبيعة لا تفعل شيئاً ضد ذاتها كما يقال، ولذلك أخذ يطرح على نفسه الأسئلة. والسؤال أول خطوات المعرفة والدليل على تفكير الإنسان. وبإمكاننا أن نعترف بأن الأجوبة الصحيحة تكمن في الأسئلة الصحيحة، والتي تتجلى من خلالها، بل وتستمد قوتها ومشروعيتها من خلال صدقها أو زيفها، والتي تنطلق من متن المشكلات الواقعية لتعود إليها. وهكذا يقوم السؤال بمهمة تحرير الأجوبة العتيقة من سطوة البنى التقليدية الزائفة، فالسؤال الصحيح هو الوجه الصحيح للجواب الصحيح في أغلب الأحيان. وهنا يصبح للسؤال قيمة معرفية كبرى. فكلما تساءلنا كلما عرفنا، وإنّ عدم التساؤل يولد الجهل. والإنسان المتسائل أكثر معرفة، وأكثر اكتساباً للمعارف. هنا يصبح السؤال بداية ضرورية للمعرفة، إذ لا معرفة حقيقية من دون تساؤل حقيقي.

ويبدو لنا إنّ ما يميّز سؤالاً عن سؤال آخر هو المرجع المعرفي (التفكير الخرافي، التفكير الأسطوري، التفكير الفلسفي، التفكير العلمي) الذي ينطلق منه السائل. وبما أن الفلسفة وحدها تنفرد بخصوصية الإعتناء المعرفي بالسؤال الأصيل، وتمييزه عن السؤال الخاطئ والزائف، كان علينا بداية التحقق من سلامة السؤال. ولأنّ الفيلسوف أكثر الكائنات وعياً وتيقظاً، وذهنه متفتّحاً لكل ما حوله، كانت روحه تساؤلية وترفض التسليم بأي سؤال معطى دون فحصه وتمحيصه. ولذلك فإنّ العودة إلى السؤال اليوم، ضرورة يفرضها فشل ثقافة الأجوبة.

لا فرق بين وجود السؤال الأصيل وأجوبته الممكنة، فالأسئلة الصحيحة تقول ذاتها في هذه الأجوبة؛ لأنّ الذات في لحظة السؤال، تكون في حالة حرج وحيرة ودهشة تجاه مشكلتها، وهذا يعني إنّها منشغلة في البحث عن الأجوبة الممكنة التحقق. وما ذلك إلا

لأنّ السؤال إستفهام، إستعلام، قصدي، شكي يبحث دائماً عن الممكنات القابلة للظهور. السؤال الجديد المنفتح على الوجود يجعل من الجواب محايت للآن الحاضر، أما إذا كان السؤال من خارج لحظة الحدث في الحاضر سيكون السؤال زائفاً. ولهذا السؤال الحقيقي يجعل من الذات حاضرة في العالم، وهنا يمكس السؤال على إمكانيّة الأجوبة الحقيقية في الواقع. من هنا، كانت حاجتنا للبحث عن السؤال الحقيقي، بما هو حاجة قبض وتأسيس للأجوبة الواقعيّة، والإنفتاح على الراهن والممكن. فالسؤال الحقيقي خروج عن المألوف وعن التعطيل القصديّ لفضل الذات في الحاضر.

غير أنّ هذا لا يعني أنّ السؤال ينتهي عند الجواب، بل ينساق نحوه دون أن يكونه، أو يقف عنده، ولو انه ينتهي عنده لانتهت استمراريّته. هذا هو طبيعة السؤال، ينزاح نحو النسق ويكسر كل الانساق، فالجواب الذي يقتل السؤال، جواب ميّت.

وهنا نسال، ما السؤال الزائف؟ وما السؤال الأصيل؟ وما الحدود التي تفصل بينهما؟ بداية لا بد من الإشارة إلى أنّ كل سؤال يتكوّن من صيغة «إستفهاميّة» و«مضمون معرفي». والصيغة الإستفهاميّة هي أن يبدأ السؤال ب«ما»، وينتهي بعلامة استفهام «؟». والفرق بين السؤال الزائف والسؤال الحقيقي فرق في المضمون، فلو سألنا: هل يجوز اصطياد حوريّة البحر؟ فصورة السؤال صحيحة بدأت بأداة الاستفهام «ما»، غير أن مضمونه زائف، لأننا افترضنا وجود حوريّة بحر في الواقع. بينما لو سألنا: هل يوجد في الواقع لمثل هذه الحوريّة؟ لكان السؤال صحيحاً، لأننا نسال عن حقيقة وجود هذا المخلوق. ولهذا نرد دائماً، السؤال الصحيح يتضمن نصف الإجابة، أما السؤال الزائف فإجاباته إجابات زائفة بالضرورة، مهما عظم الجهد المبذول في تحرّي الجواب.

ولهذا، يعتبر السؤال الفلسفي من أهم أدوات فعل التفلسف، لإرتباطه الوثيق بكل الأدوات الأخرى كالتأمل والدهشة والشك.

والسؤال الفلسفيّ سؤالاً إشكاليّاً، يتحول إلى أداة معرفة، نحاول من خلاله أن نفهم، أن نعرف، أن نكتشف، حقيقة العالم والظواهر المحيطة. ولهذا السبب يتخذ السؤال طابعاً إشكاليّاً، بمعنى لا يكون سؤالاً واحداً، إنّما هو سؤالاً يفتح على أسئلة عديدة، تتربط وتتشابك وتتقاطع وتتفرّع فيما بينها، ليتوصّل إلى أجوبة بصورة منطّمة، دقيقة، ومنطقية، وهذه هي فلسفة الفيلسوف.

ومعنى أن السؤال الفلسفيّ سؤالاً إشكاليّاً، هو أنّ الإشكاليّة هي مجموعة الأسئلة الفلسفيّة التي تثير المشاغبة، والإرتياب، والمخاطرة، والحيرة، وعدم الإستقرار، والأجوبة فيها تبقى ملتبسة وتحتمل الإثبات والنفي معاً، ودائمة الإنفتاح على كل طرح جديد، وهي تربط

المعرفة بالراهن والواقع، بعيداً عن أيّ أجوبة معطاة سلفاً، وهذا ما ينفي الطابع القدسيّ عن المعارف الفلسفيّة، بحيث أنّ البحث فيها لا يكتفي ولا يقتنع بحل واحد. من هنا كانت الحاجة إلى فلسفة السؤال، من أجل التفكير في السؤال، الذي بدوره يجدد أجوبته كلّما دعت الحاجة إلى ذلك.

نستنتج من كلّ ما تقدّم، أنّ السؤال الزائف ملئ بالأوهام، وبالتالي الجواب الصادر عنه فارغ من أي إمكانيّة واقعيّة جديدة لجواب حقيقي، لأنّه يتضمّن وجود أشياء كاذبة. هنا يصبح السؤال الزائف إعاقة لسيرورة التقدم في إمتلاك الحقيقة الواقعية بالفكر. نصل هنا، إلى تحديد السؤال الحقيقي. ما السؤال الحقيقي: هو السؤال الذي يستهدف بيان إمكانيّة جواب واقعي بالضرورة، وهذا هو السؤال الأصيل. فلو سألنا كيف يمكن الوقاية من وباء الكوليرا؟ سؤال حقيقي، قد يجاب عنه إجابة خاطئة، كأن نقول إنّ أصل هذا الوباء ناتج عن فيروس، في حين أنّ الإجابة الصحيحة هي أن هذا الوباء مرض بكتيري عادة ما ينتشر عن طريق الماء الملوّث، وقد يجاب عنه إجابة زائفة كأن يقال أن الشفاء من الكوليرا تتم عن طريق قراءة تعويذة على رأس المريض. فالفرق بين الجواب الخاطئ والزائف، هو أنّ الأول قد يكون فرضيّة علميّة لم تتحقق بعد بالتجربة، أما الثاني فهو زائف لأن الإعتقاد بهذا نوع من العلاج غير صائب.

وأسارع للقول أن الأجوبة المتعدّدة، هي فروض ممكنة، ومعرفة مؤقتة، وإمكانيّة واقعيّة لسؤال حقيقي، والسؤال الحقيقي منتج للفروض الحقيقيّة الواقعيّة الممكنة التحقّق. هنا يتحوّل السؤال الأصيل إلى فضح كلّ الأنساق، وتمزيق كل الحجب، وتعرية للأجوبة عن طريق الحوار والاحتجاج السلمي. ولذلك هو دائم الانفلات من اليقين والحقيقة والموروث، والركود التاريخي للوجود الإنسانيّ. لقد عطلت فاعليّة السؤال من خلال هيمنة البنى العتيقة على الوعي المنفتح، من أجل تدجين الذات الفاعلة ومنعها من النقد وعدم التحريض على الانعتاق من عبودية الأجوبة الجاهزة. هنا يصبح الدفاع عن حرّيّة السؤال في مجتمع الأجوبة الجاهزة هو بمثابة ولادة جديدة للإرادة الفاعلة في التاريخ الحاضر. ولهذا السبب فإنّ البحث عن ماهيّة السؤال مقدّمة للوصول إلى منهج في السؤال. فالذات وقد جعلت من السؤال موضوعاً للوعي، تجازف من أجل تحطيم المعارف التقليديّة، وتخوض معركتها التحريريّة للأجوبة من خلال السؤال.

لنضف هنا بعض الملاحظات حول علاقة السؤال بالجواب في الثقافات التي يحكمها الوعي الجمعيّ، والأنظمة السياسيّة الشموليّة المستبدّة، والأيديولوجيّات الأصوليّة والديكتاتوريات القمعيّة على إختلاف أنواعها؛ ففي هذه المجتمعات تكون الأجوبة الزائفة هي التي تحدد

طبيعة السؤال، بمعنى إننا نضع الجواب ومن بعده نسأل السؤال. هكذا نلاحظ أن هذه الأجوبة الجاهزة لا تعطي فرصة لحياة جديدة، لأن السؤال وحده من يوقف هذه التوترات، وخطورة السؤال تقوم على فضح تلك المنظومة وفضّها. هنا يتحول السؤال إلى تابوه في نظر تلك المجتمعات الراكدة، لأنه يهدم أصنام التخلف والرجعية والطائفية الحاكمة العنيفة.

وهنا نقول، لا يمكن أن تنتقل من هيمنة هذه الأجوبة إلا بعد تفكيكها بأدوات السؤال لماذا؟ وكيف؟ وما؟ وهنا علينا تعزيز ثقافة السؤال، ضد كل من يمتلك أيديولوجيا يقينية دغمائية لا تقبل الشك، والذي يعتقد أن أفكاره ومعارفه هي ثوابت، وبالتالي فالسؤال بما هو فحص وتمحيص، لا بد له أن يززع هذه الثوابت واليقينيات. فالسؤال خلخلة وهدم وإعادة تركيب وبناء لأفكار بمنطق عقليّ ومنهج نقديّ من أجل الكشف عن زيف اليقينيات في الثقافات المسيطرة، وتحويل النسق الأيديولوجي إلى أسئلة مفتوحة لا حدود لها. فالسؤال لا يراهن على الجواب بل يحول الأجوبة ذاتها إلى أسئلة. إن عدم الإعراف بوجوب التعامل مع الإجابات الجاهزة من حيث هي معرفة قائمة وأزلية، هو ما يجعل السؤال الفلسفي مرتبطاً بطابع تاريخانيّ.

بعد كل ما تقدم نقول، أن السؤال الجديد هو الذي يؤسس للإجابات الجديدة، بعيداً عن الثقافة المسيطرة، من أجل إشتقاق رؤية جديدة للعالم، تتوافق مع الإنفتاح على الجواب الجديد، وترفض الأجوبة القديمة الراكدة، حيث يصبح السؤال سبب للوضع المتغيّر باستمرار نحو الأمام.

تحتاج هذه المحاولة إلى جرأة كبيرة لإقتحام مناطق الوعي الأصولي، وثقافة التعصب الذي حوّل الوعي إلى وعاء أجوبة، مليء بألغام الأجوبة المسيطرة وسياساتها. ولهذا فإنّ تفكيك هذه البنية بمعمل السؤال، للمطلق المستمر وخلخلته من أجل تقويضه، والإحتجاج به في وجه التقليد، إحتجاج أصيل لفعل الوعي مقابل الزيف المؤسس لوجودنا. ولهذا فإنّ كل من يحاول أن يتصدى لهذه البنية وخلخلتها ونقد ثقافتها، يجب أن يتخذ من السؤال الموضع لتشريح هذه البنية الدغمائية وتحطيمها، دون أي عائق أو حاجز يمكن أن يحد من حريته في هذا التفكيك.

السؤال الفلسفي يراهن على أن المعرفة لا ينبغي أبداً أن تنتهي إلى نسق مغلق بأي وجه من الوجوه. وبالتالي العمل على سلب الأجوبة وهم حقيقتها الكاذبة المستندة إلى حقائق مطلقة رائثة تحمل تناقضها الواضح؛ من أجل الوصول إلى سهولة تقويضها وإظهار تهاويها الذاتي، مما يمنح هذا السؤال بعداً تفكيكيًا، هنا يلعب السؤال دور القوة التدميرية

التي تفرض على الأنساق المغلقة، أن تبحث على أسس بديلة وقويّة، ومن هنا فائدة هذا العنف الرمزي الذي يمارسه السؤال في الإجهاز على السياجات الدغمائية المكبّلة بأسيجة أيديولوجيّة داخل الثقافات.

إنّ تأسيس هويّتنا المعرفيّة الحاضرة، رهن بالسؤال الصادر من قلب الواقع، وجوابه الكامن أيضًا في الواقع، بل حتى الأجوبة في الفلسفة هي عبارة عن أسئلة جديدة، لا تلبس أن تتحول إلى طرح جديد، دون أن تركز إلى الأجوبة نفسها، وهذا كلّ لا يمكن أن يحصل دون إزالة كل الحواجز التي تفصل بين السؤال والواقع الراهن.

وتماشياً مع هذا المنطق يصبح من الواضح، أهمية إستحضار البعد الزمني للمعرفة، ولأنّ هذا البعد لا ينتهي ويظل على الدوام منفتحاً، فإنّ كل المعارف ملزمة بالخضوع لحيوية التغيير والنسبية.

والحال هذه إنّ من مميزات السؤال الحوار الذي يجعل باب المعرفة ممكنة، وباب التفكير مفتوحاً، وعدم الإقتناع بالأنساق المغلقة التي لا تقبل الرأي المخالف والإنخراط في مشروع إكتساب المعرفة الحقة. فثقافة الأجوبة روح عدمية، إنها روح ميّنة غير مبدعة، ولا تعمل على بناء صروح جديدة للمعرفة، والذات المبدعة الحرة هي روح السؤال النقدي، بل إنّها المؤشر اللصيق بنزعة السؤال. لذلك إنّ فتح المجال أمام هذه الروح يؤديّ إلى عقلية منفتحة قابلة للنمو، بعكس إغلاق النوافذ أمامها، والتي تؤدي إلى عقلية منغلقة مكتملة سلماً.

والحق يقال، إنّ كلما زاد حظ الإنسان من الدهشة والتأمل وطرح الأسئلة كلّما بدا له الوجود أكثر تكتّفاً. وإبداع الفيلسوف يكون في طرح الأسئلة، وليس في اعطاء الأجوبة. فالبدائية من السؤال بما هو محرّك الفكر بالدرجة الأولى، ولهذا فإنّ القدرة الإستفهامية مهمة جداً في تكوين المعرفة العلميّة والفلسفيّة، أي القدرة على التساؤل. فالمجازفة والشجاعة غالباً ما تظهر في طرح الأسئلة.

بهذا التوتر الايجابي للسؤال وهذا التمرين القاسي عليه، الذي ندعو لحظات فض وتهايوي وتفكيك للأجوبة العتيقة والراكدة، يسعى السؤال إلى البحث عن أرضية أكثر جذرية وأكثر علمية ومنطقية في تبرير وجوده وفعاليّته وحضوره الأخاذ. ففي السؤال حياة للعقل، وتصنيمه في الأجوبة التي تفرض عليه، ولهذا فالأسئلة هي تقدّم الذات نحو الحرية. وفي ظني أن غياب هذه العلاقة الجدليّة بين الذات الحرة، وطرح الأسئلة، غياب للوعي الإنساني تجاه العالم الخارجي.

السؤال مزعج، ومصدر الإزعاج فيه أنّه يمقت الذات الممتلئة بالأجوبة الفارغة، ويحولها

إلى ساحة أسئلة وحاجة لا تتوقف عن توليد الأسئلة الجديدة، والجواب الذي لا يثير سؤالاً جديداً ليس جواباً أصيلاً، بل شبه جواب. والسّر في قدرة السؤال على طرح أسئلة جديدة، كلما اقتضى الأمر ذلك، هو أنه يعتمد باستمرار إلى رفض الثقافة الرجعية المسيطرة الخالية من روح النقد. فالسؤال يكون عن الواقع، والإجابة الصحيحة عنه لا تكون إلا بفهم هذا الواقع، لا بإعطاء إجابات غريبة عن الواقع الذي أنتجها.

ثالثاً: نشأة وتطور السؤال الفلسفي

يتكرر في تاريخ الفلسفة القول، أنّ تاريخها هو تاريخ أسئلتها ومشكلاتها. ذلك إنّ أهميّة تتبع نشأة وتطور السؤال الفلسفي، تكمن في حقيقة بيان تلك الإنعطافات الخطيرة التي حققها السؤال في تاريخ الفلسفة. هذه التحوّلات الكبرى التي حصلت، ما كانت لتحصل على النحو الذي حصلت عليه، لولا الإنزياحات المهمة التي قادها السؤال في تحقيق تلك المهمة على مستوى موضوعات الفلسفة ومناهجها العلميّة؛ بكل أدواتها وأغراضها، من مبحث إلى مبحث، ومن مجال إلى مجال، ومن نظرية إلى نظرية، ومن منهج إلى منهج آخر، وهي التي أسّست تاريخ هذا الحقل المعرفي الطويل.

فمشكلات الفلسفة، خلال تاريخها المديد تتنوع بتنوع الأسئلة التي كانت تسم كل حقبة تاريخيّة. فمن سؤال ما الوجود، إلى سؤال ما القيم، ومن سؤال ما علاقة الحكمة بالشرعية وكيف يمكن التوفيق بينهما، مروراً بسؤال ما المعرفة؟ وما هي حدودها وطبيعتها وأدواتها وإمكانياتها؟ وصولاً إلى السؤال عن السؤال. فتارة تكون الفلسفة جواباً عن أسئلة أنطولوجيّة، وتارة جواباً عن أسئلة إبستمولوجيّة، وأخرى جواباً عن أسئلة أكسيولوجيّة، وقد تكون جواباً عن سؤال ما التاريخ ما القانون ما السلطة الخ...

ونحن لو عدنا إلى تاريخ الفلسفة، لاستطعنا أن نتحقق من أن السؤال لم يكن وقفاً على فيلسوف بعينه، بل أن فلسفة الفيلسوف سؤال وحوار ومواجهة. وليس تاريخ الفلسفة في جوهره سوى مجموعة من الأسئلة الفلسفية.

نقول ذلك، لأنّ أغلب الإنزياحات الطريفة التي حدثت في تاريخ الفلسفة، هي اختلافات في طرح السؤال الجديد. فالكائن البشري كائن متسائل بالفطرة، يستمهم عن كل ما حوله، عن وجوده، ووجود جميع الكائنات من حوله. وهو إستفهام نجده نصيفاً بالإنسان منذ طفولته المبكرة.

من هنا، كانت مواجهة الواقع بسؤال الحاضر بداية جديدة لكل فلسفة تعيش أزمة وجودها. فالسؤال الحقيقي التصاق بالوجود الواقعي المحايث. وإن وعي الحاضر المتخلف

يقودنا إلى السؤال الراهن في سيرورة المعيش، مقابل إغتراب السؤال الزائف. إن وعي السؤال الحقيقي الحاصل للذات نتيجة الدهشة الآتية لمواجهة الواقع، يحيلها إلى حضور كلي من أجل حيازتها على الأجوبة الحقيقية للواقع المأزوم والقبض على الممكن في الوجود. وهنا نحدد الفلسفة مبدئيًا بأنها أجوبة عن أسئلة كبرى في لحظة من التاريخ أو من تطور الوعي. ولهذا تتعدد الأجوبة بتعدد زوايا رؤية الفلاسفة إلى ما يعتقدونه أنه السؤال الحقيقي.

وعلى هذا النهج الذي رسمناه، تصبح التجربة الفلسفية عند كل فيلسوف، صورة تساؤل حاد، تختلف باختلاف الأسئلة الفلسفية وباختلاف مراحل التاريخ وسياقاته المعرفية. إنَّ بناء الأنساق والمذاهب الفلسفية الكبرى عبر تاريخ الفلسفة، كانت عبارة عن مشاغبة الواقع الراهن بأسئلة العصر بما يناسبه من طرح، من أجل العمل على إعادة بنائه من جديد. من هنا، كانت أهم خاصية يتميز بها الفيلسوف هو الحس النقدي، وأن النقد أخص مميزات التفكير الفلسفي، وهذا ديدن الفلسفة منذ اللحظة السقراطية، التي كانت متمحورة حول مسألة نقدية لواقع الثقافي اليوناني، ونقد الثقافة السائدة، فالتقد هدم وقد يكون بناء، فنقد المعرفة الشائعة، ونقد الفيلسوف للفيلسوف هو ما يشكّل تاريخ الفلسفة. ونضيف، أنّ هذه النماذج الفلسفية كانت متعدّدة ومتنوّعة في أساليبها وفي أطاريحها التي أنتجت عبر تاريخها الطويل.

1_ السؤال في الفكر الشرقي (السؤال والأسطورة)

عاش الإنسان الأول في فترة لم يكن فيها الهمّ المعرفي قد تسلّل بعد إلى إدراك الوجود، وعندما رغب الإنسان في الفهم أمام ما يحدث أمامه من أحداث وظواهر طبيعية، إعتد التفكير الخرافي، وهو من أقدم أنماط التفكير، الذي ظهر في المجتمعات البدائية، حيث كان العرّاف والسّاحر والمنجّم هم من يتولّون مهمّة تقديم الأجوبة عن الأسئلة المطروحة كأسلوب لحل المشكلات. وتجدر الإشارة إلى أنّ الأسئلة والأجوبة في التفكير الخرافي زائفة. ولتوضيح ذلك نطرح السؤال الآتي: كيف يمكن تجنّب غضب الطبيعة، كي نحدّ من خطر الفيضانات والبراكين والزلازل والكوارث الطبيعية؟ فالجواب عن هذا السؤال الزائف يكون بجواب زائف أيضًا، وهو عن طريق تقديم قرابين من الحيوانات أو البشر. وقس على ذلك جميع الأسئلة التي تستهدف وجود كائنات غريبة لا صحّة على وجودها كالغول والعفاريت وغيرها من الكائنات التي لا أساس علمي أو واقعي على صحّة وجودها. فالتفكير الخرافي هو التفكير الذي لا يستعمل فيه الإنسان لا عقله ولا منطقته في طرح

الأسئلة ولا حتى في صياغة الأجوبة في تفسير هذه الظواهر. وتأتي الأسطورة في المرحلة الثانية من تطوّر التفكير البشري بعد التفكير الخرافي، وهي من وحي المخيال الجمعيّ، والنتاج المعرفي للشعوب والثقافات. والعقل الأسطوريّ جزء أساسي من تاريخ تطوّر الوعي الإنسانيّ، إنّه وعي مرحلة من مراحل تطور العقل البشري، وعلى الرغم من تشابه التفكيرين، إلا أن التفكير الأسطوري أرقى من التفكير الخرافي لجهة السؤال، أمّا لجهة الأجوبة فإنّ التشابه كبير جدًا بين الحقلين.

والأسطورة مجموعة من الإعتقادات والتصورات والحكايات والقصص الخياليّة، قدمت للإنسان تفسيرًا محدّدًا حول الأسئلة التي عجز الانسان في ذلك الوقت عن فهمها وتفسيرها. فهي جواب أولي عن سؤال حول نشأت الكون وأصله، أصل الإنسان، الحياة بعد الموت، سبب الظواهر الطبيعية، كالفيضانات والزلازل والبرق والرعد، من أين جاءت... وللإجابة عن هذه الأسئلة نُسجت الأساطير حول كل هذه الأسئلة، وقدّمت الإجابات لتفسير ما يقع أمامهم من أحداث، وفقًا لنظام يقوم على وجود إله لكل شيء في العالم، بلغة تتصف بطابع أدبي وخيالي، ففسروا جميع الظواهر بردها إلى أسباب غير طبيعيّة وغير واقعيّة، هي الألهة المسؤولة عن كل ما يحدث.

السؤال روح الفلسفة، و«الروح الفلسفيّة قوة خطيرة تنتقل بالناس من عهد «الأسطورة» إلى عهد «التفكير». وعلى حين أنّ العالم في عهد الأسطورة يتخذ صورة كل عضوي موحّد، فلا يكون ثمة موضع لأيّ شذوذ فردي، أو أية أصالة شخصية، بل تكون الكلمة النهائية للتقليد، والرأي الحاسم للجماعة، نجد أنّ «العالم» في عهد التفكير يستحيل إلى جمهرة كبيرة من المشكلات، فلا تكون هناك أجهزة فكرية هائلة تسيطر على عقول الأفراد، بل يصبح من حق كل فرد أن يعيد تكوين العالم لحسابه الخاص، وأن يقيم لنفسه أنظمة خاصة من القيم أو المعايير. وبينما نجد أنّ الوعي الأسطوري لا يندّش لشيء، ولا يتعجب لأيّ أمر، لأنه يرى أنّ لا جديد تحت الشمس، وأنّ ليس في الحاضر شيء لم يكن قائمًا منذ البداية، نلاحظ أنّ نشأة الوعي الفلسفي لا بد من أنّ تقترب بعملية يقظة فكرية ينهض معها الإنسان من سبات السكون الأسطوري، فلا يرى كل شيء عاديًا أو طبيعيًا أو مألوفًا، بل يضع كل شيء موضع البحث، ويدع للقلق سبيلًا يتسلل من خلاله إلى أكثر المسائل وضوحًا وأظهرها بساطة!»².

ما يهمنا من كل ما تقدم، بيان حقيقة الأسئلة والأجوبة كما ظهرت في حقل التفكير الأسطوريّ. فالسؤال في التفكير الأسطوريّ قد يكون أصيلًا وقد يكون زائفًا، أمّا الإجابة فحكمًا زائفة وفق منطق الاسطورة. فرد حوادث الظواهر إلى أسباب خارج إمكان الوعي،

يحوّل الوعي عائق أمام التفكير الصحيح.

فالسؤال عن أصل العالم سؤال طرحه الفكر الأسطوري، كما طرحه الفكر الفلسفي والعلمي على حدّ سواء، وهو سؤال جد مشروع، ويحتل إجابات عديدة علمية وأسطورية. غير أن الإجابات التي قُدمت في حقل الأسطورة كلها إجابات زائفة، وقس على ذلك جميع الأسئلة والأجوبة التي قدّمها المخيال الأسطوري الجمعي.

والفرق بين التفكير الخرافي والتفكير الأسطوري هو أن الأولى لا ينطلق من سؤال صحيح وكذلك الجواب المقدم عنه، أما التفكير الأسطوري، قد يكون سؤاله في بعض الأحيان سؤالاً صحيحاً بينما الجواب خاطئ.

كل هذه الأسئلة وما شابهها، التي طُرحت في حق التفكير الأسطوري، دفعت لتوسّل إجابات لا عقلانية عليها، فالوعي الزائف وإن انطلق من أسئلة صحيحة، فإنّه لن ينجب إلا أجوبة زائفة.

2_ أسئلة الفلسفة اليونانية

تم محاولة الفلسفة اليونانية عن تجربة فلسفية أصيلة، جاءت ثمرة لرحلة البحث عن المعرفة التي بدأت مع الحضارات الشرقية القديمة: البابلية والفرعونية والفينيقية وغيرها... وتعدّو الحضارة اليونانية أرض خصبة حيث نبت فيها السؤال الفلسفي الأصيل. لقد مارس الفيلسوف اليوناني التفكير الفلسفي بأدوات الفلسفة: التأمل، الدهشة، الشك، والسؤال. فالانتقال من السؤال الخرافي والأسطوري إلى السؤال الواقعي تطوّر معرفي.

لا بدّ إذن من التأكيد على أنّ العقل البشري في هذه المرحلة، قد أصبح أكثر متانة وواقعية في تفسير الكون، وأكثر دليلاً على إيقاظ الفكر من المرحلتين السابقتين عليه: الخرافية والأسطورية. فأسئلة هذه المرحلة كشفية واقعية عقلية، حيث تحوّلت المعرفة عند الفلاسفة الطبيعيين الأوائل، إلى البحث عن العناصر، من أجل الكشف عن أصل الكون، وليس عن قوة غيبية تتحكّم بالوجود. فانشغلوا بشكل أكثر موضوعية بأسئلة: كيف نشأ العالم؟ ومما يتكون؟ وما أصله؟ بأسلوب موضوعي، بعيداً عن الخرافات، من أجل مواجهة التفكير الأسطوري السائد في تلك المرحلة من خلال إرجاعهم المتعدّد إلى الواحد. وانقسم فلاسفة الطبيعة في تقديم أجوبتهم عن أصل الكون ومنشئه، في محاولات أكثر جدية لفهم العالم. فالسؤال نحو العالم الخارجي الموضوعي كان يتمحور حول كيفية رد الكثرة إلى الوحدة. هذا هو الهاجس الفكري الذي شغل الإنسان اليوناني، سؤال الأصل، أصل العالم والوجود. هذه الأسئلة الجوهرية التي تقوم عليها الفلسفة اليونانية، لتفسير الوجود الذي بدا لهم ملغزاً وغامضاً.

والظاهر أن هذا الأمر لم يكن متاحاً لولا السؤال الفلسفي الذي يمتلك قوة خطيرة لنقل التفكير من المعرفة الأسطورية إلى التفكير النقدي الحر. فالسؤال تحرير العقل من الأساطير والخرافات والأوهام، هذا التحرير بدأ عندما شرع العقل في الأشتغال بالسؤال. هنا تظهر جدّة السؤال بما هو محاولة مهمة في تعقل الوجود، وقد حاولت الفلسفة اليونانية البرهنة على أن هذه الأساطير لا يمكن الإطمئنان لها والوثوق فيها، فيما تتجه من معرفة تجاه القضايا المطروحة.

لقد بدأت مواجهة الفكر السطوري الذي كان سائداً مع طاليس، الممهّد الأول للفلسفة في القرن السادس ق.م. ويعدّ طاليس أول من شكّل قطيعة معرفية مع الفكر الأسطوري الذي كان يقوم على الأوهام، حيث ولدت الإرهاصات الأولى للفكر الفلسفي. وأية ذلك أنّ الفلاسفة الطبيعيين أرادوا فهم العالم فهماً عقلانياً، فهم أول من بدأوا يخصّون الطبيعة والحوادث الطبيعية بالإهتمام أكثر من أي شيء. هنا بدأ يتحرّر الفيلسوف بالتدرج من التأثير الخرافي والديني والأسطوري، بإتجاه الفكر العلمي والفلسفي. كما تكمن أهمية طاليس في أنّه أجاب عن سؤال أصل العالم بالرجوع إلى العقل وحده دون الآلهة والأساطير، وحرّر التفكير الأغرقي في بواكيره الأولى، من الخرافات والأساطير، وفتح المجال للأسئلة الجديدة. حتى أصبح بإمكانك أن تسأل بكل حرية، وأن تناقش كل الأفكار. فتجد تعدد الإجابات بين الفلاسفة الطبيعيين، انطلاقاً من زوايا الرؤية لكل منهم. فما هو أنكسيمانس بعارض طاليس، وأنكسيمندرس يعارض أنكسيمانس، واختلفت آراء هرفليطس عن بارمينيدس وأمبادوقليس عن أناكساغوراس، في محاولتهم لفهم الكون دون آلهة وأساطير. وتبعاً لذلك تنوّعت إجاباتهم عن أصل العالم بين الماء والهواء والنار والتراب... وهنا يصح القول، أنّ الفلسفة ولدت في اللحظة التي بدأ فيها العقل البشريّ بالسؤال عن الوجود والكون، كما أنّ الفلسفة أصبحت هي السؤال الذي يقصد به إدراك الحقيقة بالعقل. هذا هو جوهر الفلسفة، لكن لا يمكن إدراك الحقيقة إن لم ننطلق من هدم الأوهام الموجودة، من هنا كانت الفلسفة سؤال قلق من أجل نقد الأوهام.

حقاً إنّ أول شيء أضافته الحضارة اليونانية إلى البشرية أنّها أسست العلوم تأسيساً نظرياً، بعدما كانت العلوم تطبيقات، أي إنّها أعطت للعلم طابعاً نظرياً، فتأسس علم المنطق والرياضيات وعلم الطبيعة وما بعد الطبيعة.

فالسؤال منذ اللحظة الأولى كان يمثل المغامرة والخطر. طرحوا أسئلة ذات طابع فيزيائيّ طبيعيّ علمي؟ ما أصل الكون؟ لم يعودوا يقتنعون بأجوبة الأساطير، فبدأوا البحث بالظواهر الطبيعية لمعرفة أصلها، وهم بذلك أول من زعزعوا التفكير السائد.

في هذه المرحلة من عمر الفلسفة اليونانية اتخذ البحث منحىً طبيعياً فيزيائياً في تحديد الوجود بإرجاعه إلى علّة ماديّة.

الانتقال من مجال الاسطورة (الميتوس)، إلى مجال الفلسفة (اللوجوس)، إنتقال من السؤال والجواب الزائفين عن أصل الكون، إلى السؤال والجواب الحقيقيين.

والواقع أنّ السؤال الذي اهتم به اليونان، لم يُطرح عند الحضارات الشرقية القديمة بنفس الصيغة، لأن الجانب الديني والثقافي لم يكن مهياً. ومعنى هذا أن السؤال لم يكن لينجح إلا في وجود أرض خصبة، تقبل التعدد والإختلاف، وهذا ما كان ليحصل لولا أن المجتمع لا يؤمن بالاختلاف، والديمقراطية، والتعدد. أي أنّ السؤال لا يمكن أن يحيا وينمو إلا في مجتمع ديمقراطي.

إذا السؤال الذي أرق الحكماء الأوائل، سؤال الوحدة والتعدد، هل هناك وحدة أم تعدد؟ ومن هذا السؤال تأسست الفلسفة الأنطولوجية.

حقاً إنّ الفلسفة اليونانية بدأت تبحث عن أسرار الوجود ضمن الوجود، وليس بعيداً عن الوجود، وهذا النمط الجديد في التفكير، الذي ينطلق من الطبيعة وينتهي إلى هذه المعقوليّة الواقعيّة، بغض النظر عن طبيعة الأجوبة التي قدّمت في تلك المرحلة إذ كانت صحيحة أم خاطئة.

لقد مهدت هذه الإرهاصات الأولى في تاريخ الفلسفة اليونانية إلى حصول تطوّر كبير في طرح السؤال مع سقراط، حيث انصرف في سؤاله من السؤال عن الطبيعة إلى السؤال عن الإنسان، من السؤال عن أصل الكون، إلى السؤال عن الأخلاق والسياسة، بمنطق عقلي قوامه العقل ولا شيء غير العقل، ولهذا يقال دائماً أن سقراط هو أوّل من أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض، وأدخلها إلى صميم المدن والبيوت.

لقد كرّس سقراط حياته في طرح التساؤلات، فالحياة عنده بلا تساؤلات لا تستحق العيش. والملاحظ عند سقراط قدرة الإنسان على طرح الأسئلة. والبحث عن الحقيقة عنده لم تعد من خارج الذات، أي من طرف الآلهة عبر الكهنة، حيث كان الكاهن وسيط بين الآلهة وبين البشر، بل أنّ الإنسان هو نفسه ينطلق من ذاته ليستعمل قدراته العقلية، كي يكتشف حقيقة الوجود المحيط به. ونحن نعرف كيف كان سقراط يستخدم منهج « التهكم والتوليد»، في حوار ساخر لتوليد الأفكار من خلال زعزعت القناعات الثابتة عند شباب أثينا. فالثوابت قد تكون أوهام، ولهذا فإنّ طرح الأسئلة خلخلة لتلك الثوابت عند جمهور الناس، وهذا معنى قوله « إعرف نفسك بنفسك».

ولعل هذا ما جعل مجمل اهتمامه أن ينصب على الإنسان، ولذلك كان سؤاله، عن الأخلاق

والسياسة والإقتصاد وليس عن قضايا أخرى مثل الفلك والطبيعة، لأنّ الإنسان عنده مقياس كل شيء.

هكذا مهد سقراط في إستعمال السؤال، من أجل إكتشاف الحقيقة في ذاتها. هذه اللحظة التأسيسية كان لها كبير الأثر على تاريخ الفلسفة فيما بعد.

لقد عاد السؤال الأرسطو بعد سقراط إلى الوجود، عند كل من أفلاطون وأرسطو، فظهرت مشكلة الوجود المفارق عند افلاطون، والمحايث عند ارسطو.

وتميّز أفلاطون بسؤاله عن المثل الكلية الخالصة المحضة، لذلك كان سؤال أفلاطون البحث في المحسوس من أجل الوصول إلى الماهيات المجردة، كبثته عن ماهية الانسان، ماهية الحصان، ماهية الشجرة... الخ

اختلفت أسئلة أفلاطون عن أسئلة تلميذه أرسطو. أفلاطون يسأل عن الكلي بينما سؤال أرسطو تمحور حول الجزئي والحسي والمتغير. سؤال أفلاطون عن الذات والوجود والمعرفة والمثل والماهيات المجردة، سؤال عن الطبيعة والنفس والأخلاق والميتافيزيقا. لقد تحوّلت الفلسفة معه إلى نشاط روحي، يبتغي المعرفة والحكمة لذاتهما لا لمنفعة مادية، فالفلسفة حب للحكمة لا لشيء آخر يمكن أن تتحصل منها. وبهذا يقدم لنا مثالية نمط العيش الفلسفي أودها في كتاب الجمهورية. فالفلسفة عنده ممارسة جدلية تبتغي إيصال الفكر إلى عالم المثل المفارق لعالمنا المادي، لأنّ هدفها الأسمى البحث عن الصور والمثل والماهيات، أي عالم المثل أو الكليات الأزلية التي يفصح عنها عالم الحس إفضاحاً ناقصاً، من هنا، كان سؤال أفلاطون سؤالاً ماهوياً. هذا العالم الظاهر الحسي الزائف عن أفلاطون، سيتحول السؤال عنه عند أرسطو إلى سؤال حقيقي، يجب البحث فيه والكشف عن طبيعته وحدوده. ولهذا فإنّ إنتقال السؤال عن المفارق إلى المحايث، هو إنتقال من البحث في عالم المثل إلى البحث في عالم الطبيعة المادية. وهو عالم حقيقي عن أرسطو وليس عالماً زائفاً كما ذهب أفلاطون، فالسؤال عن العالم الجزئي والمتغير هو مجال البحث في فلسفة أرسطو.

3_ العصر الوسيط بين أسئلة الفلسفة وأسئلة اللاهوت

على الرغم من المحاولات الحديثة التي قامت بها الفلسفة الوسيطة، في البحث عن تأصيل نظرية في المعرفة والأخلاق والسياسة، إلا أن السمة الغالبة عليها ظلّت فلسفة توفيقية، أي التوفيق بين الفلسفة والدين أو العقل والنقل. تمتد هذه الفترة من سقوط الامبراطورية الرومانية في القرن الخامس الميلاديّ حتى عصر النهضة في القرن السادس عشر.

وجاءت هذه الفلسفة لتملاً الفراغ الفكري والنظري في تلك الفترة. حيث قدّمت هذه الفلسفة رؤية كاملة حول الكون والخلق والحياة والخالق في إطار صبغة دينية في فلسفتها. ولهذا فإنّ الأسئلة التي طرحتها الفلسفة الوسيطة في شقيها المسيحي والإسلامي، أسئلة لاهوتية، للتوفيق بين الفلسفة والشريعة، حيث بدأ الفكر البشري يصطبغ بالأديان الجديدة، وكانت مهمة الفلسفة آنذاك هي أن تؤيد بالدليل العقل ما سلمت به النفوس بالإيمان الذي لا يقبل ريبة ولا شكاً. فعالج القديس أوغسطين رائد الفلسفة المسيحية في العصور الوسطى، التوفيق بين مشكلة العقل والنقل، مشكلة المعرفة، مشكلة الألوهية، مشكلة العالم والنفس والأخلاق والسياسة. وتأثر بالأفلاطونية المحدثة ومن أبرز أقواله أنا أوّمن لكي أتعمل، وجهد توما الأكويني للتوفيق بين آراء أرسطو والتعاليم المسيحية، وكذلك فعل القديس أنسلم.

أما الكندي والفارابي وأبن سينا، وابن رشد، على الرغم من ما قدّموه من فلسفة أصيلة، في كونيّة الحقيقة كما فكر بها الكندي واكتشفها، وهذا الأمر لم يعرفه اليونان أنفسهم بل عرفوا الكلي بالمعنى المنطقي والعلمي، والفارابي الذي فكّر في إشكالية الملة، وابن طفيل مكتشف القصص الفلسفية، أما ابن رشد فهو أول من اكتشف الإستعمال العمومي للعقل. أقول على الرغم من كل ذلك، إلّا أنّ السمة الغالبة على الفلسفة في العصور الوسطى هو المنحى التوفيق.

فبالإضافة إلى مشكلة التوفيق بين الفلسفة والشريعة وهي مشكلة أساسية، واجهتهم مشكلة خلق العالم وهي مشكلة لاهوتية، ولأن الرواية الدينية في خلق العالم لم تقنع الفيلسوف، فقد إستعان بنظرية أفلوطين الفيضانية، من أجل استبدالها بفكرة الخلق من العدم. فاعتقدوا أنّ العقل قد وعى ذاته، ففاض عنه عقل ثان على أنه واجب الوجود بغيره وهكذا دوليك حتى نصل إلى خلق العالم...

هكذا نجد، ارتباط فلسفة العصور الوسطى ارتباطاً وثيقاً بالفكر المسيحي والإسلامي اللاهوتيين. فأغلب أفكار هذه الفترة دينية لاهوتية اتسمت بالحديث عما هو ديني لاهوتي ميتافيزيقي مرتبط بالذات الإلهية والبحث عنها. إنّ الفلسفة في هذه الفترة لم تتحرر من اللاهوت في معظم موضوعاتها التي انشغلت بها، اللهم إلّا في نظرية المعرفة وعلم السياسة والإقتصاد. من هنا كانت الأسئلة الأساسية في العصور الوسطى تدور حول التوفيق بين الفلسفة والدين، وهي أسئلة زائفة، وكذلك الأجوبة التي قدّمت عليها. فالفلسفة في هذه الفترة تابعة للعقيدة، ولم تعد تبحث عن المعرفة لذاتها بل لخدمة العقائد الدينية، حيث أصبح كل جهد الفلاسفة التوفيق بين الفلسفة والدين، بين العقل والنقل حيث أصبح

الإيمان شرطاً ضرورياً للعقل.

أما علم الكلام فهو اللاهوت الإسلامي الذي ناقش صفات الله، خلق القرآن، قدم العالم، الجنة والنار، التسيير والتخيير، علم الله، وهذه كلها موضوعات لاهوتية منهجها الجدل في حين أن الفلسفة حقلها البرهان. ولأنّ السؤال الحقيقي هو السؤال الذي ينطوي على امكانية جواب واقعي، بقيت تلك الفلسفات خارج حقل الممكن.

4_ الفلسفة الغربية والسؤال الفلسفي المحض

الفلسفة الغربية الحديثة، محاولة أصيلة وجادة، في تخليص العقل الغربي من كل ما علق به من تعاليم الكنيسة، للوصول إلى معرفة أساسها العقل ولا شيء غيره. فمعها - أي الفلسفة الغربية - لم يعد الإستناد إلى أي مرجع خارجي، بل أصبح المرجع الوحيد للمعرفة الذات العاقلة العارفة القادرة على التفكير الحر، دون الرجوع إلى أي تعاليم غيبية مهما عظم شأنها. وهنا تم الانتقال من مركزية الله إلى مركزية الإنسان.

والحق يقال، أن الفلسفة الحديثة فلسفة نقدية تعنى بمشكلة المعرفة، أي أن السؤال الأراس الذي طرحته هو سؤال عن المعرفة، لا السؤال عن الوجود. وليس معنى هذا أن الفلسفة الغربية لم تكن بسؤال الوجود، بل إنّ المبحث الأساسي لها مبحث المعرفة، سؤال عن طبيعة المعرفة وحدودها وإمكانياتها. ماذا يمكنني أن أعرف؟

لقد حاول ديكارت تسييد الإنسان على الطبيعة مستخدماً في ذلك منهج التأمل العقلي، ووضع لهذه الغاية: «مقال عن المنهج»، «مقالة الطريق»، «قواعد لتوجيه الفكر»، وتبعه في ذلك ليبنتز وسبينوزا. وقدّم فرنسيس بيكون المنهج التجريبي الإستقرائي، في كتابه: «الأورجانون الجديد»، حيث أحدث ثورة علمية كبرى متجاوزاً في منهجه الجديد القياس الأرسطي العقيم، وسار على نهجه كل من جون لوك وديفيد هيوم.

وتمحور مشروع كانط في كتابه نقد العقل المحض، حول تعيين حدود اشتغال العقل، وما وراء هذه الحدود يصبح قول العقل غير مشروع، ولهذا سأل ما الذي يمكنني أن أعرفه؟ ما الذي ينبغي أن أعمله؟ وما الذي أستطيع أن أمله؟ فوضع العقل تحت مجهر التحليل في كتابه الشهير «نقد العقل المحض»، من أجل معرفة قدراته.

ويبدو أن الإهتمام بالمنهج بما هو قواعد لإجتنب الخطأ والإهتداء إلى الحقيقة، من أجل القبض على الطبيعة في الجانب المعرفي منها، جعل العقل الأساس في بنیان الحداثة، وهذا ما أدى فيما بعد إلى ظهور الثورة الصناعية، والثورة العلمية.

لقد كانت الفلسفة الحديثة حتى هيغل، فلسفة نقدية تعتمد على العقل فقط، حيث بدأت هذه الفلسفة تهتم بمشاكل الإنسان المعرفية وخدمة الإنسان، لتجعل من أنفسنا سادة الطبيعة وملاكها، بالإضافة إلى تخليص العقل من الآراء السائدة والمسبقة من أجل الوصول إلى الحقيقة، ولهذا عادت إلى مصدر آخر هو الذات الإنسانية، لذلك قيل هي فلسفة ذاتية، أحدثت زعزعة في المنظومة الفكرية الأوروبية، وأصبحت معها الحاجة إلى بناء نظام معرفي جديد أمرًا ملحقًا للذات في الكشف عن الحقيقة.

لقد بدأ العقل يطرح أسئلة جديدة حول إمكانية المعرفة وحدودها وطبيعتها، وما الغاية منها، وما هي أداة المعرفة؟ هل هي العقل، أم الحس، أم الحدس، أم التجربة، أم المعرفة المطلقة؟

وهذا يدل على أن الفلسفة ليست تأسيسًا للأجوبة بل هي البحث عن الأسئلة الأصلية من أجل التأسيس لوعي فلسفي لا يقبل من المعارف إلا الصحيح منها، من أجل إزالة الزيف عمّ هو قائم، انطلاقًا من حالة الدهشة التي تعترى الذات في علاقتها مع الموضوع من أجل امتلاكه.

هذه النهضة القائمة على مرجعية العقل، بدأت بسؤال ديكارت في «الأنا أفكر»، صاحب أول نسق فلسفي متكامل، حيث بنى نظرية متكاملة و متماسكة في المعرفة والميتافيزيقا والأخلاق، متوسلاً في ذلك قواعد المنهج الذي قسمه إلى أربعة مراحل: قاعدة الشك والبداهة، قاعدة التحليل، قاعدة التركيب والتنظيم، قاعدة الاحصاء والمراجعة الشاملة. أما المنهج التجريبي فهو منهج «يكون»، القائم على إستقراء الوقائع والتخلص من وهم القبيلة والكهف والمسرح والسوق، وتبني لهذه الغاية قواعد المنهج الإستقرائي، حيث أن التجربة هي الأساس لكل معارفنا، ولا وجود لشيء إسمه الأفكار القبليّة أو الأوليّة كما ظنّ «ديكارت»، بل أن العقل صفحة بيضاء، وبناء على ذلك، فإن جميع المعارف مكتسبة وليست فطرية والتجربة مصدر جميع الحقائق عند الانسان.

وتجدر الإشارة، إلى أن فلسفة كانط كانت ثورة على الإتجاهين الأساسيين الذين حكما الفلسفة الغربية، الإتجاه العقلي (ديكارت)، والإتجاه التجريبي (بيكون). فالمعرفة عنده تبدأ بترتيب مدخلات الحس الواردة إلينا عن طريق التجربة، عبر المقولات الفطرية من أجل حصول الفهم والمعرفة.

هكذا نلاحظ، أن الأسئلة التي طرحتها الفلسفة الغربية في مجملها، أسئلة أصيلة نابعة من علاقة الفكر بالواقع. فسؤال النهضة الأوروبي أسس للحداثة، وبالتالي الإنزياح من مركزية الله إلى مركزية الإنسان، ومن مركزية الإنسان إلى فكرة الذاتية والفرديّة

والحرية... وهذا بوره أسس لإمكانية الإجابات التي لم تخرج عن الواقع الطبيعي، ولهذا هي إجابات واقعية مهما اختلفت صحتها من عدمها.

5_ أسئلة الفلسفة العربية الحديثة والمعاصرة

نصل الآن إلى البحث عن طبيعة السؤال في الفلسفة العربية الحديثة والمعاصرة، ولنتساءل بادئ ذي بدء، إلى أي حد استطاع الفيلسوف عندنا مساءلة الواقع؟ أو بعبارة أخرى: هل يكون في وسعنا أن نعثر على أسئلة أصيلة في إنتاج فلاسفتنا منذ عصر النهضة العربية؟ وأسارع للقول، إنه ليس أفسى على النهضة من أن يقال عنها، إنها ضلّت سؤالها. فالسؤال العربي ما زال سؤال خام، بكر، لم يُطرح بطريقة جذرية حتى اليوم. بإمكاننا الآن أن نمتحن طبيعة السؤال النهضوي الذي حكم إنتاجنا الفلسفي العربي منذ عصر النهضة. لقد طرح شكيب أرسلان السؤال الآتي: «لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟»³.

إنّ صدى سؤال النهضة «الزائف» منذ التيار الإصلاحية الذي يضم، رفاة الطهطاوي، جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، محمد رشيد رضا، والتيار الليبرالي، المتمثل في كل من أحمد فارس الشدياق، فرح أنطون، شبلي شميل، سلامة موسى، طه حسين، وزكي نجيب محمود وغيرهم... لم يدفعهم إلى البحث في كيفية ظهور الحداثة في العالم العربي، بل بحثوا عن أسباب الحداثة الغربية، ولهذا ولّى التيار الأول وجهه شطر الماضي، يبحث فيه عن ما يمكن أن يكون سبباً في إعادة إحياء أمجادنا الماضية، في حين إتجه التيار الثاني نحو الغرب لتبني تيارات الحداثة الجاهزة، من أجل تطبيقها في عالمنا العربي!. والسؤال الآن، لماذا السؤال العربي حول النهضة كما طُرح في صيغته «الأرسلانية»، سؤال زائف؟ السؤال زائف لأنه سلب لماهية السؤال، فهو لم يكن في الدقة المطلوبة التي تحاكي أزمة الواقع العربي، من أجل إنجاب خصوصية الجواب عن الواقع المأزوم، بل هو سؤال يسأل عن أسباب تقدم الغرب، وليس عن أسباب تخلفنا! ولهذا عاد التيار الإصلاحي إلى الماضي من أجل البحث فيه. في حين إتجه التيار التغريبي إلى الغرب، فوجد الحداثة في تبني قيم العلم والفرديّة والمدنيّة والديمقراطية.

سؤال النهضة كما طُرح، يدفعنا للبحث عن أجوبة الحداثة الأوروبية (التيار التغريبي)، وهذا لا يختلف عن البحث في التراث من أجل توسل أجوبة لتخلفنا (التيار الإصلاحي). في حين أن السؤال المطلوب لوضعنا المأزوم، هو السؤال الذي ينطلق من واقعنا، بوصفه شعوراً بالنقص، وبالتالي كيف نتحوّل إلى سيرورة دائمة ولا نهائية في البحث والتأمل

والتجاوز والرفض. السؤال الواجب طرحه: ما النهضة؟ ما التقدم؟ ما الواقع؟ هل نحن الغرب؟ هل معرفة أسباب تقدّم الغرب كافية لتقدمنا؟ هل البحث في عوامل تقدم الغرب وبالتالي تبنيها يسهم في تقدمنا؟ إن البحث في أسباب تقدم الغرب، يقودنا إلى فهم تقدمهم وليس تقدمنا، ولهذا فإنّ إشتغال مفكرينا بسؤال شكيب أرسلان، منذ مطلع القرن العشرين لم ينجب أيّ نهضة عربيّة، سواء بالتوجّه إلى الغرب، أو بالرجوع إلى التراث. من هنا، نحن نعتقد، إنّ تصحيح السؤال مقدّمة ضرورية لإعادة طرح موضوع الحداثة عندنا. في خضم هذا الوضع الحرج للواقع العربيّ، يتحول السؤال الحقيقي، إلى أداة لفضح السؤال الزائف الذي طُرح علينا منذ عصر النهضة العربيّة. فالتخلص من تخلف الراهن يكمن في قدرة الذات على إمتلاك ما خفي عن الواقع، هنا يصبح بيان زيف سؤال النهضة، تشخيص حقيقيّ للوضع الراهن الذي لم يتغير منذ بداية ممارستنا لسؤال لشكيب أرسلان.

من هنا نرى إنّ واقعنا المأزوم يفرض علينا المباشرة في إقرار التزام وعي الواقع انطلاقاً من السؤال الفلسفي. فلا يمكن التفلسف بأسئلة زائفة، الفلسفة الأصيلة تبدأ بسؤال أصيل، وهذا يبدأ بالضرورة من وعي الحاضر. الفلسفة الأصيلة تتبع من السؤال الحقيقي، من وعي الدهشة الذي ينتج أسئلة وليس أجوبة جاهزة.

الحداثة ليست مجرد تبني لأراء جاهزة كما يظن، بل هي لحظة في الوعي تتقاطع فيها عوامل كثيرة. إنّها عمليّة تاريخيّة طويلة مليئة بالحروب والنزاعات والثورات، بالإضافة إلى قيام جملة من القطاعات المعرفيّة مع المعتقدات اللاعلمية والتي لا تتأسس على بنيان معرفيّ وعقلانيّ، ومع الأنظمة السائدة والمتعالية، كالأنظمة الأبويّة والأصوليّة والشموليّة والأيديولوجيات على مختلف مسمّياتها، ومن الثورة على الثقافات البالية، من أجل إنجاز ثورة على الفكر الراكد، ونزعة علميّة صناعيّة حضاريّة، تستجيب لمتطلبات اللحظة الحاضرة. وإذا كان هذا كلّه مطلوب، فإنّ المطلب الأول ينطلق من تحديد الأسئلة الواقعيّة، والتي تنتج أجوبة من قلب الواقع، لا من واقع الماضي المختلف كل الإختلاف في سياقاته التي لم تعد نفسها سياقات اللحظة الراهنة.

السؤال اليوم يجب أن يبدأ مع إحداث قطيعة مع سؤال النهضة، لا مع تبنيّه وتقديم الإجابات عنه. فالقضية الحقيقيّة تتطلب تغييراً في طرح السؤال القديم، واستبداله بسؤال حقيقيّ صحيح يعبر عن واقع العرب الراهن. وهذا ما يفسّر لنا بقاء النهضة العربيّة نهضة مزعومة، حيث بقيت الأفكار المطروحة في واد، والواقع المهترئ في واد آخر.

إن أزمة النهضة تكمن في وعي السؤال، فدون وعي السؤال بالواقع والتقدم والنهضة

والإنسان... لا يمكن أن نتج نهضة. لذلك كان يعوزهم الوعي الفلسفي بالواقع، من أجل القبض على ما وراء الواقع المسؤول عن حالنا. فالنهضة العلمية والصناعية والتجارية، وتطوير البنى التحتية وكل مظاهر الحضارة، ليست هي السبب الرئيسي في النهضة، بل هي ثمرة للنهضة في الغرب، ولهذا لم يستطيعوا تأسيس خطاب في النهضة. والحال إن استيراد المناهج الغربية التي جاوا بها في لحظة واحدة، حيث ظهر الإتجاه المادي مع شبلي الشميل، والوجودي مع عبد الرحمن بدوي، والوضعية المنطقية مع زكي نجيب محمود، والشخصانية مع الحبابي... وقالوا هذه هي الحداثة. وهنا نسأل: هل صنعت هذه المناهج أي نهضة؟ إن فشل المشاريع الفكرية العربية، سببه بالدرجة الأولى عدم القبض على ما خفي خلف الواقع العربي، والذي بقي في حيز المسكوت عنه حتى وقت قريب. فبناء مشروح الحداثة يجب أن يبدأ من السؤال عن الراهن، أي عن علاقة السؤال المطروح بعصرنا الراهن، من خلال تفتح الوعي العربي على مشكلات الحاضر الآن وهنا. لقد ورثنا عن سؤال النهضة الزائف إشكالية الأصالة والمعاصرة، هذه الإشكالية العقيمة التي لم تؤدي إلى أي نتيجة نهضوية. لقد أسرفنا في التعامل مع هذه المشكلة والتي بدورها أنتجت التيار التوفيقية، الذي لم ينتج بدوره أي مهمة حضارية بل جل ما قام به الجمع بين التيارين: التيار الإصلاحية والتيار التحديثي. إن التخبط في هذه الإشكالية والتي لا تعد مسألة ذات أهمية كبيرة في فكرنا المعاصر، جعلتنا ندور في مكاننا حتى يومنا هذا، فاستيراد مشكلات غيرنا وتبنيها، لا تحل مشكلاتنا بل تزيدها تعقيداً وعمقاً.

خاتمة:

إن تدشين المرحلة المقبلة يجب أن تبدأ من البحث عن السؤال الحقيقي للأزمة العربية الراهنة، والذي يضعنا وجهًا لوجه في مواجهة الحاضر، حقل إشتباك الوعي مع الواقع المأزوم. هذا الإشتباك الذي يضعنا بدوره في سياق تاريخية المعرفة وواقعيتها الأصيلة. وهذه سمة أساسية لإنجاب خصوصية التفلسف في العالم العربي. حيث أن كل سؤال أصيل هو إمكانية محتملة لظهور فلسفة جديدة. من هنا رأينا ضرورة تجديد الأسئلة التي نطرحها، بعيداً عن المعارف الأسطورية والدينية والسياسية المعطاة سلفاً للوعي التي شكّلتها، وهنا نسأل: كيف يمكن أن نسأل عما هو معروف من قبل؟!!

إن من شيمة السؤال الفلسفي، الانفلات من المألوف، والمحايثة مع المشكلات الواقعية التي أنتجته، ونبذ الأجوبة الجاهزة المعطاة سلفاً. فالسؤال الذي يبحث في الحاضر ينتج جواباً جديداً، وما ذلك إلا لأن السؤال تصويب مستمر نحو الحاضر.

الصراع الحقيقي اليوم يجب أن يبدأ بين استبعاد الأسئلة القديمة والعتيقة التي تحمل أجوبتها سلفاً، واستبدالها بالأسئلة الجديدة التي تتأسس على العلاقة بين الفكر والواقع. ولا شك إن هجس الفكر العربي في الحداثة جاء نتيجة أزمة الراهن، غير أن الأسئلة المطروحة لم تكن على القدر الكافي من أشكلة الحاضر بأسئلة نابعة من مشكلات غيرنا. فالسؤال الحقيقي هو الوعي الذي يقيم علاقة دائمة بالواقع لإمتلاكه من أجل فضّه وإعادة تشكّله للوصول إلى معرفة كليّة، عن طريق خلق الأجوبة الجديدة. إنّ أصالة هذا التنظير وتحديد غاياته بدقّة، وإلمامنا بطبيعة السؤال_المشكلة، يجب أن يجتاح الفكر الفلسفيّ في تجلياته الأكثر راهنيّة.

الهوامش:

- 1 - كارل يسبرز، مدخل إلى الفلسفة، ترجمة: جورج صدقني، مكتبة أطلس، دون تاريخ، ص51.
- 2 - زكريا إبراهيم، مشكلة الفلسفة، مكتبة مصر، ط3، 7691، ص97.
- 3 - الأمير شكيب أرسلان، لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟ الناشر: مؤسسة هنداي سي أي سي، دون تاريخ.

لسانيات النصّ وتجلياتها في فنّ القصة القصيرة - حوارات بين لغة النصّ وتقنيّات السرد ومجالات التأويل.

علي ناصر الدين

أستاذ جامعي

مقدّمة

لقد برزت اللسانيّات في أواسط القرن العشرين بغرض تعديل النظرة العلميّة والعمليّة تجاه الدراسات الأدبيّة والإنسانيّة. وعلى الإثر اجتاحت الوصفيّة مسار الدراسات الأدبيّة، واستقلّت اللسانيّات بحسبانها معلماً منهجياً للدراسات الأدبيّة والمنتجات اللغويّة، وقد شقّ أعلام اللسانيّات طريقهم نحو مختلف الحالات اللغويّة، فكانت دراسة الأصوات والتراكيب والدلالات والنحو والصرف، ثمّ وصلت الأمور إلى مقارنة فقه اللغة، وباتت للغة فلسفتها الخاصّة، حتّى بات مصطلح «فلسفة اللغة» موازياً لمفهوم فقه اللغة، وهكذا تعدّلت الأدوات وأصبحت أكثر معاصرة في هامشها التطبيقيّ.

وكحال المعارف اللغويّة التي ذكرناها آنفاً، كان للنصّ نصيب وافر من الحركة التطوّريّة اللغويّة، وعلى فلسفة الدال والمدلول والمفاهيم العرفانيّة التواصليّة نشأت نواة الدراسات النصّيّة، وكان للأليّات اللغويّة كافّة أن تخدم النصّ، على أساس أنّها البنى الصغرى التي تؤسّس البنية النصّيّة الكلّيّة، أي إنّ دراسات الظواهر اللغويّة المتوافرة في نصّ ما مفكّكة، هو السبيل للوصول إلى العمق التواصليّ التي تحمله النصوص، أي البنية الكبرى والفحوى التواصليّة التراسليّة التي تؤمّنها الدارة التراسليّة بعد

الشروع في مقارنة النصّ عامّة. تستفيد اللسانيات النصّية من الأعراف وتحاول دمجها في اللغة، وهكذا تتولّد الحمولات المعرفيّة اللازمة فيه من خلال ما توحىه لغته. ومن هنا كانت نظريّة «لغة النصّ» أو «نصيّة النصّ» ملاذاً للدارسين الذين وجدوا فيها مشغلاً نقدياً مساعداً أو مسهماً في معالجة الشوائب التقليدية أو القصور المعرفي الذي كان يحكم دراسات النصّ وتحليله في السابق، «ينطلق علماء الألسنية في تحليلهم للنصوص من اعتبار الكلام الأدبيّ، مجموعة منظّمة من الجمل لها وحداتها المميّزة، ولها قواعدها ونحوها ودلالاتها»².

وإزاء هذه الحالة من النموّ أو النشوئ النصّي كانت هذه الإشكاليّة المنقسمة إلى مسائل متعدّدة لتقود إلى هذا البحث، والمسائل مرتّبة على النحو الآتي:

- ما أوجه التقاطع بين النصّ كلسانيات عامّة تواصلية والوجه السردّي له؟
 - إلى أيّ مدى يستنفر النصّ القصصي لغة تخالف الأنظمة السائدة في اللسانيات النصّية وذلك من حيث خصوصيّتها اللغويّة؟
 - كيف يبدو المتلقّي الذي يتأرجح بين التأويل ومشاطرة النصّ في التلقّي، على قاعدة أنّ القصة مستلّة من الواقع اليوميّ المعيش؟
- وقبل تقديم الإجابات عن هذه التساؤلات، من المفيد تسويغ منبنياتها في شؤون تنظيريّة تقضي إلى التطبيق.

أولاً - قراءة الأثر الأدبيّ بين التقليد والتجديد.

لقد تسلّلت مفاهيم القراءات الأدبيّة الحديثة وازدهرت عالمياً، ثمّ توسّعت وتشعبت لتشهد مزيداً من التطوير بما يدلّ على أهمّيّتها واعتمادها من لدن تيارات الأدب المعاصر، والأقطار المهتمّة بتطوير جهازها الأدبيّ. وبطبيعة الأحوال وصل ركب اللسانيات النصّية إلى العالم العربيّ، وبدأ يتسلّل إلى الجمود الفكريّ الذي كان يسيطر على العرب، وكانت من الخطوات الجريئة نسبياً، إذ إنّها شهدت رواجاً مطرداً ومتسارعاً، وإنّ حافظاً على حذره النسبيّ، ولكنّ نتائجه والخلاصات التي وصل إليها كانت دليلاً على جدواه، فشرع النقد الأدبيّ العربيّ يعتمد الإجراءات اللسانية في خضمّ تحليله العمل الأدبيّ.

وبطبيعة الأحوال كانت مجموعة من المييزات أو الخصائص التي حدّدت الظاهرة النصّية، وهي من الأساليب التحليليّة التي تحاول تيسير التحليل اللسانيّ على الراغبين، على أنّ أبرز المسائل التي تركّز النظر فيها أو حولها، كانت المسألة الدلاليّة التي تولّد النواة التواصلية، حيث تسود المعرفة المجتمعيّة معالم النصّ، فلا بدّ للنصّ أن يرضخ إلى ذائقة المتلقّين وثقافتهم أو اهتماماتهم حيث يُلقى، وإلاّ فإنّه يجافي حينئذ المنطق

المعرفي للسانيات النصّية، «انطلقت فرضية اللسانيات المعرفية في دراستها للغة من التركيز على الترابط بين الشكل والمعنى، فاتّجهت إلى التّصوّر الذي يرى أنّ اللغة تعكس الأنماط العامّة للتّفكير، وتعكس الوظيفة المعرفية للغة، كما تعكس البنى التي تنظم هذا التّفكير»³، وهذا ما يثبت حتمية الركون إلى الجوانب المعرفية لتتوازي اللغة مع مدلولاتها بما يصبّ بمصلحة الناس التواصلية.

وهكذا غدت اللسانيات ومقارباتها التواصلية من المسائل المجدية التي تؤمّن المعارف الثقافية اللازمة لاستقرار النتائج وإيجاد الجدوى أو المعنى من الأشياء، ولا سيّما النصّ الأدبيّ بأجناسه كافّة، «تمثّل اللغة منطلقاً ومرتكزاً لتأسيس المفاهيم الأساسية في التناص والحوارية والبوليفونية وغيرها، وللكيفية التي تتشكّل بها الخطابات وتتبيّن أدبيّاً واجتماعيّاً، وللطريقة التي تتمايز بها الأجناس الأدبية»⁴.

لطالما شغل النصّ الأوساط التي تتصدّى إلى مقاربتة من وجهة إنسانية عامّة، وكان من صميم اهتمامات الباحثين في مجالات الأداب، فلنصّ عندهم اهتمام خاصّ من حيث نوعه وصيغته ولغته وتراكيبه وصرفه ونحوه والأصوات المتوافرة فيه، على أن تجتمع هذه الجزئيات في كلفة واحدة لتشكيل النصّ.

وقد سادت في الفترات السابقة نظرة ضيقة تجاه النصوص، وكان يُكتفى بتحليلها حضاريّاً أو اجتماعيّاً أو نفسياً أو جماليّاً كحدّ أقصى، ولطالما أخذت أساليب النقد تحويرات كثيرة، من مثل النظرة المعيارية التي سادت الأوساط الأدبية والتحليلية، في العصور السابقة عن القرن العشرين، وغالباً ما كان النقد يتخذ شكلاً معلباً جاهزاً معيارياً تجاه نصّ من النصوص، فيجد المتأمل النصّ قد اتخذ شكل الهوية المُسبّقة بمعزل عن الفوص في تفاصيله ومكوناته أو وضعياته الحقيقية، فقد كانوا يأخذون التحليل على الشكل الخارجي، أو النسق الطباعي، أو اسم المؤلّف أو بلد التصدير والإنشاء التعبيريّ للنصّ، ويبنون النتائج على هذا الأساس، وهذا ما أضرّ بقيمة النصوص وفحواها وقيمتها الإنسانية المرتجاة.

لم يدم هذا الوضع طويلاً حتى وردت الدراسات اللسانية مع قدوم القرن العشرين، فغيّرت من مسار الأمور وألغت النظرة المعيارية على حساب النظرة الوصفية، وأخذت تقدّم طروحات التواصل وإلزاميته في أيّ مدونة تحمل لغة واضحة، وعليه فقد تغيّرت أساليب النظر إلى النصوص وتحليلها ونقدها باعتماد تقنيات وخصائص مغايرة للتيار السابق، أي قبل ورود النظرة الوصفية، « لو كان بالإمكان أن نحيط بمجموع الصور اللفظية المختزنة لدى جميع الأفراد لضبطنا ذلك الرابط الاجتماعيّ الذي تتكوّن منه اللغة. إنّه كنز مودع

عن طريق ممارسة اللفظ لدى جماعة من الأشخاص المنتمين إلى مجموعة واحدة، ولا وجود للغة على الوجه الأكمل إلا عند الجمهور»⁵

ثانياً- النظرية النصّية ولادة أم تناسل؟

ومن هذا المنطلق برز العرف السائد الحديث وأهل الأجواء لانبثاق ما يُعرف بالنظرية النصّية، أو اللسانيات النصّية، على قاعدة الانتباه إلى ما يحمله الجمهور القارئ أو المتلقّي للغة من خصوصية اجتماعية وعوامل ثقافية وظيفية، تسهم في تنشئة دارة اتصالية بين اللغة وجمهورها، فاللغة نسق مفاهيمي يتواضع عليه الناس لتيسير أغراضهم، وما النصّ إلا مدعى من مداعي التيسير هذا، ومنه تنطلق الأسباب والأمور الدلالية التي حثّت على ابتكار نصّ ما لإيجاد اللازم من الشيفرات التواصلية التي تعين في التحليل والنقد واتخاذ المعايير اللازمة للحكم على نصّ من النصوص.

ولمّا كانت الأمور النظرية بالنسبة إلى النصّ تعتمد، وبشكل إلزامي، على مجتمع ومتلقّين يتلقّفون المرسلّة ويترجمونها لاتخاذ مواقف أو معارف أو مدعيات للنقاش، وجب النظر إلى النصّ بحسبانه صورة تفسيرية، أي التواصل القائم على تفسير ما يُعرض أمام المرء وتأويله، وفي هذا سبيل للوصول إلى المعنى المروم من النصّ، وسرعانما أخذت هذه الموجة التنظيرية زخمها في العالم العربيّ وشقّت طريقها بعد أن عانت، وما تزال، من عراقيل ثقافية ومعيارية «وطوال قرن التأصل كان على مبدعي تلك الأنواع ونقادها السعي إلى مجابهة التحديات الثقافية والاجتماعية التي كانت تحول دون استقرارها في الثقافة العربية الحديثة، وكان التأصيل بوصفه سعيًا إلى تثبيت الأنواع الجديدة في المجتمع والإبداع العربيّ»⁶.

ومن هذا الباب يتخذ التواصل شكلاً نفسيريًا واضحًا لفكّ النصوص الأدبية وتشفيراتها وإيجاد المقتضى المعنويّ اللازم فيها، وهو ما يحفّز المتلقّي، ويضيف قيمة مضاعفة إلى النصّ ومهاراته الاتصالية، ويبعث على تناسق فكريّ عميق يدعم الثقافة العامّة ويحفّزها، «وإذا كنّا نعلم أنّ كلّ معرفة من المعارف، تترافق مع ترسيمة تأويلية تلازمها، فإنّ هذا ليكون لأنّ هذه الترسيمة تعمل على مستوى جهازنا الإدراكيّ من جهة، ولأنّ كلّ تأويل هو في الوقت نفسه وليد تاريخه، وزمنه، ونموذجه، وقيمه من جهة أخرى»⁷

تستخدم الأسنوية إقامة الفرضيات عبر ملاحظات محدّدة ومؤقاة احيانا. وهكذا نصل إلى إقرار نظرية معينة.

ولأنّ فلسفة اللغة النصّية كانت لسانية المصدر، فلا بأس من ذكر أكثر الأمور قوننةً في المسار اللساني. فلا بدّ من اعتماد التجريد في الأبحاث اللسانية: أ— يلاحظ بعض

الأبحاث و المعطيات اللغوية، مركزا على التشابه بينهما. ب- يصوغ بعض التعليمات المستنتجة. ج- يصوغ افتراضات تُفسّر الأحداث. د- يشدّد على الواقع اللغوي فيقوم بملاحظات جديدة تلائم الافتراضات. هـ- تفسير عمل اللغة بنظرية عامة. و- يعتمد نظريته هذه لوصف قضايا اللغة و تفسيرها.

ثالثاً- النظرية النصّية معايير وتقنيّات.

ترفض الألسنية المعطيات اللغوية، فهي تنطلق من فرضيات، لا بُد وأن تطابق برهان المعطيات اللغوية، لكي تثبت النظرية. ولو شئنا إيجاد صلة وصل مشتركة بين النصّيات وخصائص الألسنية، لبدت أمامنا القواعد الآتية: التماسك والترابط: اللغة وحدة متكاملة قائمة بحد ذاتها، متماسكة تماسكاً ذاتياً. الوضوح المنهجي والاقتصاد في عرض القواعد: لا بد من تحديد المعايير والأساليب والقواعد المبسّطة. الشمول واستنفاد القضايا اللغوية: استخدام الأنموذج، فالمادة لديه محدودة بنصوص يستنبط منها الإفتراضات.

الموضوعية: لا بد للإفتراضات أن تخضع إلى التجربة والتدقيق، فلا يجوز السير في أي فرضية أو تثبيتها إلا بعد معالجة دقيقة، تتسم بالموضوعية تُدعم المسألة بالبرهنة والاستشهاد لتُقبل تحت عنوان النظريات، ولا بد لها أيضا أن تلائم التحليل اللغوي، إذ إنّها تُفسّر ضمن منهاج مُفصّل توضيحي، يتماشى مع الطبيعة التحليلية اللغوية فأى لغة، لتتقبّل أي فرضية، لا بُد أن تقيسها على وضعيتها التحليلية اللغوية حيث يمكن أن تجد إمكانية لقبول الفرضية عرفاً أو نظرية.

هذه الخصائص تجعل الألسنية علما حديثا يساير العلوم النصّية، فاللغة مجردة وقائمة بذاتها. وعبر هذه المنهجية يُمكننا الوصول إلى تحليلات لغوية موضوعية، خالية من شوائب المعيارية وخللها لإنتاج دراسات لغوية قيّمة على مذهب لساني قويم.

مسايرة الحدس اللغوي: لا بد للنظرية الألسنية من «متكلم-مستمع سوي» تابعا لبيئة لغوية متجانسة تماما. فمتكلم اللغة موضوع دراستها من خلال أدائه الكلامي، فلا بد إذا من الوصول للشأن الضمني للغة ومتكلمها⁸. فالإنسان الذي يتكلم لغته يحكم على جديدها من حيث الصواب أو الخطأ في التركيب. عبر الحدس اللغوي يُصدر متكلم اللغة أحكامه وهذه الأحكام، تُحوّل الباحث الألسني وضع قواعد اللغة بعد أن عرف الطريق نحو الصواب و نماذج من الخطأ.

وهكذا فمن الممكن النظر إلى النصّ الأدبيّ بحسب القيمة التي يحاول إيصالها إلى

المُتلقي، من باب القول بأنّ النصّ يتألّف من لغة مفهومة تدور في فلك موضوع محدد، هذا الموضوع يطال أحد الجوانب الاجتماعيّة الدّاخلية في صلب اهتمامات الناس اليوميّة العامّة. ومن مميّزات اللغة العربيّة تمكّنها من الاتساع والتشعب لتخدم موضوع كلامها بغير شكلٍ فنيّ أو قالبٍ إبداعيّ، فتستثمر فيها الإمكانات المتوافرة كافّة لتلبي الغرض المطلوب لكنّ بنكهة ذوّاقه رفيعة، سواء أكانت شعراً أو نثراً محكياً أو خاطرة... لا جرم في ذلك طالما الأولويّة لخدمة الموضوع وإيصاله سلساً يمَسُّ اهتمامات المُتلّقين وأذواقهم. لذلك كان النصّ الأدبيّ يبحث دائماً عن هدف واحد، هذا الهدف هو القارئ وكيفيّة جذبته للمرسله وجعله معنياً فيها ساعياً لقراءتها والتفكير بإيجابيّة صوبها، ومحاولاً بل مستعداً للتفاعل معها. « ويقع على عاتقي إذن، أن أبحث عن هذا القارئ (أن أغازله)، من غير أن أعرف أين هو. وبهذا سيكون فضاء المُتعة قد خُلق. ذلك أنّ ما أحتاج إليه ليس هو (الشخص) في الآخر، وإنّما الأمر الذي أحتاج إليه هو الفضاء»⁹. ينبغي تلزيم لغة النصّ لتصبح متداولة بحسب آراء المُتلقي، فمن الممكن لهذه اللغة ومن دون سواها أن تؤثر وتجذب وتُشكّل الباعث التفاعليّ في القارئ، خصوصاً وأنّ القارئ ابن المجتمع والبيئة ومعنيّ في مختلف الشؤون من حوله يتعامل مع المواضيع التي تعنيه بحسّ من المسؤوليّة، فكيف إذا قُدّمت هذه المواضيع بقالب أدبيّ حسن السبك فيه من الإحالات ما يُدلل على أهمّيّته أولاً، ويُعطي سبيل الوعظٍ للتعامل معه ثانياً. من الممكن حساب أن القالب اللغويّ بصيغة الأدب يتوافق مع القارئ ويمسّ شؤونه بشكلٍ ذوّاق ممتع واسع المدارك بل مُتشعب الثقافة، وإنّ المُتلقي يصل إلى ذروة المعنى حينما لا يكتفي بطرح أسئلته على النصّ وإنما حينما يبدأ النصّ يخاطبه وي طرح الأسئلة عليه، فتكون العلاقة متبادلة ما بين منتج ومتلّق ومتلّق منتج في آن، لذلك أمنت الألسنيّة بشراكة الدرس اللغويّ والبحث فيه مع مختلف العلوم الإنسانيّة على مُختلف مشاربها وتفرّعاتها لتطال اهتمامات الناس ومنطلقاتها في معاينة المسائل كافّة. وما فكرة التنمية والمواطنة مثلاً، أو محاولات الوصول إلى جوّ تغييريّ في العالم... غير جزء لا يتجزأ من هذه الفلسفة للدرس اللغويّ الحديث، فلا مانع من تطويع أفكار هذا الموضوع وإذابته في قالب اللغة الأدبيّة. ذلك لأنّ الأدب يغيّر الرؤية العلميّة تجاه المسألة ويفتح نسقها بشكلٍ جليّ يبحث عن التأثير في المُتلقي وتشويقه، ممّا يُنشئ الحافز لاستمراريّة الفكرة والمُحرّك اللازم لذائقة المُتلقي حتى يبحث عن الأهداف والدعوات الإنسانيّة في المرسله المُتناولة بين يديه.

رابعاً- بين النصّ والخطاب: كيف يستحيل النصّ خطاباً؟

إنّ النظرية النصّية باتت من النظريات التي فرضتها اللسانيات بقوة في عالم اللغة، وقد تطوّرت اللغة ولم تعد ذلك الأمر الذي يؤخذ بشكلٍ معياريّ، ومن هذا المنطلق وجب احترام الخصوصية التي يكتنزها نصّ من النصوص والتعاطي معه بحسبانه نصّاً يؤخذ على إجراءات علمية... وقد سارع أعلام الخطاب والعلماء المهتمّون بهذا الحقل التخصصيّ أن يؤطّروا معلوماته كافة ضمن مؤلّفات تنشر صدها إلى أكبر كمّ من الراغبين، ولا سيّما الباحثين، وهذا كلّه كان يحصل ضمن إطار من التنظيم والمنهج الموضح. ويجد الباحث في الأعمال الخطابيّة كتباً تنظيرية تتناول الخطاب نظريّاً منذ المنشأ مع المرور على أفق التطوّر فيه، وكتباً أخرى تطبيقية تقوم على عيّات تحليلية على النسق الخطابيّ، أو النهج الخطابيّ التحليليّ بمستوياته وأبعاده كافة، مع العلم أنّ هناك أكثر من كيفية تحليلية للخطاب، وذلك بحسب المدونة والحقل اللغويّ، أو الجنس الأدبيّ لهذا الخطاب، فهناك الخطاب الشعريّ والخطاب النثريّ الفنيّ والخطاب السرديّ... وصولاً إلى الخطاب السياسيّ الثوريّ، مع العلم أنّ الخطاب يولي الأهميّة القصوى إلى الأبعاد الإعلامية والاتصالية التي يجب أن تحملها اللغة الموجودة ضمن مدونة، أو قناة اتصالية، كي يُستحقّ موسوم الخطاب فيها.

ومن الممكن تناوّل الخطاب من باب الارتباط الذي يشهده بالنصّ، فالخطاب وليد لغة متكوّنة في نصّ أو مدونة؛ فما إن يتمثّل النصّ بوظيفته التواصلية، التي تتمحور حول مرسل من جهة ومتلقٍّ من جهة أخرى، تجمعهما ظروف معيّنة، حتّى تنتقل إلى حيّز الخطاب، لأنّ ما يفصل النصّ عن الخطاب حسب (جان ميشيل آدم)، «هو الإنجاز والأداء». فهل من ربط مفهوماتيّ أو تعريفيّ للخطاب من حيث اللغة والاصطلاح؟

ومن الممكن الانطلاق من الجانب اللغويّ في التعريف، وعلى رأي الموسوعة العالمية المعنيّة بحصر واستخلاص تعريف الغربيين، نجد فيه ربطاً بين الكلمة الانكليزية - dis-course والكلمة اللاتينية discursus، التي كانت تعني جرى هنا وهناك. وهذه الكلمة مأخوذة من الفعل اللاتيني discurrere، وبهذا الربط تدلّ كلمة الخطاب على (الجرى) من متكلّم مرسل إلى قارئٍ متلقٍّ. وعلى هذا الأساس يغدو الخطاب عملية نتاج قولية بين طرفين بغرض إصابة معنى مشترك، أمّا قاموس أكسفورد فيربط الخطاب بحقل تحليل الخطاب، فيعتبره «طريقة تحليل النصوص أو التلفّظات الأكبر من الجملة، مع الأخذ بعين الاعتبار محتواها اللغويّ، وسياقها السوسيو - لغويّ». ومن الممكن تلقّف ما أحصاه قاموس روبير الصغير le petit Robert حول دلالات المصطلح بالآتي:

- 1- عمليّة اتّصاليّة بين اثنين أو أكثر من باب الحوار أو المحادثة.
- 2- هو نطق بتركّب من مجموعة متلفّظات.
- 3- هو مهارة إلقاء القول وترتيبه كي يوحى بغرضه.
- 4- عمليّة سنناكسيّة يحصل بموجبها تألف سياقيّ بين الكلمات والعبارات بغرض إنتاج المعنى.
- وقد تعدّدت المشارب اللسانيّة التي عملت على فهم نظريّة الخطاب، فمنهم من حسب أنّ النصّ أعمّ من الخطاب، على أساس أنّه قد ينتج ملفوظاً أو مكتوباً في آن. وقد انطلقوا من هذه الاعتبارات: «بين التلاؤم مع الشكل الكلاميّ أو الترابط النصّي، وبين التلاؤم مع حالة الانسجام كما يسمّيها مارتان، لا يوجد فرق طبيعيّ، فهذان المطلبان يذكّران بقيود الاختيار التي تحدّد من إمكانيات جمع اللكسيمات (الوحدات المعجميّة) مع الملفوظات التي يمكننا اختيارها، سواء على شكل سلسلة أم على شكل مدخل، هي فقط تلك التي تنتمي إلى قائمة الملفوظات الملائمة¹⁰».
- وفي المقابل رأى لسانيّون آخرون أنّ النصّ والخطاب مترادفان، فهما وجهان لعملة واحدة، وخصوصاً إذا ما جرى وسم التحليل بدراسة السياق الذي يرد فيه المنتج الكلاميّ. وقد جرى إرساء المعادلة الرامية إلى أنّ (النصّ والسياق؛ يعتمد كلّ منهما على الآخر). وهناك أمور خارجة على السياق كأن يرتبط القول بموقف تتفاعل فيه التوقّعات والمرتكزات وهو ما يطلق عليه سياق الموقف.
- وعلى سبيل ربط العمل النصّي بالإنجازيّات من حيث التداوليّة، كان لسيرل رأي «ينتمي الأدب التخيليّ إلى فئة أخرى من فئات الأفعال الإنجازيّة. سيكون في موقف المتكلم نوع من التشويق المتعلق بالقيمة الإنجازيّة. وهذا يطابق الموقف النوعي الذي يتبناه القارئ أمام المؤلّفات التخيلية»¹¹.
- وسم النقد الأدبيّ (الأنجلوسكسوني) هذا الموقف (إرجاء الشك) suspension of disbelief، ما يشير إلى أنّ المتلقّي يرجئ بشكل جزئيّ ظنونه حيال الحيثيّة التداوليّة السرديّة، فهو يعي بثقة أن إطار التخيل هو إطار اللاوعي أو اللاواقع، ولكنّه يضمّر هذا الوعي في باطنه كي يستمتع بفعل التلقّي.
- وعلى العموم فإنّ النظرية التداوليّة ظلّت حذرة بخصوص الخطاب التخيليّ، وهذا مردّه إلى أنّ أفعال التخيل ما هي بأفعال تامّة، وإلاّ فأين إحالاتها المرجعيّة؟ فالأديب لا يعنيه كثيراً تأمين المرجع للقارئ، ولكنّ الخطاب العمليّ أو الإجرائيّ الجاد، ذلك الذي يستعمل اللغة العاديّة أو المبسّطة، فإنّه محكوم بتقديم الإيضاحات. إلّا أنّ هذا الأمر لا يلغي صفة الجديّة عن فعل الكتابة الأدبيّة، بل إنّ ملفوظات هذه الكتابة الإبداعية تفتقر الموضوعيّة

وحسب، هب أن كاتبًا ما كتب «أنّ الريح تعوي في الخارج»، فإنّه بالتأكيد ليس محكومًا بهذا الطقس أن يتحقّق كإحالة مرجعيّة واقعيّة، وبطبيعة الحال فإنّ القراء، مع اختلاف أزمنتهم وأمكنتهم، فإنّهم يدركون تمامًا هذه اللازمة، وكذا فإنّ جميع القراء يدركون أنّ «مدام بوفاري» كانت من نسج خيال «فلوبير» في عمله الأدبيّ مثلًا. إنّ الفعل الإنجازيّ هنا تظاهريّ، بمعنى أنّه إيّهام بالواقع خلال فعل الكتابة، وهذا ما يُحفّز المتلقّين على إيجاد مزيد من المساحة النقديّة حيال الإنجاز المتوهّم هذا. إذ إنّها التظاهر بالحقيقة مُعفى من أن يتحقّق بمرجع، ذلك لأنّ الكاتب غير محكوم في أدبه أن يلتزم الوقائع أو المسارد التاريخيّة ويصوّرهما كما هي.

وعلى الرغم من هذه التطمينات، ظلّ كثير من التداوليين يعتقدون بصعوبة تحليل الأفعال الكلاميّة داخل أثر أدبيّ إبداعيّ، على نسق التداوليّات وأفعالها اللغويّة، وهذا ما ثبت دحضه، فإنّ الأثار الأدبيّة من أخصب ميادين الدرس التداوليّ نظرًا إلى طاقاتها الإشاريّة والتحفيزيّة في التلقّي. فيكفي للمتلقّي أن يتلقّف شخصًا ما في الأثر الأدبيّ حتّى يتماشى معها، أو يسقطها على نفسه، أو حتّى على آخرين من دائرته الوجوديّة. وعلى هذا الأساس لا بأس من تأسس نظريّة تؤمن بإدماج فلسفة الأفعال الكلاميّة والعمل الأدبيّ.

خامسًا- العمل السرديّ معادل اللسانيّات النصيّة نحو تكامل بين الأمرين.

ولأنّ العمل ينصبّ في هذا البحث على عيّنات سرديّة بمعظمها، لا بأس من مقارنة المسألة السرديّة ولكن من وجهة «اللسانيّات السرديّة»، وتؤمّن هذه اللسانيّات بأن لا حضور للمؤلّف في عمله السرديّ، وهذا دأب سارت عليه الأمور منذ البنيويّات، بل حتّى ما قبلها، وها هي تمضي إلى ما بعدها، وهكذا يصبح المؤلّف مجردًا من العمل لضمان حرّيّة التحليل والتلقّي، ومن هنا كان الراوي حلًّا أمام المؤلّف كي يتلقّى خلفه ويمارس فعل الإبداع من ورائه، وهذا ما سبّب إشكاليّة حقيقيّة، أراوي هو المتكلّم أم المؤلّف في أعمال السرد الحديثّة؟ وعليه أصبح المؤلّف وسيطًا سلبيًّا، بين السارد والراوي الذين يتولّون أفعال القول في العمل، وما المؤلّف إلّا الأداة الكاتبة، على الرغم من الوعي الكامل بأنّه أكثر من مجرد أداة كاتبة.

لقد توصل السرديون إلى أنّ العمل الفنّي لم يعد تعبيرًا عن المؤلّف، وتوصلوا إلى أنّه لم يعد يتوارى خلف الشخصيّات، وهكذا يُطبّق المنهج البنيويّ بحذافيره، إذ عمل على نصيّة النص من الداخل بمعزل عن بيئته أو مؤثّراته الخارجيّة، وهذا ما تشاطره النظريّات السياقيّة، ومنها فلسفة «الالتزام» التحليليّة وقد سوّغتها يمني العبد بالكلام الآتي: «هكذا تنتقل من نظرية الالتزام في الأدب إلى نظرية الأدب اللامسؤول، تسقط مسؤولية الأديب،

كأنّ الكتابة في حداثتها تنتقل إلى موقع اللامسؤولية، أو كأنّ مسؤوليتها تتحدّد في مفهوم آخر هو الشهادة، [أي] شهادة الكتابة على واقعها الثقافي...»¹²

ويخفّ الغلّو النظريّ بتعسّفه عندما يكون العمل أقرب إلى السيرة الذاتية «ذات المؤلّف» وذات الراوي وذات الشخصية، بالاستناد إلى (ميثاق سير ذاتي) به يلقي المؤلّف نفسه داخل النصّ، فضلاً عن تصريح المؤلّف بكون عمله ليس تخييلًا، فيكون القصّ قصًّا عن الذات، وعندها يكون الكاتب مسؤولًا عن كلّ ما يرد في عمله»¹³.

السرد، بناءً على ذلك، ليس مادة توثيقية، لأنّه عمل ليس واقعيًا بل يقدم عالمًا متخيلاً، ومن النادر أن يتغلغل المنظور الذاتي للمؤلّف في عمله، ومن هنا أخذت تبرز نعمة (تحييد المؤلّف) والنظر إلى حضوره الفعلي في العمل بسلبية، وعندئذٍ لا ينبغي بأيّ وجه أن يدان الروائي على لغته ومضمون مادته الفنية.

وتلفت تداوليّة جملة (قال الراوي) الشهيرة عند السرديين، فهم يحسبونها حيلة ينأى بها المؤلّف بنفسه عن مسؤوليّة التدخّل المباشر في النصّ، أقصّة كان العمل أم رواية أم أي أثر، وهذا ما يسمح للروائي أن يتجنّب المسؤوليّة وأن يتحرّر بأرائه مهما كانت متزمّنة في الدين أو السياسة أو المجتمع، فالمؤلّف بريء منها والرواية هي من تكلمت بشخصها وحسب، وما المؤلّف إلّا حافظ للمخزون اللغويّ.

من دون هذه الفلسفة، كان لأبيّ تأويل أن يضع المبدع في صورة «سوء الفهم»، وهذا ما أُنغفي منه بحجّة أنّ أثره تخييل أو تجسيد ولا يجوز أن يُؤخذ على أنّه رأي كاتبه الذي يتبنّاه بالضرورة.

إنّ العمل السرديّ ليس سهلاً من حيث تأثيراته المجتمعيّة، فهي كالوعاء الذي يحتضن الأفكار والآراء ولكن بصورة الفنّ، ولا يكاد المتلقّي أن يقف على رواية ما إلّا وتلمّس فيها شيئاً من النقد السياسيّ أو الدينيّ أو الاجتماعيّ، ولا سيّما في عصرنا هذا، عصر الرواية الحديثة، وعصر التغيّرات الاجتماعيّة المطّردة، وتوق الشعوب نحو التغيّير... وهكذا يرضي المؤلّفون طموحات المتلقّين بهذا النقد المعاد صياغته بشكل سرّيّ سلس جماليّ ضمن قالب العمل القصصيّ الروائيّ، وهذا ما جنبهم المطارادات والمضايقات والاعتراضات المزعجة، وهكذا ومن منظور اللغة النصّيّة، تصبح الرواية ملعباً لنقاظف الأحلام والآمال والطموحات في قالب تواصلّي مع القواعد الجماهيرية، وبنتيجة هذه الحمولات قد يصعب عليه إخفاء شخصيّة ورأيه عن العالم، فالقضيّة النصّيّة قضيّة تواصل حيثي على أرض الواقع بالدرجة الأولى. سادساً - في التطبيق.

ولمزيد من التطبيق، هذه عيّنة مستلّة من كتاب «الرعد»¹⁴، وهي قصّة قصيرة بعنوان

«الذي أحرق السفن»¹⁵، ننقل منها بعضاً من المقاطع لضيق المقام البحثي، وذلك لإثبات مدى تقاطع العمل السرديّ في اللسانيات النصّية.

أولاً

1- الاعتقال

«الأشجار الخضراء في الشارع كفتت عن الغناء لحظة تحلّق عدد من رجال الشرطة المتجهّمي الوجوه حول رجل يمشي على الرصيف سيفاً هزماً، رمحاً متعباً، أن له أن يخلد إلى الراحة بعد انتصاره في آلاف المعارك، وابتدره واحد منهم قائلاً له بلهجة فظة: (أعطنا هويتك).» حري بالذكر أنّ الكاتب قد عمد إلى توزيع فقراته إلى عناوين متفرّعات من العنوان الرئيس «الذي أحرق السفن» وكانت أولى توزيعياته البنيوية هذه موسومة بعنوان «الاعتقال»، ومنذ بداية هذه البنية أتت مترافقة وبنى لغويّة تحاكي حالة من التوصيف وانقلاب المشهد، وقد ابتدر الكاتب القصة من الانقلاب مباشرة، فأسكت صوت غناء الشجر، أي ربيعها وربيعانها الغضّ، لينتقل بالأمر نحو تلبّد، وهذا مشهور في مدارك الناس التواصلية، عندما يودّون التعبير عن تلبّد الأجواء تجاه أمر من الأمور، أو موقف معرفي من المواقف الحاصلة، وبالفعل كان الملفوظ الفجائيّ بتحلّق رجال الشرطة حول أحد المشاة، ولكنّ هذا الرجل فيه ملامح القتال أو العمل العسكريّ، وذلك لمرافقته ملفوظات السيف والرمح والانتصار والمعارك، ولكنّه أحوج إلى الراحة الآن، أو أن يحال إلى التقاعد، وعلى الإثر تبدأ المسألة بأخذ مرحلة مواجهة، فبعد تغير الجوّ يكون الفعل، وكانت اللهجة بفظاظتها أو غلاظتها وثقلها على البطل والمطالبة بالهوية، وهذا من الأمور المسيرة لريبة الشعب عادة، إذا ما طلبتهم الأجهزة الأمنيّة بهويّتهم، فالتوقع أنّه ثمة مشكلة أو مكروه ما على وشك الحدوث.

وفي هذه اللحظة يتبادر إلى الذهن عنصر التوقع والتحفيز نحو المتابعة، من هو المعنيّ بالاعتقال، وما رابطته بحرق السفن، وما علاقة الأمر العسكريّ بالموضوع، نظراً إلى احتشاد معجم الجيش التواصلية. وتكون هذه الفقرة لمزيد من الإيضاح:

«فتقبّل الرجل لهجة الشرطيّ باستنكار، وأوشك أن يستسلم لحق عارم، لكنّه اكتفى بالابتسام باستعلاء، ومدّ يده إلى جيبه وأخرج هويّته، وقدمها للشرطيّ الذي ألقى عليها نظرة سريعة ثمّ قال متسائلاً: (أنت إذا طارق بن زياد؟)».

تتوضّح القناة التواصلية الآن بين الطرفين المتراسلين، الكاتب والمتلقّي، ويتبيّن أنّ الكاتب يستحضر شخصاً من شخوص التاريخ عند العرب، وهو طارق بن زياد الذي له باع في المعارك البحريّة وهو من عبر إلى الأندلس، والمستغرب الذي تبيّن في لغة النصّ

التواصلية أسباب لوذ الشرطة إلى القبض على هذا الرمز، أو الاستهجان عند استماع اسمه، وهو الذي ظنّ أنّهم سيكرّمونه كما أوحى النص، وكما يوحي المتلقّي باعتقاديته أو توقّعيته حيال هذا الأمر، ولكنّ الإهانة حصلت بموجب التنكّر لهذا الماضي المشرفّ المخترن في رجل، والاستهجان عند الاستماع باسمه وكأنّه قد أصبح عاراً مطاردًا لا بدّ من الإمساك والنيل منه، وهذا ما أثبته الفقرات التالية من هذا العنوان، فبالفعل يذهب الرجل إلى الاعتقال ثمّ الاستجواب، وهذا عنصر مفاجأة واضح يوّد النصّ أن يبثّه بين المتلقّين، ولعلّ الرسالة التواصلية العميقة التي يحاول النصّ إبداءها، من خلال لغة الاستهجان والصدمة والاستغراب أنّ الأمة تتنكّر لماضيها، بل تحاسبه حسابًا عسيرًا، وهذا ما يثير الريبة والقلق تجاه مستقبل أمة أهانت ماضيها بهذه الطريقة.

ثانيًا

من كتاب «الرد»، وذلك في قصّة قصيرة وهي «الهزيمة»¹⁶.

في هذه المرحلة نتلقّف بعضًا من مزايا اللغة النصّية، والتقنيّات اللسانيّة التي تعين في ضبط النصّ والوصول إلى نتائج تواصلية من خلاله، وذلك سيكون على عيّنات مختصرة من القصّة المطلوبة نظرًا إلى ضيق المقام البحثي.

«رجع خليل السامر إلى غرفته، محني الظهر، متعب القدمين، واستلقى على فراشه، وارتجف مقروراً وحيداً، ثمّ استسلم للنوم بينما كانت للريح خارج الغرفة أصوات ذئبة هرمة جائعة.»

بمقارنة هذه الفقرة من النصّ، ومقاربتها مع العنوان، يتبيّن أنّه ثمة ارتباط بين الهزيمة والوظيفة التواصلية لمفوضات هذه الفقرة، فمن حيث الشكل يلتزم القاصّ بالمعايير السردية، فهو قد التزم التواصل بالفعل الماضي، ثمّ حدّد بدقّة البطل وهو «خليل السامر»، وتلقائيًا تحدّد المكان هو منزله، ولم يفت الحمولة التواصلية أن تتمّ عن بعض من المفوضات التي تخدم قضية الانهزام، انحناء الظهر، والقدمان المتعبتين، والاستلقاء بارتجاف والاستسلام السريع إلى النوم... هذه الحمولات التواصلية اللغوية تعبّر بصراحة عن منطلق الانهزام والكبوة، وهو ما يجعل باب التفسير للمبهمات حاضرًا، ولا سيّما حول الزمن الذي لم يتحدّد بدقّة في هذا الحيز السردية، أهو في المساء، أم في الليل، أم تراه عند العصر إبان رجوعه من العمل وهو منهك؟ هذه التساؤلات المثارة في رحاب هذه القطعة مع العنوان تشكّل مدعاة للتأمل وتحفّز الجهاز التأويلي وتستحثّه نحو النشاط التواصلية مع المدونة النصّية.

وبهذه الطريقة نجد أنّ المحور النصّي يفتح ويتخذ حالة من التشظّي للدلالة على المواطن الواحد، أي أن يحمل النصّ يوميات المواطن الذي يقاسي ألوان الهزائم، وبهذا النهج يكتسب النصّ مقدرة استقطابية لمدارات الاهتمام، إذ يشعر الفرد - المتلقي، أنّه معنيّ بما يُنقل فيه، وتبدأ اللغة بالتحوّل لتغدو مساراً كينونياً في كلّ متلقٍ، إذ به يقيسها على النسق الذي يشعر بأنّه يلائمه، أو يجسّد الحالة تواصلياً لديه.

وهذه فقرة ثانية من النصّ عينه:

«نبح الجرسون، ونبحت الجرذان الضخمة الحجم جالسة وراء المناضد المجاورة. وكان النباح قهقهة طويلة هازئة، فغضب خليل السامر أشدّ غضب، وحاول أن يتكلّم محتجّاً، فضاعت الكلمات واختفت، ولم ينبعث من فمه سوى نباح متقطّع أجش، فأغمض عينيه لحظة، وحينئذ أبصر ملكة سوداء الشعر تسقط ميتة، واستقرّت لمقاة على الأرض جثة هامدة صفراء.»

استكمالاً لمعجم الهزيمة ومدلولاته التواصلية التي يتيحها المقام النصّي العامّ تأتي هذه الفقرة، وفيها تحوّل نحو التخيل أو الوهم، وهو بالضرورة يتعكّز على البلاغة كي يغدو بهذه الصورة الواضحة، وعليه فإنّ القاصّ في هذه المرحلة قد وظّف التشخيص، إذ به أنسن الجرذان والحيوانات، ثمّ الكلاب ليدلّ عن موقف انهزاميّ مترافق ببشاعة الموقف وفضاعته، أي تلك الفظاظة التي ترافق الموقف الانهزاميّ، ولطالما سعى النصّ إلى أن يكون متميّزاً، ولكن هذا التميّز لا يحدث جزافاً، بل إنّ له منبنيات وأصولاً يتمركز خلفها في الحمولة اللغوية التي يبنيها، وهنا كان التحوّل، فجعل رمز الكلب الدال على النتانة أو النجاسة بالعرف التواصليّ العربيّ، وأقرنه بالجرذان وهي لا تقلّ نجاسة ودناسة عنه، وهكذا صوّر مسار التحكّم والشماتة المحاكية لموقفية الهزيمة، وقد بلغ الانهزام حدّ اللا عودة، ومن هنا لم ينجح «خليل السامر» في الاعتراض أو حتّى التذمّر، بل إنّ الملكة التي تصوّر القضية، قد ماتت وأصبحت جثة صريعة لا حراك فيها ولا حول أو قوّة، وبذلك تتحوّل اللغة مدعاة للتأمل التشفيريّ وتتولّد النواة التواصلية وتعمّق كتلة الهزيمة البشعة ومرارة الإحساس العربيّ أو الوطنيّ حيالها.

ثالثاً

من كتاب قصصيّ وهو كتاب «ربيع في الرماد»¹⁷، والعينة المستلّة منه هي «الباب القديم»¹⁸، على أن يقتصر العمل على بعض من الفقر لضيق المقام البحثيّ:

«غادر الحانة جنديّ ذو شعر أشقر مخلفاً وراءه ضجيج رجال سكارى، وجوههم سمر

وأعينهم وديعة غير أنّها تبدّلت لحظة لمحته، وأتقدت فيها الكراهية والصرامة لأنّه واحد من جنود غرباء غزوا مدينة لم يولدوا فيها.»

من قوانين التكافؤ التواصليّ في النصّ أنّه يفتح المقام إزاء التبدّلات، وكان يكفي هذه الفقرة وضعاً في المبنى، وهو مبنى التبدّل الذي تجلّى في ملفوظ «غير أنّها»، واستكملت بمعنى يخالف معنى الودعاة والهدوء الذي كان قبل ذلك، وهنا تتبدّى قيمة الحمولة التواصليّة التي يلتزمها نصّ ما، وقانون زيادة مبنى وزيادة معنى يسمح بخرق مسار «الثمالة» لتصبح حقيقة واقعيّة تخلق الموضوع أو الفكرة المعنويّة المرومة.

وتأميئاً لمبادئ التكافؤ النصّيّ، وضمان النتائج بتلقّف العناصر المتزايدة، أو المتصاعدة معنويّاً ومبنيّاً يكون المقطع الآتي:

«وتعمّد الجنديّ السير بين قضبيّ السكّة الحديديتين. إنّهُ الآن ترام. وسرى إليه القليل من الفرح. إنّهُ ترام يتهادى بطيء السير. وتذكّر أيام كان صغير السن، يركب القطار ويقف قرب إحدى نوافذه يرقب الحقول الخضراء والقرى المتعاقبة بسرعة تحت نظراته بينما الهواء يبعثر خصلات شعره الأصفر الناعم على جبينه.»

يعود المعنى لتصوير معنى الثمالة، ويتغاضى قليلاً عمّا أثاره من يقظة في البداية، ولكنّ مبنى الحركة الهوجاء اللغويّ قد يتحقّق في هذه الفقرة، إذ إنّهُ لاذ إلى مخاطرة بالنفس وأتى إلى السكّة الحديدية غير آبه بإمكان أن يسحقه القطار، ثمّ مضى يسرح مع السكّة الحديدية ويتأمل في ماضيه، والملحوظ أنّ معادلة «أيام كان صغير السن»، هي العبارة المحيلة إلى المعنى العميق في استنشاق الذكريات.

وبالفعل فرضت هذه الذكريات تفصيلات على اللغة أو المبنى الكلاميّ من خلال استدراج الصفات والنوعيات، وما استدراجها في الزيادة التركيبية إلاّ رغبة من القاصّ كي يؤمّن معنى الحنين الذي يقاسيه جنديّ رمت به الأقدار في بلد غريبة، وكأنّ لا معنى من وجوده في تلك الديار أصلاً، ولا يدرك عمّن يدافع؟ وهذا ما يسوّغ انسياقه المعنويّ في الذاكرة وتلقّف الأحداث الجارية وهو في رحلته هذه. حتى إنّهُ أفرد مبنى سداسياً بستة ملفوظات ليسدّ غرض التفاعل مع ما يرافق هذا الجنديّ - الفتى من أنس قد تبدّل إلى جنون غير مفهوم وسكر مرتعب مضطرب.

ولكن في النهاية يقع الجنديّ في المحذور، كان عليه أن يعلم أنّ له ضوابط كي يلتزم بها في الديار الغريبة، «وكانت التعليمات تحذّر الجنود الغرباء من السير فرادى ليلاً في أزقة المدينة.» وفي هذه الحالة تنهياً الأوضاع المعنويّة، بعد المبنى الفجائيّ هذا لتكتب نهاية معنويّة وفعليّة لهذا الجنديّ الذي قضى داخل هذه الأزقة صريعاً في النهاية.

رابعاً

من كتاب «سهيل الجواد الأبيض»¹⁹، وهي قصة قصيرة موسومة بعنوان «الكنز»²⁰، وذلك لمزيد من التطبيق وضمان التجربة.

ننقل في هذا الشقّ بعضاً من تفاصيل النصّ المنتخب للتحليل، وأبرز ما يوضح فلسفة النصّ التواصليّة، وتكون أوّل العيّنات كالآتي:

”وأفرغ أحمد في جوفه السائل الذي تحتويه القنينة، ولم تمض سوى لحظات حتى أحس أنّ شيئاً ما قد انفصل عنه ليكون وحده مخلوقاً آخر يحبّ التشرّد في أزقة العالم، وله أيضاً اسم أحمد. وهكذا كان أحمد يحفر باحثاً عن الذهب بينما كان أحمد الثاني ينطلق عبر العالم ليعيش كما يشتهي..“

في لحظة من لحظات النظام السردّي، قد تشهد الأحوال غموضاً، أو مقدرة لا واقعيّة، أو فوق خياليّة، كأنّها من أدب الفانتازيا، هذه الحالة تدلّ على مفعول رجعيّ في المتلقّي، إذ إنّه يحاكي حالة اللا واقعيّة هذه، أو يترجمها بما هو مستساغ في عرفه، وبطبيعة الأحوال فإنّ هذا السائل الموجود في القنينة سيدلّ على الهلوسة، أو شيء من هذا القبيل، إذ إنّه سحب الشاب من واقعه وجعله متشرّداً في الأزقة، وهذا ما يناقض أو يخالف حركة البحث عن الذهب، وعلى ما يبدو أنّ مكان البحث عن الذهب أصبح متعباً أو مذموماً، وأنّ التشرّد حالة تحرّريّة ومكاناً محبوباً، وذلك على القياس السردّي.

ولا تخلو الأمور من محاولات تضخيميّة، ولا سيّما رغبة «أحمد» في أن يتقلّت من صعوبات الموقف من حوله، أو القيود التي نسجتها آلة العمل، والبحث عن سراب، فقد لا يكون الذهب من أصله موجوداً.

وهذا ما يبدو مؤكّداً، أو شبه مؤكّد، في ظلّ تلاشي عقل أحمد، بين البحث عن الذهب تارة، واللوذ إلى عالمه المبتكر بعد القنينة العجيبة، وهذا النزاع سيجعله متمرداً على صوت من يناديه لاستخراج الذهب، إزاء تحرّره من تلك الأوهام، ورغبته أن يعيش حرّاً: ”كان أحمد الأوّل ما زال يحفر، وبقربه الشيخ عبده يدمم بكلمات غامضة وحشيّة الإيقاع، أمّا أحمد الآخر الأفاق القديم فقد كان في تلك اللحظة يفادر الخمّارة غاضباً، ويمشي على إسمنت رصيف مطلّ على بحر كبير، وينصت بذهول لهدير الموج، فيتذكّر أيّام كان سمكة ضئيلة ذات ألوان برّاقة، تفوص في أعماق المياه المظلمة لحظة تسمع صوت شبكة الصياد ترتمي من أعلى مقتربة من مكانها، سمكة شاهدت مولد أوّل نجمة في فراغ الأسود الكثيف.“

في القصة ملحم قويّ من ملامح الصدمة، وثمة شيء من الهلوسة، تلك الهلوسة الدافعة

إلى الجنون الهستيريّ وحالة التقمص الخارجة على الواقع، فأحمد الثاني وهو الوهمي يناقض تمامًا في مفاعيل التأويل أحمد الأول، وفي هذه الحالة تجدر الإشارة إلى أنّه كلّما تزمت أوامر الحضر، أصبحت الملفوظات السردية تروح صوب العمق أكثر، وكلّما اتّسعت التبئيرات السردية للراوي، قام الراوي القرين بحذو بؤرة موازية، وهكذا تكون بؤرتان اثنتان، فواحدة في البحر وأخرى في الحضرة الترابية، وأمّا الثانية فتحاول عبثًا الوصول إلى ذهب مفقود وغير موجود إلا في خيالات وترهات، وأمّا الأولى فموجودة بالنسيج الخيالي، أي إنّ الخيال قد فرضها وبالتالي هي أصدق أو أكثر تحررًا، فهي سمكة متخيّلة، وليست قواعد وهمية يجبرنا الرمز العلويّ على تبنيها ونحن لها كارهون. وعلى هذا النسق كانت استمرارية العمل السردية في القصة، وصولًا إلى خواتيمها، إذ استيقظ أحمد وهو في مشفى، وأتضح أنّه كان مهلوسًا تحت تأثير العملية بعد أن صدمته سيّارة، ليعود إلى واقعه الرتيب البأس مجددًا. وهكذا جسدت القصة مقدرتها في بثّ شحناتها التواصلية لإيفاء الغرض التراسليّ مع المتلقّي.

- الخاتمة

إنّ الدراسات النصّية كالرسائل تمامًا، من خلالها يسعى الكاتب إلى تحريك أيديولوجيته، أو خلفيته الثقافية والفكرية في أيديولوجيات أخرى، وخلفيات ثقافية قد تنتمي إلى الجمهور، وهو ينتمي إليها، وفي هذه الحلقة يحصل التواصل ويكون الاشتراك تمامًا على صعيد الأمور المرجعية الثقافية العامة.

لا شك أنّ مسار اللسانيات النصّية من المسارات العالية الفاعلية والجيدة، جودتها تكمن في النتائج التي تفضي إليها، وهذا من المعارف الحديثة التي ستزداد رواجًا في عالمنا العربيّ مع مرور الوقت.

إنّ الدرس النصّي من الدروس المهمة والمهمة في النتائج التي تتيحها إزاء الجمهور العامّ، وهذا ما يدعو إلى وقفة تأملية إزاء ضرورة تعديل المسار العربيّ في النظر إلى المدونات، بصرف المنظر عن جنسها الأدبيّ، فاللسانيات النصّية مسارات وخصائص تساعد وتسهم في تحديث أساليب النقد.

إنّ تجربة التحليل اللغويّ للنصّ، يكشف المدلولات العميقة، وفيه إمكانات جيّدة، إذ إنّ البعد التواصلية هو الأهمّ في عالمنا اليوم.

لا شك أنّ العمل اللسانيّ على المستويات النصّية من الأعمال الملفتة التي تقدّم معطيات عامّة، ويصل معها الباحث أو الناقد أو المحلّل إلى أماكن قد لا يصل إليها ذوو النظرة المعيارية، ومن هنا كانت المحاولة للغوص في دراسة المبنى والمعنى.

إنّ اللسانيات النصّية باتت عملة صعبة في مجال الدراسات الإنسانية. فحققت العلوم اللغوية الحديثة ينهل من لسانيات النصّ، ويبني معطياته ونتائجها على نسقتها، وهي تثبت الأبعاد التواصلية مع المتلقين الذي ينتمون إلى مجتمع وينتظرون هذا المجتمع أن يتبلور في نصّهم.

مجتمع على شكل نصّ لغويّ يشابهه ويتماهى يتحقّق في لغة إبداعية ناصيتها السرد، وسرّجها تواصل وخيلها مستويات كالعاديّات، تترك أثرها صوتاً رنيناً، وتفتح مستوياتها في الصخر، ويستمرّ العدو بين النصّ والمجتمع بتفشّ قيميّ تواصلية، ويغدو الإنتاج بعد قفزة فروسية وشموخ بالانتصار، إنّه الامتلاء من لغة النصّ وإنتاجيتها المجتمعية على شكل نصّ لغويّ. والحلبة دائماً وأبداً لغة النصّ.

الهوامش والحواشي:

² موريس أبو ناضر، الألسنية والنقد الأدبيّ، دار المنشورات الجامعية، ط1، 1998، بيروت، ص: 8-9.

³ أحمد كروم، الافتراض الدلاليّ في ضوء اللسانيات المعرفية، مجلّة عالم الفكر، ع 187، المجلس الوطنيّ الكويتيّ، 2022، ص: 39.

⁴ هاشم ميرغني، اللغة بوصفها أيديولوجيا مقارنة لمفهوم التنوع الكلاميّ، مجلّة عالم الفكر، ع 185، المجلس الوطنيّ الكويتيّ، 2022، ص: 110.

⁵ فرديناند دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، تر: صالح الفرماي، الدار العربية للكتاب، ط1، بيروت، 1985، ص: 34.

⁶ سامي أحمد، أفاق الخطاب النقديّ، مكتبة الأنجلو، مصر، ط1، 2008، ص: 79.

⁷ منذر عياشي، التأويل وحياسة المعنى، دار موزاييك، ط1، لبنان، 2019، ص: 19.

⁸ ميشال زكريا، المدخل إلى علم اللغة الحديث، ص: 93.

⁹ بارت رولان، لذّة النصّ، تر: منذر العياشي، مركز الإنماء الحضاريّ، سوريا، ط1، 1992، ص: 25.

¹⁰ جان سيرفوني، الملفوظية، تر: قاسم المقداد، اتحاد الكتاب العرب، سوريا، ط1، 1998، ص: 20.

¹¹ جون سيرل، الأفعال الإنجازية، ص: 87.

¹² يمني العيد، تقنيات السرد الروائيّ، ص: 136.

¹³ عبد الله إبراهيم، السرد والاعتراف والهوية، ص: 177.

- ¹⁴ زكريّا تامر، الرعد، دار رياض الرّيس، ط4، بيروت، 2001.
- ¹⁵ زكريّا تامر، الرعد، ص: 23.
- ¹⁶ زكريّا تامر، الرعد، ص: 113.
- ¹⁷ زكريّا تامر، ربيع في الرماد، دار رياض الرّيس، بيروت، ط4، 2000.
- ¹⁸ زكريّا تامر، ربيع في الرماد، ص: 17.
- ¹⁹ زكريّا تامر، سهيل الجواد الأبيض، دار رياض الرّيس، بيروت، ط4، 2001.
- ²⁰ تامر، سهيل الجواد الأبيض، ص: 111.

المصادر والمراجع.

- إبراهيم عبد الله ، السرد والاعتراف والهوية، دار افريقيا الشرق، بيروت، 1997.
- أبو ناضر موريس ، الألسنيّة والنقد الأدبيّ، دار المنشورات الجامعيّة، ط1 بيروت ، 1998 .
- أحمد سامي ، أفاق الخطاب النقديّ، مكتبة الأنجلو، مصر، ط1، 2008.
- تامر زكريّا ، الرعد، دار رياض الرّيس، ط4، بيروت، 2001.
- تامر زكريّا ، ربيع في الرماد، دار رياض الرّيس، بيروت، ط4، 2000.
- تامر زكريّا ، سهيل الجواد الأبيض، دار رياض الرّيس، بيروت، ط4، 2001.
- دي سوسير فرديناند ، دروس في الألسنية العامّة، تر: صالح الفرمادي، الدار العربيّة للكتاب، ط1، بيروت، 1985.
- رولان بارت ، لذّة النصّ، تر: منذر العياشيّ، مركز الإنماء الحضاريّ، سوريا، ط1، 1992.
- زكريّا ميشال ، المدخل إلى علم اللغة الحديث، دار المنشورات الجامعيّة، لبنان، ط1، 2000.
- سيرفوني جان ، الملفوظيّة، تر: قاسم المقداد، اتّحاد الكتّاب العرب، سوريا، ط1، 1998.
- سيرل جون ، الأفعال الإنجازيّة، تر: عبد الرحمن قنينة، دار افريقيا الشرق، تونس، ط1، 1992.
- عياشي منذر ، التّأويل وحياسة المعنى، دار موزاييك، ط1، لبنان، 2019.
- العيد يمّنى ، تقنيات السرد الروائيّ، دار الفكر، بيروت، ط1، 2002.
- كروم أحمد ، الافتراض الدلاليّ في ضوء اللسانيّات المعرفيّة، مجلّة عالم الفكر، ع 187، المجلس الوطنيّ الكويتيّ، 2022.
- ميرغني هاشم ، اللغة بوصفها أيديولوجيا مقارنة لمفهوم التنوّع الكلاميّ، مجلّة عالم الفكر، ع 185، المجلس الوطنيّ الكويتيّ، 2022.

مظاهر التربية المدرسية وطرائق تكاملها ما بين التنظيم والتنظير.

حسين محمود حربة

أستاذ جامعي

- أولاً : توطئة :

في هذه الزمن، زمن التفجير المعرفي الهائل، والتطور المتلاحق المستمر الذي يحمل في طياته غزواً ثقافياً يظهر العالم قرية صغيرة، يظهر الانسان طرفاً ضعيفاً مغلوباً على أمره، مبهوراً بكل ما تضع الحياة بين يديه من مستحدثات ومشكلات وقضايا. لا يبرح أن يستوعب إحداها حتى تأتيه العاجلة بقضايا جديدة. فيدب هذا المخلوق على يديه لاحقاً بها، راكباً قطاره السريع، عقله المتوقد معرفة واستنباطاً واستشراقاً، يلتقط طرف الخيط مرة، ويسعى سلوكه واخلاقه ومفاهيمه إلى القيادة والريادة ليتفاعل مع هذه المستحدثات بعقل راجح، ومرة ينحرف ويتفاعل معها تفاعل الندّ للندّ، فتحولّه سلبية هذه المستحدثات إلى تابع ذليل لها، يسير وفق فلسفات الآخرين ونظرياتهم، فلا يفهم منها شيئاً، سوى أنّها عصارة ودراسات، أوليست من عالم «القيم» التي يمكن أن تنمو الحياة في ظلّها، وينمو هو في رحابها فيرتقي بها رقياً صحيحاً لا تبعية منسحقة؟ هذا الإفلاس في المعارف عامة بحاجة إلى مُخلّص. والتربية هي هذا المُخلّص.

1- مفهوم التربية :

التربية بنت مجتمعتها، تعمل من خلاله ومنه تستمد التوجيهات. وهذا المخلوق الاجتماعي الانساني من أي طبقة كان، ولأي جنس انتمى، وبأي مهنة اشتهر، فإنّه يقبل على هذا المصطلح «التربية» ويستخدمه أكثر من غيره في يومياته، وتصرفاته وقضاياها عامة. فلو كان أباً راح باسم التربية يضرب أطفاله حتى يهدّبهم،

وباسم التربية أيضاً راح يترك لهم الحرية المطلقة. ولو كان سياسياً راح باسم التربية يربي جيلاً خانعاً ذليلاً يوظف دكتاتوريته في العمل التربوي لتخدم أغراضه وتحقق مكاسبه، وهو أيضاً باسم التربية يستطيع توظيف ديمقراطيته في تكوين جيل حرٍ مستقل يحترمان مآ حقوق الآخرين ويحققان سوية مصالح الوطن وأمنه.

فهذه اللفظة يستخدمها كل انسان، العسكري ورئيس العصابة، الزعيم ورجل الدين، الفيلسوف والسياسي، الأب والأم، وكل العوام، يستخدمها تعبيراً فضفاضاً لأفكاره وتصرفاته، وهذا دليل على أهمية هذا الميدان الذي يدرس السلوك الانساني والظواهر التربوية البادية على هذا المخلوق الفريد «الإنسان».

2- تعريف التربية :

كلمة التربية هي: « مجموع عملية الحياة الاجتماعية التي عن طريقها يتعلم الأفراد والجماعات داخل مجتمعاتهم الوطنية والدولية ولصالحها أن ينموا ويوعي منهم كافة قدراتهم الشخصية واتجاهاتهم واستعداداتهم ومعارفهم وهذه العملية لا تقتصر على أنشطة بعينها»⁽¹⁾

وبما أن الحياة الاجتماعية تقوم على الإنسان باعتبارها البيئته، وباعتباره الفرد المتمكن من هذه البيئة بكل ما وضعت أمامه من معطيات، يستطيع بوعيه التكيف معها ليغدو مواطناً صالحاً مفيداً لمجتمعه. ويستطيع من خلال مكوناته أيضاً الجسمية ومواهبه وميوله تهذيب خلقه وتصرفاته واكتساب مهارات نافعة يصلح بها البيئة الاجتماعية، فتكون التربية الموجه الصادق لحياة الإنسان من خلال البيئة، من خلال الحياة، والحياة مدرسة قبل كل شيء تساعد الفرد في التكيف والتأقلم وصناعة مصيره.

3- التربية موضوع علم :

إن شخصية الانسان جعلت كل العلوم تهتم بها، وتسعى إلى دراسة أبعادها الفلسفية والبيولوجية والعقلية والنفسية والاجتماعية، لما تحويه هذه الشخصية من صفات تجعلها فريدة بين الكائنات: (ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً)⁽²⁾

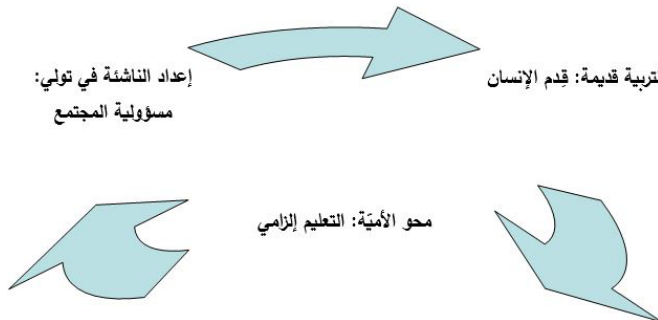
من هنا علوم الأرض كلها أرادت التوقف على هذا النموذج «الإنسان» ودرسته من كل جوانبه لتحقيق إنسانية الانسان وتطور مفهوم «الانساني» في التربية. وعلم التربية جاء ليكمل المسير طارِقاً موضوع التربية «كعملية انسانية اجتماعية أوجدها المجتمع لتحقيق أغراضه التي من أبرزها العناية بالتراث وتكوين الجيل الناشئ»⁽³⁾.

وبما أنّ الإنسان محسوب له حساب في تصميم الكون قيل أن يكون، لأنه كريم عند الله، ومعقودة له الخلافة على الأرض، فهذه البيئة (الأرض) وهذه الآمال (الخلافة) بحاجة إلى تمييز في الشخصية، ومتطلبات فريدة تختص بها دون غيرها من الخلق فجاء «العقل». والعقل الانساني هو مناط بالتكليف، وهو شرف الانسان وامتيازه، وقدرته على التفكير والاختيار، تلك القدرة أهلتها لهذا الاستخلاف (الخلافة) ولحمل مسؤولية البيئة (الأرض) ليكون جزءاً منها، فهو مخلوق من طينها، وفيه نقطة علوية من روح الله، فهو ممتزج من كيان كلي واحد، (واذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمإ مسنون ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين)⁽⁴⁾.

فالإنسان بطبيعته الفطرية نموذج لكائن حي، نام، متطور، متفاعل مع محيطه الطبيعي، والاجتماعي، والثقافي. كائن حي له خصائصه العقلية والنفسية والجسمية، التي جعلته قابلاً للتعلّم والنمو، وقابلاً لدراسات ونظريات وعلوم مختلفة. فهو: «حصيلة تفاعل العوامل الوراثية والاجتماعية، إنّه ظاهرة بيولوجية وظاهرة صحية، وظاهرة اجتماعية، وظاهرة نفسية وهو أيضاً ظاهرة تربوية يدرسها علم التربية كما يدرسه علم الاجتماع كظاهرة اجتماعية، وعلم النفس كظاهرة نفسية وعلم الصحة كظاهرة صحية»⁽⁵⁾.

4- أهداف التربية :

قدّم الغزالي وصفاً للتربية بسيطاً وسهلاً وعميقاً، لا يحتاج إلى تعريف ألفاظ ومفاهيم، وكأنّه يظهر الهدف الأساس من التربية فقال: «لولا التربية لصار الانسان مثل البهائم»⁽⁶⁾. من خلال هذا القول نجد أنّ التربية تهدف إلى استخدام الخامة البيولوجية النامية (الطفل) لصنع شخصية إنسانية نامية شاملة متكاملة. من خلال هذا القول نظر علم النفس إلى الانسان بصفته كائن حي ينمو ويتفاعل ويتغيّر ويتطوّر فهو موضوع سلوك والتربية تهتم بتكوين هذا الانسان وتعديل سلوكه. فعلم النفس يركز على سلوك المتعلم (التلميذ)، بينما التربية تؤكّد على سلوك المعلم (المدرس)، أمّا علم النفس التربوي فهو «نقطة التقاء علم النفس بالتربية»⁽⁷⁾.



فالنتيجة: نقل خبرة جديدة من شخص يمتلك هذه الخبرة (المُدرّس) إلى أفراد في حاجة لها (التلاميذ) لتيسير شؤون حياتهم.

5- تطبيقات تربوية :

أ- في مجال الأهداف التربوية :

معرفة المدرس المجالات لدى التلاميذ:

– المعرفية: مستوى معرفة التلميذ المعلومات الضرورية للمادة.

– الوجدانية: ميول المتعلمين واتجاهاتهم وقيمهم

– النفس حركية : بعض المجالات تتطلب مشاركة الأعضاء: الموسيقى / الرقص ...

ب_ في مجال بناء المجتمع :

المناهج المدرسية يجب أن يكون القائمون على بنائها على معرفة ودراية بالأسس النفسية والتربوية

ج- في مجال الأسرة :

تزويد الآباء والأمهات بمعلومات واسعة تمكّنهم من التعامل مع أبنائهم. وقد نادت النظريات التربوية الحديثة بأن الهدف من التربية إعداد التلاميذ للمهمة الكبرى وهي الحياة السعيدة، فالتربية هي تهيئة الطفل باعتباره كائنًا حيًّا للتكيف والتأقلم مع الحياة التي يواجهها، والتركيز على استغلال قدراته وصفاته التي وصفها الله له وميّزه عن سائر المخلوقات. ف «التربية عملية تهدف إلى إيصال المرَبّي إلى درجة الكمال التي هيأه الله لها. والانسان هو محور العملية التربوية، فالعملية التربوية بكل ما تشتمل عليه من أصول تربوية، ونظريات، ومناهج، وممارسات، ومربين، كلها تعمل وتتفاعل من أجل تهيئة الجو المناسب للمتعلم كي ينمو إلى درجة كماله الانساني»⁽⁸⁾

لذلك من خلال هذا التفاعل والتفاهم بين المعلم والمتعلم الذي هو (طفل/ مدرس)، ما عادت التربية حشواً وإنما علمًا بذاته هدفها: «إيجاد القدرة على التكيف، وهو هدف أساسي من أهداف التربية الأساسية والمهمة في حقل شخصية الطفل حتى يصبح قادرًا على تنمية نفسه في جميع الجوانب ، ومن ثم ترجمة هذا النمو إلى واقع ينعكس على المجتمع الذي يعيش فيه والعالم الذي ينتمي إليه ، فالتربية تعني اعداد الفرد للحياة بكل ما فيها من جوانب وأمور وعقبات»⁽⁹⁾

- ثانياً: التربية والمدرسة :

القول بأن «الحياة مدرسة» ليست قولاً جديداً، وإنما إرث اكتسباه بالقدرة على مواجهة الحياة وصعابها والتكيف مع متطلباتها وصولاً إلى الإصلاح والتعلم. وهذا لا يعني أن المكان الوحيد للتربية هو المدرسة باعتبارها المؤسسة التعليمية المتخصصة، ولكن الواقع أن التربية لها وسائلها المتعددة التي تشمل البيت والبيئة المحلية والمدرسة، كما تشمل المسجد والنادي والصحافة والإذاعة والتلفزيون، إلى غير ذلك من المؤثرات التربوية المختلفة التي تؤثر بطريقة مباشرة وغير مباشرة في الفرد وتكوين شخصيته. «وهذا لا يعني أيضاً أن ما يتعلمه الفرد خارج المدرسة أقل أهمية مما يتعلمه داخلها ولكننا نقصد أن ما يتم خارجها يحدث تلقائياً بلا ضبط ولا توجيه ولا تنظيم، ولا متابعة ولا قياس، كما أنه يحدث عن طريق عوامل غير متخصصة»⁽¹⁰⁾

لذا إذا انتقلنا من المجتمع الكبير (الحياة) إلى عالم التلميذ ومجتمعه داخل حجرة الدراسة (الصف) فإننا هنا نقف أمام مفاهيم وأهداف ومحتويات وطرائق ومشكلات تفرض عليها المعالجة وإلا ذهب عملنا أدراج الريح وسقطت كل العلوم التربوية والنفسية والاجتماعية والفلسفية التي اهتمت بهذا المخلوق الإنسان، الخارق، عندها نصبح نحن محامي الشيطان بدل من أن نكون ملائكة الرحمن.

من هنا ادرك علم التربية المشكلة وتناول مفهوم التعليم وأسس النفسية والاجتماعية والفلسفية واهدافه ومحتواه وطرائقه والمشكلات التي تبرز على نطاق هذا النوع من التعليم ودور المؤسسة في المجتمع.

- ثالثاً : أهداف المدرسة :

«فكرة التربية كانت تجديداً أحدثه رجال الدين تبرز التنظيم المتماusk للتعليم الشعبي في منتصف القرن السابع عشر»⁽¹¹⁾. وهذا الهدف (التنظيم المتماusk للتعليم الشعبي) يعني القضاء على الفروقات الاجتماعية والطبقية. ومثل هذا الهدف النبيل يلزمه مكان أو ملتقى أو حضن دافئ فكانت المدرسة. ف«المدرسة المكان الذي يتلقى فيه التلاميذ العلم بشكل جماعي، للقضاء على الأمية ولتربية المواطنين الصغار تربية متساوية، فهي تهدف إلى جعل التعليم ديمقراطياً وفي متناول الجميع من أجل تأمين الحق في التعلم»⁽¹²⁾.

المدرسة إذن هي الوسيلة التي تنقل الإرث الضخم الذي يتكون منه عالمنا الواسع والفني والمعقد، والمكوّن من أساليب العيش (العادات والطقوس)، والأشياء المادية (مصانع، أسواق) والقوانين والفنون بكل أنواعها والتعبيرات الشخصية وكل ما أنتجته الإنسانية، تنقله حرفاً بحرف عبر المعلم بأمانة علمية، وضمير صادق إلى الناشئة الذين هم أبناؤه الصغار.

فهذا الإرث الضخم، هبة الماضين، وحضارة القدماء، والمدرسة نفسها نتاج الحضارة، إنَّها المحترف الذي يكتشف فيه الطفل نفسه ويتعلَّم. فالمدرسة مؤسسة اجتماعية تتأثَّر بالمجتمع وتؤثر فيه، وهي وُلدت نتيجة ظروف اجتماعية راحة تتجدد وتبعًا للاكتشافات العلمية المتعلِّقة بالتربية وعلم النفس. فهذه المدرسة يجب أن تخرج من طور المكان لتصير رمزًا للرعاية والحنان والاستقطاب الأسمى للعملية التربوية التي يتوق إليها الأطفال انطلاقًا من طبيعتهم النفسية لحبِّ المعرفة والاكتشاف والميول والموهبة.

رابعًا : دور المدرسة الثقافي :

هناك خطوات رسمية ذاع صيتها في بعض المدارس، بإعتبارها العناصر الثلاثة المرتبطة بالمرحلة الابتدائية: القراءة والكتابة والحساب. من هذه الأطر تكون المدرسة أغفلت: أنَّ الطفل جاء لرحابها ليكتشف نفسه وليتعلم التسلية أيضًا. فتحن البالغون (المعلمون) في المدرسة علينا الاهتمام بالأطفال والانطلاق من طبيعتهم النفسية وحاجات نموهم آخذين بعين الإعتبار أسئلة كثيرة: كيف يستجيب الأطفال على الروتين المدرسي، وعلى يومهم، وعلى المناهج والطرق المدرسية ؟

1- المناهج: النظر إليها كأرضية تربوية ملائمة للمظاهر الحضارية الاساسية والميادين المتعلِّقة بها.

فعدما نريد تحديد أهداف التعليم في مجتمع ما، وأن نضع مناهج له علينا أن ننظر إلى: أ- حاجات المجتمع وسمات الحياة فيه:

التعليم يختلف باختلاف المجتمعات والسمات المميزة لها، ثراءً أو فقرًا. فكما تكون المجتمعات تكون سمات التعليم، طالما أنَّ التعليم هو الذي يجعل هذه السمات من مقومات شخصية التلاميذ.

ب- قدرات التلاميذ في جميع مراحلهم:

ينصرف التلاميذ عن تعليم لا يجيبهم عن قضايا عصرهم، ومشكلات مجتمعهم، أو لا يلبي لهم حاجاتهم اليومية، لذلك يقصرون عن ارضاء معلم، أو تفادي عقاب أو اجتياز امتحان.

ج- وسائل التعليم وأدواته ومبانيه:

أن تكون ذات قيمة للفرد كأداة لفهم خبرات جديدة، وأن تزيد من قدرته على التحكم بسلوكه وخدمة بيئته ورفع مستوى الحياة فيها.

2- الميادين:

نخدم المتعلِّم بأبصال الثقافة إليه عبر ثلاثة ميادين⁽¹³⁾:

أ- فنون اللسان: (التحدث، الرسم، الكتابة، الاملاء، القراءة، معرفة السمع، النظر، والمشاهدة)

ب- العلوم: (الرياضيات، العلوم الطبيعية، فيزياء، كيمياء، بيولوجيا، علوم اجتماعية، جغرافيا، تاريخ، وتعايلم مدنية)

ج- المشاركة الفردية الاجتماعية (تعبير شخصي خلاق، فنون وحرف، رقص، شعر، اختراع، تقنية، ميكانيك، قدرات خاصة: تعاون وادارة اجتماعية، تقدير جمالي، اخلاقيات وروحانيات). هذه الميادين الثلاثة تواكب التطور، فالثقافة اليوم تحتوي جهازاً معرفياً يربط بين القدرات والمواقف والقيم والاهداف بشكل حميم.

3 - دور المعلم :

نحن البالغون (المعلمون) تقع علينا مسؤولية الثقافة، فهذه الثقافة لا يمكن أن تقدر بعلب محكمة الربط وبمواد مدروسة فقط، بل يجب أن نستوعب بالتجربة وبالوظائف العضوية التي تظهر سمات النضوج عند كل طفل بشكل منفرد. فالطفل يولد من جديد في المدرسة، وعلينا أن نكون آباء حقيقيين له نتفاعل معه بالارث الثقافي ونتواصل معه باكتسابه، لينمو هذا الطفل وينضج.

أ- المتعلم والمعارف: لكل من المتعلمين فرادته في التعاطي مع المعارف الواجب تعلمها: صعوبات، حوافز، تصورات، مكتسبات سابقة، والمتعلم شريك فاعل في بناء المعرفة.

ب- المعلم والمعارف: يتعاطى المعلم مع هذه المعارف، في تحولاتها المختلفة، ويستوعب محتواها ومقاديرها، ويبحث عن أنجع الأساليب لتقديمها إلى المتعلمين.

ج- المعلم والمتعلمون: إنّ العلاقات بين المتعلم والمتعلمين علاقات مركبة، معقدة، تحكمها الوساطة الناجعة التي ينشطها المعلم بين المتعلمين والمعارف، وبين المتعلمين أنفسهم، في مرافقة لمسارات تفكيرهم، ومنهجهم، وتلمسهم المعرفي.

4- مقارنة بين المعلم والأهل :

| المعلم | الأهل |
|---|---|
| — بحكم مهنته، على علاقة مع عدد كبير من الأطفال، هي القيام بتعليم وتربية مجموعة من الأطفال في المدرسة. | — يعيشون مع أطفالهم على شكل جماعة شخصية كاملة (أطفالهم بالذات)، ويتصرفون معهم على اساس هذه الوضعية. |

| | |
|--|---|
| <p>– أمام أطفالهم يتعاملون معهم بعلاقة ليبيدية بمعنى عاطفية.</p> | <p>– أمام أشخاص لهم حوافز ومميزات فردية، يجب أن يتعامل معها ويشجّع على اظهارها.</p> |
| <p>– يطلبون الطاعة بشكل أكثر تشدّدًا وأقلّ حبًا.</p> | <p>– يطلب الطاعة في نواح معيّنة.</p> |
| <p>– العلاقات الأليفة تخدم التربية.</p> | <p>– يرغب العلاقات الأليفة لتخدم الهدف والموضوع.</p> |
| <p>– العقاب الجسدي من اصول التربية الليبيدية (العاطفة).</p> | <p>– العقاب الجسدي يسبب عدوانًا ضدّ كلّ إلفة عند التلاميذ والمعلّمين.</p> |
| <p>– لتعلّقهم بواقعهم يقودون أطفالهم لبناء سلوك موافق لنظام البيت.</p> | <p>– لتعلّقه بواقعه يقود تلاميذه لبناء سلوك موافق للنظام المدرسي.</p> |
| <p>– انتماء الأهل إلى البيت كنظمة اجتماعية.</p> | <p>– انتماء المعلم إلى المدرسة كنظمة اجتماعية.</p> |
| <p>– لتعلّقهم بواجبهم، راشدون في علاقة أسرية تربية ناجحة.</p> | <p>– لتعلّقه بواجبه هو كالأهل، راشد في علاقة تربية مع الأطفال.</p> |

– خامسًا: ضرورة التكامل بين البيت والمدرسة

التربية تعني القيادة والوصول إلى الهدف، فنحن نربي للتوصّل إلى ما هو حسن وجيد، وليس إلى ما هو بشع وخاطئ وسىء. من هنا لا بدّ من تكامل وسائط التربية وفي مقدّمها البيت والمدرسة، باعتبارها سلسلة متّصلة الحلقات أوّلها البيت ووسطها المدرسة وآخرها المجتمع الكبير. فالبيت هو المربي الذي يوفّر للطفل نموًّا سليمًا متكاملًا، والمدرسة هي مربية أيضًا التي تربي تربية متكاملة ولا تقتصر وظيفتها على التعليم فقط. فالقضية قضية تعاون بين البيت والمدرسة وهي قضية جوهرية وضرورة تربية أولية وألوية. والعلاقة الموجبة التي تحقق نمو الطفل المتكامل هي الأساس الذي ينبغي أن يقوم عليه البناء التربوي.

أ – البناء التربوي :

إذا حوّلنا صياغة هذه العلاقة الموجبة بين البيت والمدرسة إلى صياغة كميّة : $2 = 1 + 1$ أي أنّ عمل البيت + عمل المدرسة = نموًّا متكاملًا .

أمّا الجانب السلبي لهذه العلاقة : $0 = 1 - 1$ بمعنى أنّ ما تبنيه المدرسة قد يهدمه البيت والعكس صحيح .

لذا فالدعوة إلى التعاون والتكامل بين هذين الجانبين (البيت / المدرسة) ضرورة لا غنى عنها للعملية التربوية بمفهومها السليم. فالبيت بطبيعته مجال حيوي ملازم لغيره من المجالات. فالطفل يذهب إلى المدرسة ومعها البيت بخبراته ومؤثّواته وثقافته، لذا فإنّ تحسين مستوى هذه الثقافة وجعلها غنية بالخبرات المربية والمواقف السلوكية الموجهة يقع على عاتق المدرسة البيت الثاني.

ب- معيار العمل التربوي الناجح :

إذا كانت التربية معناها الحياة الموجهة فينبغي على "العمل التربوي كي يكون ناجحاً أن يتضمن مختلف الجوانب والأبعاد التي تحقق للفرد نمواً متكاملًا وشخصية متوازنة وحياة مثمرة"⁽¹⁴⁾. فعليه يجب التركيز على:

(1) نمط المجتمع: لكل مجتمع بنية خاصّة، وتاريخاً خاصاً ومظاهر ثقافية وتقنية مختلفة يتأثر بها الفرد، فالتربية في مجتمع محتل غير التربية في نفسه بعد استقلاله .

(2) النظام التربوي: حيث تؤخذ الفردية على امتحانات الاختبار وحدها بعين الاعتبار، في حين أنّها تختلف عن تلك التي قد تخلق في جوّ من التعاون. فالاهتمام بجانب واحد من جوانب شخصية الفرد وإهمال الجوانب الأخرى قصور في العملية التربوية.

(3) برامج عامّة وخاصّة: وهذا ما يحدّد محتوى التربية ووضعيته وتكيفها مع مستوى المتعلّمين وتجاربهم، فالبرامج الصعبة التي يقدمها المعلّم تسبب وضعية حرجة له ومقلقة عند التلاميذ (لا معارف = رسوب).

والبرامج الأكثر سهولة يشك الحرية للمربي ويسمح له بإقامة علاقات مريحة بين المشاركين في الوضعية التربوية وتأتي النتيجة (معارف = نتائج).

(4) الطرق والتقنيات التربوية: ونسأل هل هذه الطرق تسمح للطفل بالفتح وبنمو الروح الاستقلالية عنده، أم أنّها تفرض عليه قيماً تأديبية، فالوضعية التربوية يجن أن يكون لها الصيغة الانسانية.

(5) نمو الوضعية التربوية: نحن لسنا أمام أنظمة في العملية التربوية كالفاشية مثلاً، في أن يخاف المعلم من أن يشي به تلميذه إذا ما قام مثلاً وانتقد نظام أو زعيم والعكس صحيح، يجب أن ينشأ بين الاثنين جوّاً من الثقة والراحة، كان يسمح للطلاب التحرك ما بين الححص والحصول على قسط من الراحة وعلى تشقّ الهواء، وبهذا تسير الحياة بشكل أفضل وفق تفاهم وتواصل وتقارب.

(6) المربي المتدرّب: يقتصر نجاح العمل التربوي بالمربي الناجح، ولكي يكون هذا الأخير ناجحاً عليه أن يكون متدرّباً على كيفية اكساب تلاميذه المهارات والمواقف التي تهيه لإقامة أفضل الاتصالات معهم في شتى الظروف، فالصورة التي يكوّنها التلاميذ عن معلمهم بأنّه: متحدّث لبق، محلّ بارع، فيلسوف فدّ.

يجب أن لا تهتز أبداً لذلك ينبغي أن يكون منكبّاً على عمله، متدرّباً متفاعلاً مع كلّ الاختصاصات والثقافات والعلوم مستفيداً منها. لا متجاهلاً إيّاها.

- سادساً: الكفايات والغايات والأهداف التعلّمية التربوية:

- الكفاية التعلّمية:

”الكفاية هي القدرة على الفعل، أي دمج أو توظيف أو نقل مجموعة من معارف أو مواقف أو معلومات أو معطيات في سياق محدد من أجل إنجاز مهمة أو حلّ أو مسألة مختلفة“⁽¹⁵⁾.

”الكفاية هي مجموعة منسقة من النشاطات المطبّقة على محتويات في فئة من الوضعيات لحلّ مسألة مطروحة في هذه الوضعيات أو من قبّلها“⁽¹⁶⁾.

”الكفاية معرفة دينامية توظّف معرفة قول (Savoir dire) ومعرفة فعل (Savoir faire) ومعرفة كينونة (Savoir être). وهي تتضمن:

- مكوّن إعلاني / قولي (Déclarative) متعلق بالمعارف.

- مكوّن إجرائي (Procédurale) متعلق بالقدرات والمهارات.

- مكوّن عاطفي (Conative) متعلق بالمواقف (الإدارة / الإنفعال / العاطفة / الدافعية).

- مكوّن إجرائي حسّي / حركي، المكوّن البارز أكثر من المكوّنات الأخرى / مسيطر

عليها. أمّا المكوّن الإعلاني / القولي فيشكّل جزءاً من المكونات الأخرى، ولا قيمة له منفصلاً عنها“⁽¹⁷⁾.

● أمثلة تطبيقية:

- يكتب نصّاً : المكوّن هو الإجرائي العقلي.

- يركض مئة متر: المكوّن البارز الإجرائي الحسّي / الحركي.

- يعتني بالطفل: المكوّن هو العاطفي.

- مميزات الكفاية:

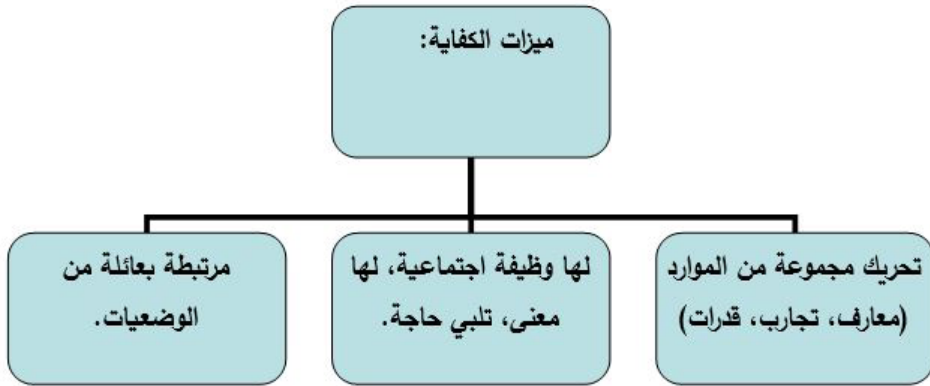
تمتاز الكفاية بمجموعة من الميزات نذكر منها:

1- قدرة الفرد على تحريك موارده الملائمة (العقلية والعاطفية، والإسناد المتوفّر في البيئة المادية والموارد الإنسانية والاجتماعية والمعلوماتية والمصادر...) من أجل معالجة ناجحة لوضعية معقّدة أو غير ذلك.

2- قدرة الفرد على توظيف هذه الموارد المتداخلة المكوّنة من معارف وقدرات ومواقف داخلية وخارجية للإنسان عندما يتواجد في عائلة من الوضعيات والسائل (situations- problèmes).

3- إمكانية تحريك هذه الموارد بطريقة استنباطية من أجل حلّ عائلة من الوضعيات والمسائل، والوضعية / المسألة هي ”كلّ مهمة مركّبة، كلّ مشروع يضع المتعلّم أمام

تحديات تتطلب منه توثيق ما لديه من موارد (resources)“⁽¹⁸⁾.



– الغايات التربوية:

هي مرتبة من الأهداف، بل هي أعلى مستوى في الأهداف التربوية، ونحصل عليها كمثل حصولنا على غايات العمل الذي نقوم به. وتتضمن هذه الغايات القيم والخيارات والنوايا التي يؤمن بها مجتمع ما أو يسعى لها إذا ما وُضع تحت عائلة من الوضعيات والمسائل، كأن تسأله دولته (أي مواطن نريد؟ وأي مجتمع نبني؟)، فيجيب بما اكتسب من موارد تتضمن هذه الغايات.

ويتنوع مضمون هذه الغايات حسب ثقافة المجتمع وطبيعة نظامه، وهي ثابتة إلى حد كبير لأنها ناتجة عن تطوّر تاريخي بطيء. وتشكل هذه الغايات ثوابت تربوية تسعى كلّ فئات المجتمع إلى تحقيقها. ويرجع إليها في الحكم على قبول وشروع كلّ الأهداف التي تستمدّ منها وتقود إليها.

● أمثلة تطبيقية:

(نريد مجتمعاً يؤمن بحرية الفكر والمعتقد)، هذا المثال من الأهداف التربوية. فإذا تبنى المجتمع هذا الهدف، كفاية من غايات العمل التربوي، وعملت مؤسسة تربوية في الوطن على الحضّ على الكراهية بين المواطنين لانسابهم إلى طائفة ما أو منطقة، يحقّ للدولة مقاضاتها وإغلاقها بسبب مخالفتها الغايات التربوية المنشودة. فالغايات التربوية هي المسعى لتطبيق الأهداف بصورة حضارية أصيلة نابعة من ثقافة المجتمع، والغاية هنا من هذا الهدف تفرض إشراك جميع فئات المجتمع ومكوناته الثقافية والسياسية والدينية في تكوين المجتمع الذي نريد: (حرية الفكر والمعتقد)، فمجتمعنا اللبناني، بلا شك، يؤمن بجوهر الديانات السماوية لذا لا إختلاف على الهدف لبلوغ الغاية.

- الأهداف التعليمية / التربوية:

قبل الحديث عن الأهداف وعن المراحل، أتوقف عند عنصر أساسي ومثالي في العملية التربوية التعليمية وهو: «المعلم»، والمعلم وحده، فهو العنصر الفعّال في الموقف التعليمي، والمحرك لدوافع تلاميذه، والمثير لدواعي الابتهاج والحماسة والتسامح والاحترام والإلفة والمودة عندهم.

ومهنة التعليم مهنة جليّة وخطيرة، وهي عملية ذاتية تتجلى فيها شخصية المعلم المحب لمهنته، فقبل أن تعرف القراءة والكتابة في المجتمعات كان المعلم يقوم بنقل التراث الحضاري من جيل إلى جيل ليظلّ مجتمعه محتفظاً بقيمته وتراثه وبناءه الاجتماعي عبر الاجيال وكلّ العصور.

فهذا المعلم، نعم الرسول هو، فقد وظّف نفسه لهداية البشر، فهو بجانب قدرته التعليمية يرّبي ويهدي ويتحلّى بالخلق الكريم، بلأناة والصبر والتحمّل ويتصف بالكياسة واللباقة والحزم، ويمتاز بالثقة بالنفس ومحبة الآخرين، حسن السيرة والسلوك، شغله الشاغل نقل المعرفة الانسانية إلى النشئ المسؤولين عن قيادة المجتمعات وتوجيهها في القريب العاجل. وكى ينقل المعلم ما وهبه الله إلى تلاميذه، لأبد له من لغة هي الوسيلة البناءة التي تربط الأفراد والجماعات والشعوب، بها ينظّم المجتمع الانساني.

واللغة ظاهرة بشرية إمتازها الانسان عن سائر الكائنات الحية، وهي من نعم الله تعالى التي أنعم بها عليه، فقال سبحانه وتعالى في محكم كتابه العزيز (الرحمن علّم القرآن خلق الانسان علّمه البيان)⁽¹⁹⁾. وبعد فقد أنعم الله علينا باللغة العربية ، وهي من اللغات الحيّة المشهورة تميّزت عن سواها بأنها لغة القرآن الكريم (إنّا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون)⁽²⁰⁾ وهي صاحبة تاريخ طويل، وذات ثروة فكرية وأدبية واسعة. ومن وظائف اللغة أنها وسيلة الانسان العربي في التفكير، وأنها مقوم من مقومات الأمة العربية الواحدة، وأنها الوسيلة المثلى لحفظ التراث الثقافي العربي. أمّا وظيفتها التربوية فهي تربية الأجيال، وإعدادهم بعقلٍ ناضجٍ ونفسٍ مهذبة، وإقامة اتصال مع معتقدتهم وتراثهم كي ينهلوا من ذخائرها وأدائها دونما ملل. فاللغة لا تدرّس على أنها هدف خاص مقصود بذاته، بل هي وسيلة لبلوغ هدفٍ أسمى وأعظم ألا وهي «التربية».

1- الأهداف لغةً وأصطلاحاً:

وبالانتقال إلى الأهداف التربوية، حرّيتُ بنا تحديد معناها، فالهدف عند اللغويين: كل شيء مرتفع من بناء أو كتيب رمل أو جبل، ويختلف معنى الكلمة باختلاف حرف الجر الي يليها.

فتقول: أهداف على التل: أي أشرف عليه، وأهدف إليه: أي لجأ إليه، وأهدف له الشيء: أي عرض له، وأهدف منه: أي دنا وانتصب، وهدف إلى الشيء: أي أسرع، وجاء في لسان العرب «الأهداف»: الدنو، تقول العرب: أهداف القوم أي قربوا، وفي أساس البلاغة: فلان هدف لهذا الأمر وغرض له.. فتستخلص مما جاء أن معنى الهدف الذي نريده يدور حول معانٍ ثلاث هي: الدنو، الإنتصاب، الغرض. والغرض هو الهدف الذي ينصب فيرمى فيه، والجمع أغراض. وتقول العرب: فهمتُ غرضك أي قصدك.

فالأهداف تعبر عما يريجه المجتمع والمربون من صفات في أجيال المستقبل فكما يقول محمد سعيد: «الأهداف التربوية عادة ما تمثل الطلب الاجتماعي وهي تكون كلاً موحداً مع مرامي التربية على مستوى المجتمع بأسره وخاضعة للمطالب السياسية والاقتصادية والثقافية التي يضعها مجتمع معين»⁽²¹⁾.

من هنا ندرك أن الأهداف التربوية يضعها المجتمع يحددها ويطلب إلى المدرسة تحقيقها في حين أن الأهداف التفصيلية المرحلية تضعها المدرسة وتحددها التربية الناشئة من أجل تحقيق الأهداف البعيدة المدى التي وصفها المجتمع.

فالنظام التعليمي يرتبط بالنظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي وكذلك ترتبط الأهداف التربوية بالأوضاع الاجتماعية والثقافية في مجتمع معين. والمدرسة تعكس تلك الأوضاع وتستمد منها أهدافاً وهي المسؤولة عن النهوض بالمجتمع إلى مستوى أفضل.

2- تحديد الأهداف:

الأهداف التعليمية تنبثق من الأهداف التربوية مباشرة وفيها إبراز رغبة المعلم بما يريد أن يحققه لدى المتعلم وما يريد هذا الأخير إنجازه في المجالات كافة، كزيادة المعرفة وتوسيع الفهم وتطوير المهارات. من هنا تتحوّل الأهداف التربوية (رغبة المعلم) إلى أهداف تعليمية (تحصيل المتعلم).

من هنا يأتي تحديد الأهداف، فقبل وضع أي برنامج تعليمي لأي مرحلة دراسية، لابدّ تحديد الأهداف المتوخى تحقيقها، لأنّ: ” التربية نشاط شعوري هادف... وكلّ نشاط شعوري يرمي إلى تحقيق هدف معين”⁽²²⁾

ونحن أمام متلقٍ هو الطفل، يحتوي وفق نموّه لنواحي معرفية / وجدانية / نفس حركية: لذا فأهداف المنهج يجب أن تشتمل على هذه النواحي أيضاً، لأنّ المتعلم (الطفل) هو مشروع التربية، وعلى المحتوى أن يرتبط بها ويدركها.

وتحديد الأهداف في المراحل الأساسية لوضع المنهج الدراسي وكذلك اختيار المحتوى

والتقويم. من هنا يأتي تحديد الأهداف الأكثر عمومية بحسب حاجات المجتمع ومنها:

- 1- الهدف الديني: الإيمان بالله ورسالته.
- 2- الهدف الأخلاقي: التمسك بالقيم الروحية والاخلاقية .
- 3- الهدف الوطني: الإيمان بالوطن والدفاع عنه .
- 4- الهدف العلمي: الاعتماد على العلم واكتساب سلوك التفكير.
- 5- هدف العمل تقديم العمل كعنصر أساس في نشاط الانسان.
- 6- الهدف الجسمي: تربية قوى الفرد الجسمية.

3- أهمية الأهداف:

إنّ أهمية هذه الأهداف تكمن في علاقتها ببعض عناصر المنهج من طرائق ووسائل تعليمية واشكال النشاط الذي يقوم به كلّ من المعلم والمتعلّم. وثمة فوائد أخرى للأهداف مثل قيام وظيفة التوجيه للعملية التعليمية في مرحلة التنفيذ والتقويم لمعرفة مدى ما تحقّق منها، ثمّ التزوّد بالمعايير التي يقوم على أساسها المنهج والعمل التربوي.

فإذا ما تمرّن المعلّم على المهارات والخبرات لصياغة أهداف تعليمية - تربوية مع صياغة أهداف سلوكية يكون قد اكتسبها من تلامذته. فإنّه بالفعل يحقق نتائج باهرة في التعلّم. فهذه الأهداف حقّقت له:

- 1- تشخيص نواحي القوّة والضعف واتخاذ ما يلزم للعلاج والتحسين.
- 2- ساعدت في تقويم مقدرة التلاميذ على أداء عمل يرعون به وفق عملية التعلّم.
- 3- تنسيق الجهود بين مؤسسات المجتمع كافة في بناء الانسان: (البيت والمدرسة والاعلام والجمعيات والأندية وغيرها..)
- 4- حصر النشاط الذي يخدم الأهداف وترك أي نشاط آخر إلى حينه توفيراً لوقت المتعلّم والمعلّم.

4- التعليم والأهداف:

من أهم الأهداف التي تنطلق منها العملية التعليمية: التفاعل والتنامي والتواصل بين طرفي العملية التعليمية (المعلم/المتعلم).

الأول (المعلم) بإنسانيته ومعارفه ومهاراته يوصل العملية التربوية إلى شريكه الآخر (المتعلم) عبر التفاهم والتفاعل والتواصل. والثاني (المتعلم) هو الكيان المتميز، المكون من الجسم

والعصب والعقل والوجدان والأخلاق، يتفاعل بالطبع مع هذه المكونات ليكون شخصاً متفرداً، لكنه يخفي الفعالية والمشاركة، فهو في النهاية إنسان مكمل لبقية أعضاء المجتمع. فالتعليم إذن: «يحدث تغييرات في المتعلمين يهدف إلى تحسين ما لديهم من معرفة، أو تهذيب طرق تفكيرهم، أو بتوجيه أدائهم لمهارات لم يكونوا قادرين عليها، أو الارتقاء بمستوى أدائهم لها، أو باكسابهم ميولاً واتجاهات، وسمّيت العبارات التي تصف التغييرات، أو النتائج المرغوبة، أو المرتبقة من خلال برنامج تعليمي «الأهداف»⁽²³⁾

5- التربية والأهداف:

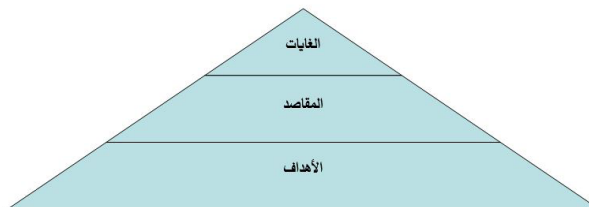
«إن التربية هي عملية إيصال المعلومات والمعارف إلى عقل المتعلم، وقيل إن التربية هي عملية نقل المعلومات والمعارف والخبرات والمهارات والعادات من فرد إلى فرد ومن جيل إلى جيل، وقيل أن التربية هي مساعدة الفرد على تنمية جسمه وعقله وإيجاد تنمية صحيحة تساعده على أن يكون مواطناً صالحاً مفيداً لمجتمعه»⁽²⁴⁾

من خلال هذا العرض ندرك أن هدف التربية لم يعد حشو عقول التلاميذ بل إيجاد القدرة على التكيف هو الهدف الأساسي لها، وصقل شخصية المتعلم حتى يصبح قادراً على تنمية نفسه في جميع الجوانب. فالأهداف التربوية: «تعبّر عمّا يريه المجتمع والمربون من صفات في أجيال المستقبل، وهي تكون كلاً موحداً مع مرامي التربية على مستوى المجتمع بأسره، وهي نقطة البداية في التخطيط للمنهج الدراسي.»⁽²⁵⁾

6- مستويات الأهداف:

تدرج الأهداف في عموميتها وشمولها وتصنّف وفقاً لذلك، بحيث تتدرج من العام إلى الخاص، ومن البعيد جداً إلى القريب جداً، ومن الواسع العريض إلى الضيق، وأهم الأهداف التعليمية وأشملها وأبعدها هي الغايات، والغاية: محط مدى الشيء وأقصاه، وأكثر الأهداف ضيقاً وقرباً هي الأهداف المحددة، وبينهما توجد أهداف وسيطة تسمى المقاصد أو الأغراض»⁽²⁶⁾

الأهداف المحددة > المقاصد > الغايات



7- الأهداف العامة للمناهج:

تتوخى المناهج تنمية شخصية الفرد كعضو صالح ومنتج في مجتمع ديمقراطي حر، وكمواطن مدني ملتزم بالقوانين ومؤمن بمبادئ ومرتكزات الوطن، وعنت بالوطن لبنان الذي يجب أن يتكامل ويتلاحم فيه أبنائه في مناخ من الحرية والعدالة والديمقراطية والمساواة. وقد انقسمت هذه المبادئ إلى ثلاثة مستويات:

1- على المستوى الفكري الإنساني

2- على المستوى الوطني

3- على المستوى الاجتماعي

ولفت إنتباهي عندما قرأت البند الأول من المبادئ العامة تحت عنوان «المستوى الفكري الإنساني» الفقرة (أ) التي تقول: «الإيمان بلبنان وطناً للحرية والديمقراطية والعدالة التي يكرسها الدستور اللبناني»⁽²⁷⁾، فمثل هذا الصوغ في إعطاء الأهمية الكبرى «لديمقراطية» ما هي الإشعارات هابطة وبخاصة عندما نستند فيها إلى الدستور. فالديمقراطية، بمفهومها البسيط، تقوم على حرية الفرد وكرامته، والفرد ركن أساسي في بناء المجتمع، حقّه الديمقراطية، فهو سيّد نفسه يتمتع بالحرية والمعرفة والإدراك. فالمناهج المعدّلة تستقي ديمقراطيّتها من الدستور وكأنّنا في عهد الوصاية، وهذا ما يجعلنا نتساءل: ما إذا كان الدستور يضمن بديمقراطيّة حرية الفرد ويقدمها على حرية الطائفة، ويضمن العدالة والمساواة بين الأفراد ويعطيها الأولويّة، عنده للمساواة بين الطوائف؟ فإني لأجد أنّ مظاهر التناقض بارزة، فإهمال الفرد حرّيته لحساب الطائفة أو الجماعة يلغي الديمقراطية من قاموس التداول لدى الأفراد أوحى التفكير بها.

ولفت إنتباهي أيضاً تحت عنوان «المستوى الوطني» الفقرة (د) التي تقول: «التعليم حر في لبنان... من جهة إنشاء مدارسها الخاصة على أن تسير في ذلك وفقاً للأنظمة العامة التي تصدرها الدولة في شأن المعارف العموميّة»⁽²⁸⁾

وهنا عادت المناهج إلى الدستور، كي تستقي منه أهدافها، وتحديثت عن المدارس الخاصّة التي أمّنت لها الإنتشار ما لم تخل بانظام العام أو تناف الأداب أو تتعرّض لكرامة أحد الأديان أو المذاهب، وهذا أيضاً من الشعارات الهابطة التي تسمح بانتشار التعليم الخاص عبر مدرسة التي أصبحت أخطبوط العصر، تمتد كحوتٍ يريد إبتلاع الآخر (التعليم الرسمي) ليبقى هو وحده على الجزيرة. وهذا التصريح بالإنتشار: أحبط من عزيمة الكتاب المدرسي أيضاً، فأصبح سلعة في أيدي «السماصرة» والتجار، وإني لأسأل إلى أين؟... وإذا تركنا المبادئ العامة، ودخلنا الأهداف المنبثقة عنها، فقد حدّد المنهاج أهدافاً لكل مرحلة: الروضة، التعليم الأساسي بحلقتيه، والتعليم الثانوي.

8- التعليم وأهدافه العامّة:

تقسم الأهداف التربوية إلى قسمين عام وخاص

أ- الهدف التربوي العام: هو ما يشترك في تحقيقه إمتلاك كفايات ومهارات شتى ذات مصادر متعدّدة.

ب- الهدف التربوي الخاص: هو ما تؤدّي إليه مادّة تعليميّة بعينها أوفرع من فروع تلك المادة. وبين الأهداف العامة والأهداف الخاصة المتفرّعة عنها علامة عضويّة، وبين المراحل الثانويّة والأساسيّة علاقة تواصل. فالأهداف تشمل المرحلتين كما تعزّز كفاية المتعلّم في كل منهما.. ولكن أردتُ دراسة الأهداف العامة، لأنّ الفرع لا يتسنى لنا تقويمه إلّا برده إلى الأصل.

● الأهداف العامّة:

الأهداف العامة ذات شقين:

أ- في بناء شخصيّة الفرد وتكوين المواطن:

بلغت عشرين هدفاً يمكن إجمالها بالآتي: «تزويد الطالب بالنواحي الفكرية والمعرفية والثقافية والوجدانية والسلوكية والجمالية والإفادة من المطالعة والتراث والتواصل مع العرب، والتأصل في الثقافة العربية والإجتماعية والإنسانية والتراثية»⁽²⁹⁾

ب- في تعزيز كفاية المتعلّم اللغوية:

بلغت عشرة أهدافٍ يمكن إجمالها بالآتي: «ربط اللغة بالحياة واعتماد الفصحى لغة تواصل والتمكّن من قواعدها وتثبيت معرفة الطالب ببلاغة اللغة، واستخدام تقنيّات التعبير المختلفة وإغناء حصيلة الطالب اللغوية بالمفردات والتراكيب وتقنيّات التعبير المختلفة، والمصطلحات الخاصة بحقول المعرفة والإستمتاع بالقراءة، واكتساب اللغة العربية ببسر وسهولة، واكتساب مهارة التعبير من خلال تعريب النصوص بحيث يخدم التعبير مادة الإختصاص»⁽³⁰⁾

ج- الإيجابيات:

يمكننا القول أنّ هذه الأهداف جاءت متكاملة إلى حدّ ما تسدّ ثغرةً في المناهج القديمة فهي:

1- تشدّد الأهداف على وجوب توظيف اللغة في تنمية طاقات المتعلّم (الفكرية والوجدانية والسلوكية)

2- إقامة توازن بين الجوانب المختلفة لشخصيّة المتعلّم (المعرفية والثقافية والوجدانية)

- 3- رتوظيف اللغة في مجالات الحياة كافة والتواصل معها.
- 4- الإستمتاع بالفنون الجميلة.
- 5- ربط المتعلّم بترائه اللغوي والنزود من قيمه الأصليّة.

د- السليبيّات:

لا بُدّ في عرض السليبيّات أن نتجرّد من الآراء الخُليبيّة، ونسعى جاهدين إلى تصوير ما يبيّناه على أسسٍ وركائز مدعومة بالنقد البناء، لأنّ المصلحة العامّة تقتضي وقفة رجلٍ واحد في سبيل إزدهار العمليّة التربويّة التي هي جسر العبور إلى المستقبل. لذا فمن الملاحظ أنّ هذه الأهداف تتّصف بالآتي:

1- هناك خلط بين الأهداف التي يحقّقها تعلّم العربيّة وآدابها وبين تلك التي يحتمّ تعلّمها مع تعلّم سواها في تحقيقها. فعلى سبيل المثال «توظيف اللغة العربيّة وآدابها في تنمية طاقات المتعلّم الفكريّة والوجدانيّة والسلوكيّة»⁽³¹⁾ هذا الهدف منوط تحقيقه بتعلّم العربيّة وآدابها كذلك القدرة على تمثّل «القيم الروحيّة والأخلاقيّة»⁽³²⁾ بينما «الإخلاص للوطن، والدعوة إلى محبّته...»⁽³³⁾ ليس تحقيق هذا الهدف محصوراً بتعلّم العربيّة وآدابها إنّما هو عمل مشترك ينهض فيه تعلّم غير مادة واحدة.

2- «إعتماد الفصحى لغة تواصل وتعليم، وإيجاد إلفة بينه وبينها»⁽³⁴⁾ بحسب سياق النصّ الموجد من هو المتعلّم؟ والمطلوب جعل المتعلّم قادراً على إعتماد الفصحى وإيجاد إلفة معها، فهل تعليم العربيّة يهدف إلى جعل المتعلّم قادراً على إيجاد هذه الألفة؟ وكيف لنا أن نقيس تحقّق هذا الهدف؟ وما المعايير التي تعتمد في مثل هذا القياس؟ في حين أنّه يشترط في الأهداف وبخاصّة في حقل التربية أن تكون قابلة للقياس.

3- القدرة على «الإستماع والتحدّث واستخدام أساليب التعبير المختلفة من تواصلية وظيفيّة كالحوار والمناقشة، إلى أدبيّة تتوخّى الجماليّة الإبداعية»⁽³⁵⁾ في هذا التقسيم تعسّف إذ يفصل المنهج الحوار عن الإبداعية ويحصره في التواصلية وفي هذا الحصر خطأ وتجنّمي حق الإبداع.

4- الإرتباك الناجم في بعض الأهداف في الصوغ والتكرار واللبس وذلك في التخليط بين الأهداف والوسائل من جهة وبين الأهداف وطرق تحقيقها من جهة أخرى.

— خلاصة القول أنّ في عرض مساوئ هذه الأهداف والمناهج الجديدة أمران:

1- إمّا مُعدّي البرامج يصرّحون بالخفاء إلى أنّ مناهجنا التي كان معمولاً بها قبل هذه المعدلة كانت تفتقر إلى ركن أساسي من أركان المناهج، إلى أهدافٍ محدّدة مسبقاً يسعى

إلى تحقيقها اليوم.

2- وإمّا وقفة دفاع، وإعادة حسابات في الماضي القريب وإنصاف المناهج السابقة بدفع التهمة عنها بأنّها كانت مجموعة عناوين من غير أهداف معدّة سابقاً تسعى إلى تحقيقها اليوم. وهم يزودون عن القديم ويمنعون التهجّم عليه والذراية به لأنّ الماضي تراث وليس من شيم الكرام (التهجّم والذراية)، وليساً أيضاً: الطريق المحمود إلى إعطاء الجديد جواز مرور إلى قلب الحياة، إن لم يكن مستحقاً للحياة.

- سابعاً : التقويم :

يستعمل التقويم في التربية لتحقيق أهداف متعدّدة ويخدم مجالات كثيرة منها: (36)

أ- في التخطيط التربوي:

1) التعرف على الحاجات الفعلية للمجتمع من كل نوع من أنواع التعلم .
2) تحديد مستويات القدرة الكافية عند الأفراد اللازمة للوصول بهم إلى درجة معيّنة من الكفاية في مهنة أو تخصص معيّن.

ب- في قبول الطلبة وتصنيفهم في أنواع من التعليم:

1) التعرف على استعدادات الطلبة وخصائصهم التي يمكن على اساسها قبولهم في كل نوع من أنواع التعليم.

2) وضع قواعد الاعفاء في بعثات دراسية واختيار المتفوّقين لدراسة برامج معيّنة.

ج- في الارشاد والتوجيه:

1) تقويم خصائص الطالب لمساعدته في اختيار مهنة أو تخصص دراسي معيّن وفق قدراته وميوله ورغباته.

2) تهيئة البيئة الاجتماعية التي تساعد الطالب في التكيّف الناجح تربويّاً ومهنيّاً واجتماعيّاً.

د- في تطوير عملية التدريس وتحسينها

1) التعرف على مدى التقدم أو النمو الذي حصل عند الطلبة.

2) توفير الدافعية للتعلّم، وتوجيه نشاط المتعلّم.

وبعد هذه الأحكام التي يتوصّل إليها المعلّم بالتقويم تتخذ المدرسة قرارات هامة تتعلق بجوانب متعدّدة في العملية التربوية ومنها:

- تغيير وتعديل أسلوب التدريس.

- تطوير وتعديل المناهج.

- تعديل الأهداف لتصبح أكثر قابلية للتحقق.

—رفع المستوى العلمي والمهني.
—تعديل الكتاب المدرسي أو تطويره أو تحديثه.

● الهوامش:

- 1- تعريف اليونسكو في مؤتمرها 18 بباريس سنة 1974.
- 2- القرآن الكريم ، سورة الاسراء ، الآية 70
- 3- د. رشراش عبد الخالق ، «علم التربية العام» ج1، دار النهضة العربية، بيروت ، ص23
- 4- القرآن الكريم ، سورة الحجر 28 و29
- 5- د. رشراش عبد الخالق ، في حوار حول «علم التربية»، الشراع 2003-6-30 ، ص59
- 6- م، ن، علم التربية العام ، ج1 ، ص 28
- 7- بدر عمر العمر ، المتعلم في علم النفس التربوي ، ط2 ، جامعة الكويت ، 1999
- 8- علي احمد مدكور، نظريات المناهج التربوية ، ط1 ، دار الفكر العربي، 1997 ، ص 123
- 9- www. Khayma.com
- 10- www. Khayma.com
- 11- عبدالله عبد الديم، التربية عبر التاريخ، دار العلم للملايين، بيروت 1984 ، ص 137
- 12- م، ن، ص 137
- 13- م، ن، ص 138
- 14- م، ن ، ص58
- 15- Le Boterf G. 96 in Gérard J.M. & Roegiers X. 96
- 16- De Ketele J. H. 96 in Gérard J.M. & Roegiers X. 96
- 17- Minder M. 96 in Gérard J.M. & Roegiers X. 96
- 18- د. هشام عواضة « تطوير أداء المعلم» ط1، دار العلم للملايين، 2008، ص: 59.
- 19- سورة الرحمن الآيات: 4-3-2-1
- 20- سورة يوسف الآية: 2
- 21- د.رشراش عبد الخالق ، علم التربية العام ، ج1 ، ص95
- 22- م. ن، ص 97
- 23- كمال عبد الحميد زيتون، «التدريس نماذجه ومهاراته»، محاضرة، ص 166
- 24- http://www.khayma.com|aledari|trbya.htm
- 25- رشراش عبد الخالق، علم التربية العام، ج1، دار النهضة العربية، بيروت، ص

- 26- كمال عبدالحميد زيتون، م.ن. ، ص 168
- 27- مناهج التعليم العام وأهدافها، صادر عن المركز التربوي للبحوث والإنماء، بيروت 1997، ص 3
- 28- م، ن، ص 4 ، (د : الدستور اللبناني، المادة 10)
- 29- الدليل التربوي، التعليم الثانوي السنة الثانية، فرع العلوم ، ص 17
- 30- م، ن، ص : 18
- 31- مناهج التعليم العام وأهدافها، ص: 41
- 32- م، ن، ص : 41
- 33- م، ن، ص : 41
- 34- م، ن، ص : 41
- 35- م، ن، ص : 41
- 36- زكريا الظاهر، مبادئ القياس والتقويم ، مكتبة دار الثقافة، عمان 1991، ص 15،16،17

تأثير الأزمة المالية على الاستقرار النفسي لدى الزوجين

حنان مطر

أستاذة جامعية

ملخص

يتناول هذا البحث الاثر الذي تتركه الازمة المالية على الاستقرار النفسي لدى الزوجين وقد اعتمد البحث المنهج الاحصائي حيث استند لاستبانة الكترونية تم توزيعها على نساء ورجال متزوجين من منطقة الشمال في العام الحالي 2022-2023 وقد أجاب 307 شخص على الاستبانة من العينة المستهدفة. وقد نتج عن الدراسة عدة نتائج مهمة على كافة الأبعاد واهمها أن الدرجة الكلية للإستقرار النفسي لدى الزوجين له علاقة بالجنس ومدة الزواج وعدد افراد العائلة ونوع الإحتياجات وعدد الأولاد وغيرها من المؤثرات التي تزيد من الأزمة المالية .

Abstract

This research deals with the impact of the financial crisis on the psychological stability of the spouses. The research adopted the statistical method, as it was based on an electronic questionnaire that was distributed to married women and men from the North region in the current year 2022-2023. 307 people answered the questionnaire from the targeted sample. The study resulted in several important results on all dimensions, the most important of which is that the overall degree of psychological stability of the spouses is related to gender, the duration of marriage, the number of family members, the type of needs, the number of children, and other influences that increase the financial crisis.

مُقَدِّمة:

يعتبر الزواج ترابطاً مبنياً على الانسجام والتآلف والاندماج، فيكون عقد الزواج مجرد إجراءات ومراسيم تستغرق دقائق معدودات هدفها مجرد الإعلان والاعتراف بحقوق الزوجة وحماية حقوق الطرفين، ولكن عندما ينعدم أو يزول الانسجام والتآلف وينحل الارتباط الحسي وتحل محله الكراهية والقسوة وعدم الانسجام والاختلاف فليس هناك قوة قانونية أو اجتماعية تستطيع إعادة الارتباط الحسي والروحي والانسجام وإجبار الزوجين على الاستمرار. وفي هذه الحالة فإن تفكك العلاقة الزوجية يحدث لمجرد انعدام هذا الارتباط الروحي في الحياة معاً، مع ما يترتب عليه من آثار نفسية جسيمة بالنسبة للطرفين وتداعيات هذا الأمر على أطفالهما (بكار، 2001، ص 157-158). والمتتبع للأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تعيشها مجتمعاتنا مؤخرًا، يجد أن هناك صعوبات مستجدة ظهرت على ساحة العائلة سواء على المستوى الاجتماعي أو الاقتصادي، فالأوضاع الصحية المتردية في المنطقة، والتوترات السياسية وما رافقها من صعوبات واجهتها هذه الأسر بالإضافة إلى تردّي الوضع الاقتصادي الذي ينجم عنه مشاكل تعصف بالحياة الزوجية لأي عائلة مهما بدت متماسكة، هذه العوامل مجتمعة أدت إلى ازدياد الضغوط النفسية على الأزواج بشكلٍ مُطَّرِد (عبد الرحيم، 1993، ص 100-120).

وبالتالي فإنه لا بد أن يكون للأزمات المالية تأثير على الاستقرار النفسي للزوجين. حيث يمكن أن يتسبب الضغط الناتج عن انعدام الأمن المالي بالشعور بالقلق والاكتئاب لدى الطرفَين، مما قد يضغط على العلاقات الشخصية (Sorgen, 2013). فعندما تواجه الأسرة صعوبات مالية، قد يكون من الصعب على الشركاء الشعور بالأمان في علاقتهم، مما قد يؤدي إلى الشعور بعدم الثقة والشك. ويمكن أن يؤدي هذا أيضاً إلى زيادة الجدل وانخفاض التواصل، مما قد يؤدي إلى مزيد من الإضرار بالعلاقة (باهميم، د.ت، ص 8-14).

بالإضافة إلى ضغوط الصراعات المالية يمكن أن يتسبب في شعور الأفراد بالإرهاق والضعف، مما يؤدي إلى الشعور باليأس والعجز. يمكن أن يؤثر ذلك على الرفاهية العامة للفرد واحترامه لذاته، مما قد يؤثر على العلاقة ككل.

وقد كان للأزمة المالية في العصر الحاليّ تأثير عميق على الاقتصاد العالمي، مما أدى إلى فقدان الوظائف على نطاق واسع على فترات متلاحقة، وانخفاض الدخل لدى الكثير من الأفراد والعائلات، وزيادة مستويات الديون والضغوط المالية. كما تأثر الاستقرار

النفسي للزوجين، حيث وضعت الأزمة ضغطاً على العلاقات، وزادت من مشاعر القلق والاكتئاب، وخلقت إحساساً عاماً بعدم الأمان وعدم اليقين بشأن المستقبل.

كما أظهرت العديد من الدراسات أن الضغط المالي يمكن أن يكون له تأثير سلبي على الرضا الزوجي ويزيد من خطر الطلاق. ولم تكن الأزمة المالية استثناءً، حيث أبلغ العديد من الأزواج عن زيادة مستويات الصراع وانخفاض مستويات العلاقة الحميمة في علاقاتهم نتيجة للضغوط المالية التي كانوا يعيشونها.

ومن ناحية أخرى، وبالإضافة إلى التأثير المباشر للضغوط المالية على العلاقات، فقد كان للأزمة أيضاً تأثير أوسع على الصحة العقلية، حيث عانى العديد من الأشخاص من مستويات متزايدة من القلق والاكتئاب نتيجة فقدان الوظيفة، وانخفاض الدخل، وزيادة الديون. وقد زاد هذا بدوره من الضغط الذي يعاني منها الأزواج بالفعل، مما زاد من توتر علاقاتهم وأثر على استقرارهم النفسي (السرطاوي، 2008، ص 75-80).

وبشكل عام، كان للأزمة المالية المتتالية تأثير كبير على الاستقرار النفسي لدى الأزواج، وما زالت آثاره محسوسة حتى اليوم. حيث يستمر الأزواج الذين تأثروا بالأزمة في الإبلاغ عن مستويات أعلى من الإجهاد المالي، وانخفاض مستويات الرضا الزوجي، وزيادة مستويات القلق والاكتئاب. وبالتالي فإنه من المهم أن يسعى الأزواج للحصول على الدعم والموارد، مثل العلاج أو المشورة المالية، لمساعدتهم على التعامل مع تداعيات الأزمة وتحسين رفاههم العام.

أولاً - مشكلة الدراسة:

تعدُّ الأزمات المالية من أكثر الأحداث المؤثرة على حياة الأفراد، حيث تؤثر على الجانب النفسي والعاطفي للأفراد، ولا سيما الزوجين. فعندما يواجه الزوجان أزمة مالية، يمكن أن تتحول إلى مشكلة نفسية تؤثر على العلاقة الزوجية بشكل كبير. ففي هذه الحالة، يمكن أن يشعر أحد الزوجين بالضغط والتوتر بسبب عدم القدرة على تلبية احتياجاته واحتياجات العائلة، في حين يمكن أن يشعر الآخر بالإحباط والخيبة بسبب فشله في توفير الاستقرار المالي للعائلة.

وبالتالي تؤثر الأزمات المالية أيضاً على الصحة النفسية للزوجين، حيث يمكن أن تزيد من مشاعر القلق والتوتر، وتؤثر على النوم ومستوى التغذية (الشهية) والحياة اليومية بشكل عام لكلا الزوجين. ويمكن أن يؤدي هذا إلى تفاقم المشاكل النفسية مثل الاكتئاب والقلق والتوتر، مما يزيد من صعوبة التعامل مع الأزمة المالية ويؤثر على العلاقة الزوجية بشكل كبير.

من هنا يطرح السؤال التالي نفسه: كيف يمكن للزوجين التغلب على تأثير الأزمات المالية على الاستقرار النفسي لديهما والحفاظ على علاقتهما الزوجية؟
ثانياً- أهمية الدراسة:

تعد الأزمات المالية من أهم الأحداث التي يمكن أن تؤثر على الاستقرار النفسي للأفراد، وخاصة الزوجين. ففي الوقت الذي يمكن أن يكون الإجهاد المالي نفسياً للفرد، يمكن أن يؤدي إلى زيادة التوتر والضغط على العلاقة الزوجية. حيث أن دراسة تأثير الأزمات المالية على الاستقرار النفسي لدى الزوجين مهمة لعدة أسباب. أولاً، يمكن لهذه الدراسة أن تساعد على فهم طبيعة وتأثير الأزمات المالية على النفسية البشرية، وكيف يمكن تجاوزها. ثانياً، يمكن أن توفر هذه الدراسة معلومات قيمة للمتخصصين في الصحة النفسية والعلاقات الزوجية، وذلك لتوفير أفضل الممارسات والحلول للأزمات المالية وتجاوزها. وثالثاً، يمكن أن تساعد الدراسة في تعزيز الوعي العام حول تأثير الأزمات المالية على الصحة النفسية والعلاقات الزوجية، وتحفيز المجتمع للبحث عن حلول وسبل لتجاوز هذه الأزمات.

وبشكل عام، يمكن القول أن دراسة تأثير الأزمات المالية على الاستقرار النفسي لدى الزوجين هي دراسة هامة وضرورية، تساعد على فهم المشاكل والتحديات التي يمكن أن تواجه الأزواج في حالات الأزمات المالية، وكيفية التغلب عليها وتجاوزها بأفضل السبل.
1- الأهمية النظرية للدراسة:

تعتبر الدراسات النظرية في مجال تأثير الأزمات المالية على الاستقرار النفسي لدى الزوجين أمراً ضرورياً، حيث تساعد هذه الدراسات على فهم طبيعة العلاقة بين الأزمات المالية والصحة النفسية والعلاقات الزوجية، وكيفية التعامل مع هذه العلاقة. تقدم النظرية مجموعة من الإطارات والمفاهيم المهمة لفهم تأثير الأزمات المالية على الاستقرار النفسي للزوجين، وذلك عن طريق توضيح العلاقة بين المتغيرات المختلفة والتفاعلات التي تحدث بينها، وكيفية تأثيرها على الصحة النفسية للأفراد. وبشكل عام، يمكن القول أن الدراسات النظرية في مجال تأثير الأزمات المالية على الاستقرار النفسي للزوجين تساعد على فهم العلاقات والتفاعلات التي تحدث في هذا الجانب، وتوفر الإطار النظري اللازم لفهم الأسباب والنتائج المحتملة، وكيفية التعامل معها بشكل أفضل.

2- الأهمية العلمية للدراسة:

تعد دراسة تأثير الأزمات المالية على الاستقرار النفسي للزوجين من المجالات العلمية

الحيوية والمهمة، حيث تساهم هذه الدراسة في فهم العلاقة المتبادلة بين الصحة النفسية والأوضاع المالية للأفراد وكذلك العلاقة الزوجية، حيث تتيح هذه الدراسة فرصة للتعرف على الآثار المحتملة للاضطرابات المالية على الأفراد والزوجين، مما يساعد على تصميم برامج وخطط علاجية وداعمة للمتضررين من هذه الأزمات. كما تساعد في تحديد عوامل الخطر التي قد تزيد من الضغط النفسي والتوتر في الأزمات المالية وكيفية التغلب عليها.

بالإضافة إلى ذلك، تساعد دراسة تأثير الأزمات المالية على الاستقرار النفسي للزوجين على فهم كيفية تفاعل الأفراد مع الأوضاع المالية المتغيرة، وكذلك الأساليب المناسبة للتعامل مع هذه الأزمات بشكل فعال. وتقدم هذه الدراسة توجيهات ونصائح عملية للأفراد والأزواج والأسر حول كيفية التعامل مع الأزمات المالية والتأقلم معها.

وبشكل عام، تُعدُّ دراسة تأثير الأزمات المالية على الاستقرار النفسي للزوجين أمراً مهماً على المستوى العلمي والاجتماعي والاقتصادي، حيث تساعد على فهم الصلة بين الصحة النفسية والاقتصاد والعلاقات الاجتماعية، وتعزز فهمنا لأهمية تطوير السياسات العامة والبرامج التربوية والتدريبية لدعم الأفراد في تحقيق الاستقرار النفسي والمالي.

ثالثاً- أهداف الدراسة:

تهدف دراسة تأثير الأزمات المالية على الاستقرار النفسي للزوجين إلى تحديد الآثار النفسية للأزمات المالية على الأفراد والزوجين، وتحديد العوامل المؤثرة في هذه العلاقة، من هنا تبرز أهداف هذه الدراسة التي تتمثل بـ:

1- تحديد التدابير الفعالة للتعامل مع التحديات النفسية التي تنشأ عند الزوجين نتيجة للأزمات المالية، وإيجاد السبل للتغلب على هذه التحديات وتعزيز الاستقرار النفسي للزوجين والأسرة.

2- تحديد العوامل المؤثرة في الاستقرار النفسي للزوجين، مثل الدعم الاجتماعي والاقتصادي والعوامل النفسية الأخرى التي تؤثر على العلاقات الزوجية.

3- توجيه السياسات والخطط الحكومية والتعليمية والصحية لتحسين الصحة النفسية للأفراد والزوجين والأسر في حالات الأزمات المالية.

4- تطوير البرامج التعليمية والتدريبية لتعزيز مهارات التحكم في الضغوط النفسية والتعامل مع الأزمات المالية بشكل فعال.

رابعاً- حدود الدراسة:

1- الحدود المكانية: شمال لبنان.

2- الحدود الزمانيّة: العام الحالي 2022-2023.

3- الحدود البشريّة: الأسر والأزواج، وخاصّةً من يُعانون من أزمات ماليّة.

4- الحدود الموضوعيّة: المتزوجون في منطقة شمال لبنان في العام الحالي، حيث يواجهون أزمات متعددة أثقلت كاهلهم: أزمة غلاء المعيشة وأزمة البطالة وأزمة إقتصادية خانقة، وغيرها من الأزمات.

خامساً- فرضيات الدّراسة:

نستطيع إيجاز فرضيات دراستنا هذه من خلال عدّة نقاط كالآتي:

1- يوجد أثر للأزمة المالية على الاستقرار النفسي للزوجين.

2- توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين المتزوجين الذكور والمتزوجات الإناث على مستوى الاستقرار النفسي في ظل الأزمة المالية.

3- توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين المتزوجين باختلاف مدة الزواج على مستوى الاستقرار النفسي في ظل الأزمة المالية.

سادساً- أسئلة الدّراسة:

1- هل يتأثر الاستقرار النفسي للزوجين بالأزمة المالية الحاصلة ؟

2- هل يختلف مستوى الاستقرار النفسي للزوجين في ظلّ الأزمة المالية باختلاف جنس الزوج (ذكر، أنثى)؟

3- هل يختلف مستوى الاستقرار النفسي للزوجين في ظلّ الأزمة المالية باختلاف مدة الزواج (زواج أقل من سنة، من 1 حتى 5 سنوات، من 6 حتى 10 سنوات، من 11 حتى 15 سنة، أكثر من 15 سنة)؟

سابعاً- منهجية الدّراسة:

في إطار دراستنا هذه يتحدد منهج الدراسة في المنهج التحليلي الذي يعتمد على جمع المعلومات من العينة وفرزها وتصنيفها وتحليلها. يتم ذلك إستناداً على إستبيان خاص بموضوع الدراسة «أثر الأزمة المالية على الإستقرار النفسي للزوجين»، والمتغيرات الديموغرافية المحددة ضمن إطارها (الجنس، مدّة الزواج).

ثامناً- مُجتمع وعيّنة الدّراسة:

1- مجتمع الدراسة:

انحصر مجتمع الدراسة في المتزوجين من منطقة شمال لبنان في العام الحالي 2022-2023 حيث يواجهون أزمات متعددة أثقلت كاهلهم: أزمة غلاء المعيشة، أزمة البطالة، أزمة إقتصادية، أزمة صحية والعديد من الأزمات الإجماعية.

2- عيّنة الدراسة:

وبعد تجهيز استبيان خاص بالدراسة ومتغيراتها، تم توزيعه بشكل عشوائي على مجتمع الدراسة باستخدام Google Forms، بهدف جمع معلومات ميدانية تم تحليلها وتفسيرها وفقاً لأهداف الدراسة. فيما يلي جدول يعرض خصائص العينة العشوائية التي تم الحصول عليها:

| المتغير الديموغرافي | | ن = 307 |
|---------------------|----------------|---------|
| الجنس | ذكور | 103 |
| | إناث | 204 |
| مدة الزواج | أقل من سنة | 52 |
| | 1-5 سنوات | 68 |
| | 6-10 سنوات | 58 |
| | 11-15 سنة | 59 |
| | أكثر من 15 سنة | 70 |

تاسعاً- طرق جمع البيانات:

سيقوم الباحث في عملية جمع للمعلومات والبيانات بالاعتماد على محورين أساسيين:

1- الجانب النظري:

في كتابة الجانب النظري للدراسة سيقوم الباحث بالاعتماد على ما توفر من معلومات وبيانات لمختلف الكتاب والباحثين وكلّ ماله صلة أو علاقة بمتغيرات البحث من مصادر ومراجع عربيّة وأجنبيّة على حد سواء، وتمثّلت في بعض المكتبات والكتب والدراسات الرّسائل والأطروحات والبحوث كما سيستعين الباحث بالشبكة الدّولية للانترنت والمجّلات العلميّة والتي عبرها سيضع الخلفيّة النظريّة للبحث.

2- الجانب العملي:

لإستكمال الجانب الميداني للبحث وكذلك للحصول على المعلومات والبيانات، سيعتمد الباحث على الاستمارة: وذلك عبر القيام باستبانة Google Form ترسل للعينة المبحوثة، وتتم الاجابة عنها ثم تحليل الإجابات. ومن ثم سوف استخدام تقنية الـ SPSS ليصار الى تفرّيع معلومات الاستبانة وتحليلها من خلال استخدام عدة معامل ليصار إلى التحقق من فرضيات البحث.

عاشراً- مفاهيم ومُصطلحات:

1- الأزمة المالية: وتعني الأزمة المالية أو الأزمة المالية العالمية عادةً، عدم القدرة على سداد الديون أو الخسائر المالية المتراكمة في النظام المالي العالمي، والتي تؤدي إلى تدهور الاقتصاد العالمي وتأثير سلبي على حياة الناس والشركات (Mishkin, 2011, p 31). وتُعرّف الأزمة الماليّة أيضاً على أنّها حدوث تدهور حاد في النظام المالي لدولة أو منطقة ما، يتسبب في تقلص الائتمان وارتفاع معدلات البطالة والفوضى الاقتصادية، ويترتب عليه خسائر للمستثمرين والبنوك والشركات والمواطنين بشكل عام. وتعد الأزمات المالية من أخطر المشاكل الاقتصادية التي يمكن أن تواجه الدول، حيث يمكن أن تؤدي إلى ركود اقتصادي طويل الأمد (Drees, B. 2011, p 2).

2- الأزمة المالية الأُسريّة: يُمكن تعريف الأزمة المالية الأُسريّة أو وصفها بأنّها الحالة التي تواجه فيها الأُسر صعوبات في سداد الديون المالية، أو عدم القدرة على تلبية الاحتياجات الأساسية بسبب الضائقة المالية الشديدة. تؤثر هذه الأزمة على نوعية الحياة والصحة النفسية للأفراد المعنيين بها (Schwartz, p 45، 2012).

وتُعرّف الأزمة المالية التي قد يُمرُّ بها الزوجان على أنّها حالة من عدم القدرة على سداد الديون والالتزامات المالية من قِبل الأسرة أو الفرد، وتتسبب غالباً بسوء إدارة المال والإنفاق الزائد وعدم القدرة على تحمّل التكاليف المالية (الحليمي، 2017، ص 89).

3- الاستقرار النَّفسي: هو الحالة النفسية التي يشعر بها الفرد عندما يكون قادراً على التعامل مع التحديات والضغطات اليومية بطريقة صحيحة، ويشعر بالرضا والسعادة في حياته (الجنابي، 2015، ص 59).

والاستقرار النفسي أيضاً هو تلك الحالة التي يشعر بها الفرد بالسكينة والاطمئنان النفسي والقدرة على التكيف مع المتغيرات المحيطة به والتعامل معها بطريقة صحيحة ومناسبة، بما يتيح له تحقيق الرضا والسعادة في حياته. ويتأثر الاستقرار النفسي لدى الفرد بالعديد من العوامل الداخلية والخارجية التي تؤثر على الشخصية والحالة النفسية، مثل الصحة العقلية والجسدية، والعلاقات الاجتماعية، والوضع المادي والاقتصادي، والبيئة العامة المحيطة بالفرد (الحلو، 2019، ص 22).

القسم الثاني:

أثر الأزمة المالية على الاستقرار النفسي للزوجين

أولاً- أدوات الدراسة:

تمّ إعداد استبانة خاصّة على مستوى الدّراسة الحاليّة ومتغيرتها وأهدافها. تكوّنت من 26 فقرة موزّعة على محورين (الأزمة المالية، الاستقرار النّفسي) حيث يحتوي المحور الأوّل على 12 فقرة، بينما يحتوي المحور الثّاني على 13 فقرة. تهتم الفقرات بمعرفة مدى تأثير المتزوجين بالأزمة المالية الحاصلة وتداعياتها السلبية على علاقتهم اليومية واستقرارهم النفسي والعاطفي والانفعالي، ويتم الإجابة عليهم من قبل العيّنة وفق التقديرات الرباعية التالية: غير موافق، محايد، أوافق، أوافق بشدة. يتم تصحيح الإجابات وفق الدرجات التالية: 1، 2، 3، 4. بهدف التأكيد من صدق الفقرات المكوّنة للاستبانة، تمّ اتباع الخطوات التالية:

1- الصدق البنائي: يقصد به قدرة الإستبانة على الكشف عن السّمة أو الظاهرة السلوكية المراد قياسها. ومن المعلوم أنّ ارتباط الفقرة بالدرجة الكلية للمحور الخاص بها هو مؤشر على أنه يعدّ صادقاً بنائياً. وقد تحققت الباحثة من هذا الصدق باستخدام معامل ارتباط بيرسون لاستخراج العلاقة بين درجة كل فقرة من الفقرات والدرجة الكلية للمحاور المكونة للاستبيان بعد تطبيقه على عينة استطلاعية قوامها 150 متزوج ومتزوجة من شمال لبنان. يوضح الجدول التالي معامل الإرتباط الخاصة بكل فقرة.

جدول رقم 1: معامل الإرتباط بين كل عبارة والدرجة الكلية لمحاور الإستبانة (R correlation)

| الرقم | العبرة | قيمة الإرتباط | مستوى الإرتباط |
|---------------------|--|---------------|----------------|
| محور الأزمة المالية | | | |
| 1 | تواجهان كزوج وزوجة صعوبات مالية منذ الأزمة المالية الحديثة | 0.854 | ارتباط قوي |
| 2 | فقدتما وظيفة أو تعرضتما لانخفاض في الدخل بسبب الأزمة المالية | 0.785 | ارتباط قوي |

| | | | |
|-----------------------|---|-------|----------------|
| 3 | تستطيعون كأسرة شراء حاجاتكم الرئيسية | 0.921 | ارتباط قوي جدا |
| 4 | تضطرون كأسرة إلى تحمل ديون إضافية بسبب الأزمة المالية | 0.913 | ارتباط قوي جدا |
| 5 | اضطرتما أنت أو زوجتك (زوجك) إلى الاعتماد على العائلة أو الأصدقاء للحصول على الدعم المالي | 0.897 | ارتباط قوي |
| 6 | يعاني أحدكما أو كلاكما من مشاكل صحية نتيجة الازمة المالية | 0.752 | ارتباط قوي |
| 7 | اضطر أحدكما أو كلاكما البحث عن دوام عمل إضافي | 0.956 | ارتباط قوي جدا |
| 8 | تضطرون كأسرة إلى الانتقال من منزل لآخر بسبب عدم استطاعتكم تسديد أجار المنزل | 0.836 | ارتباط قوي |
| 9 | اضطرتم لبيع أحد ممتلكاتكم لتأمين احتياجاتكم (سيارة - أرض - ذهب ... الخ) | 0.785 | ارتباط قوي |
| 10 | تضطران كزوج وزوجة إلى إجراء تغييرات على أهدافكما أو تطلعاتكما بسبب الصعوبات المالية | 0.936 | ارتباط قوي جدا |
| 11 | تضطران كزوج وزوجة إلى إجراء تغييرات على حياتكما الاجتماعية بسبب الصعوبات المالية | 0.916 | ارتباط قوي جدا |
| 12 | تضطرون بسبب الأزمة لصرف كافة مدخراتكم | 0.821 | ارتباط قوي |
| محور الاستقرار النفسي | | | |
| 13 | تضطران كزوج وزوجة إلى القيام بخطة تكشف تمنعكما من ممارسة هواياتكما المفضلة او الذهاب لأماكن الترفيه | 0.956 | ارتباط قوي جدا |
| 14 | سببت الأزمة المالية التوتر بينكما كزوج وزوجة | 0.899 | ارتباط قوي |
| 15 | سببت بمشاعر اليأس أو العجز | 0.932 | ارتباط قوي جدا |
| 16 | سببت الأزمة المالية في قلقكما بشأن مستقبلكما | 0.954 | ارتباط قوي جدا |

| | | | |
|-----------------|-------|---|----|
| ارتباط قوي | 0.863 | خلقت الأزمة المالية مشاعر عدم الأمان لدى أحدكما أو كلاكما | 17 |
| ارتباط قوي جداً | 0.987 | تعانون من فقدان الثقة المتبادل | 18 |
| ارتباط قوي جداً | 0.924 | تتمكنون من خلق علاقة إيجابية وداعمة | 19 |
| ارتباط قوي | 0.867 | تعانون من مشاعر العزلة أو الوحدة | 20 |
| ارتباط قوي جداً | 0.924 | تتمكنون من الحفاظ على نظام دعم نفسي | 21 |
| ارتباط قوي | 0.865 | زادت الأزمة المالية من مشاعر الغضب بينكما | 22 |
| ارتباط قوي | 0.788 | سببت الأزمة المالية خلافات زوجية بشكل مستمر | 23 |
| ارتباط قوي جداً | 0.911 | زادت الأزمة المالية من احتمالية الطلاق بينكما | 24 |
| ارتباط قوي | 0.894 | بدأتما فعلاً باللجوء للطلاق | 25 |
| ارتباط قوي جداً | 0.954 | تأثرت علاقتهما الحميمة في ظل الأزمة المالية | 26 |

يتبين من النتائج الإحصائية الواردة في الجدول أعلاه وجود مستوى ارتباط قوي وقوي جداً بين الفقرات والمحور الذي تنتمي إليه. بالتالي تعكس وجود صدق جيد في قياس مستوى وجود الأزمة المالية لدى المتزوجين وتأثيراتها على إستقرارهم النفسي. ومن أجل التأكد أكثر من معامل الصدق للاستبانة بفقراتها ومحاورها، تم احتساب القوة التمييزية بأسلوب المجموعتين المتطرفتين للفقرات المكوّنة للإستبانة.

أ- القوة التمييزية لفقرات الإستبانة:

بعد الترتيب التنازلي للدرجات الخام للعينة الاستطلاعية، تمّ تقسيمها إلى مجموعتين بقيمة 50 % للمجموعة العليا، و50 % للمجموعة الدنيا. وتم احتساب اختبارات T-test لمعرفة دلالة الفروقات الاحصائية بينهما عند مستوى 0.05. يبين الجدول رقم 2 القيم الإحصائية.

جدول رقم 2:

القيم التائية لفقرات الاستبانة لمعرفة دلالة الفروق بين المجموعتين العليا والدنيا

| الرقم | المجموعة العليا | | المجموعة الدنيا | | المحسوبة | الجدولية |
|-------|-----------------|---------|-----------------|---------|----------|----------|
| | المتوسط | التباين | المتوسط | التباين | | |
| 1 | 4.42 | 0.85 | 2.58 | 0.99 | 2.699275 | 2.03 |
| 2 | 3.83 | 0.43 | 3.28 | 0.92 | 2.100864 | |
| 3 | 4.88 | 0.33 | 2.92 | 1.27 | 3.273712 | |
| 4 | 3.9 | 0.3 | 2.9 | 1.15 | 3.619869 | |
| 5 | 3.46 | 0.88 | 1.89 | 1.24 | 4.700115 | |
| 6 | 3.3 | 0.89 | 1.46 | 1.33 | 5.382923 | |
| 7 | 3.35 | 0.78 | 1.94 | 1.3 | 4.261517 | |
| 8 | 3.69 | 0.72 | 2.88 | 1.04 | 2.661371 | |
| 9 | 3.09 | 1.15 | 2.06 | 1.34 | 2.84521 | |
| 10 | 3.46 | 0.94 | 2.37 | 1.26 | 3.203258 | |
| 11 | 3.76 | 0.5 | 2.44 | 1.02 | 4.666905 | |
| 12 | 3.68 | 0.71 | 2.13 | 1.28 | 4.789409 | |
| 13 | 3.33 | 0.91 | 1.85 | 1.32 | 4.320023 | |
| 14 | 3.28 | 0.91 | 1.85 | 1.32 | 4.174077 | |
| 15 | 1.97 | 1.29 | 0.82 | 1.26 | 3.139096 | |
| 16 | 3.83 | 0.48 | 2.94 | 1.31 | 2.899615 | |
| 17 | 3.64 | 1.53 | 1.41 | 1.51 | 5.575 | |
| 18 | 3.42 | 1.02 | 2.66 | 1.36 | 2.147345 | |
| 19 | 3.77 | 1.4 | 2.13 | 1.62 | 4.113554 | |
| 20 | 3.83 | 0.41 | 2.8 | 1.25 | 3.484657 | |
| 21 | 3.63 | 0.43 | 2.42 | 1.18 | 4.156705 | |
| 22 | 3.46 | 0.67 | 2.07 | 1.22 | 4.407179 | |
| 23 | 3.53 | 0.74 | 2.05 | 1.3 | 4.516723 | |
| 24 | 2.62 | 1.19 | 1.22 | 1.36 | 3.821508 | |
| 25 | 3.69 | 0.62 | 2.27 | 1.18 | 4.613483 | |
| 26 | 3.46 | 0.94 | 2.71 | 1.33 | 2.169827 | |

تبين النتائج الواردة أعلاه، أنّ دلالة الفقرات مميزة ودالة عند مستوى 0.05 حيث أتت قيمة ت المحسوبة أعلى من قيمة ت الجدولية بدرجة حرية 38.

د- الثبات :

بالرغم من أن صدق الاستبانة يعكس ثباتها، إلا أنه تم احتساب مستوى الثبات للتأكد من استقرارية النتائج عند التطبيق للمرة الثانية. تم احتساب معامل الارتباط بيرسون Pearson correlation.

جدول رقم 3: معامل ألفا كرونباخ

| الدالة | قيمة معامل ألفا كرونباخ alpha Cronbach |
|-------------|--|
| قيمة مرتفعة | **0,897 |

**دالة عند مستوى 0.01

تعكس القيمة الواردة في الجدول أعلاه أن قدرة الاستبانة هي عالية في تحديد مستوى الأزمة المالية والاستقرار النفسي لدى أفراد العينة الحالية. بالتالي يمكن تطبيقه واستخدامه والأخذ بنتائجه الإحصائية.

❖ عرض النتائج المتعلقة بالفرضيات وتفسيرها:

أولاً- التأكد من صحة الفرضية الأولى:

نصّ الفرضية: يوجد أثر للأزمة المالية على الاستقرار النفسي للزوجين.

جدول رقم 4: معامل الانحدار المتعدد بين ثنائية الأزمة المالية والاستقرار النفسي للزوجين

| المتغير التابع | المتغيرات المستقلة | قيمة (t) | مستوى الدلالة | معامل الارتباط (R) | معامل التحديد (R ²) | مستوى دلالة للنموذج |
|--------------------------|--------------------|----------|---------------|--------------------|---------------------------------|---------------------|
| الاستقرار النفسي للزوجين | (Constant) | 10.039 | 0.000 | - 0.983 | 0.931 | 0.000 |
| | الأزمة المالية | 18.183 | 0.000 | | | |
| | | | | | | |
| | | | | | | |

من خلال الجدول أعلاه يظهر أن مستوى الدلالة للنموذج يساوي 0.000 وهي قيمة أصغر من مستوى الدلالة المعنوية (ألفا = 0.05) لذلك نرفض الفرضية الصفرية ونقبل الفرضية البديلة القائلة بوجود تأثير ذو دلالة إحصائية للأزمة المالية على الاستقرار النفسي للمتزوجين في منطقة شمال لبنان (ن=307).

كما ويظهر من خلال الجدول أعلاه، أنّ معامل الارتباط R يساوي (0,983 -)، أي أن العلاقة بين المتغيرين المستقل والتابع هي علاقة عكسية مرتفعة وقوية جداً، كما ويظهر أنّ معامل التحديد R^2 يساوي (0.931) وتعني أنّ المتغيرات المستقلة تفسّر المتغيرات التابعة بنسبة 91.3%.

بالتالي نستنتج من خلال ما سبق أنه هناك تأثير وارتباط سلبي قوي للأزمة المالية والاستقرار النفسي للزوجين، فالأزمة المالية حين تدخل باب العائلة نجد أن هناك تغيرات في طريقة العيش التي تعودت عليها العائلة المكونة أقلها من الزوجين، ومن تلك المتغيرات التقشف وترك النفقات غير الضرورية حتى بعض الضروريات نراها تختفي أحياناً من جو العائلة كالحجرات التي يحتاجها الإنسان أحياناً لتخفيف الضغط النفسي من خلال تغيير الجو وإدخال الراحة على نفس الزوجين، كما تدخل الأزمة المالية لدى الزوجين كفاعل للمشاكل الزوجية لعدم استطاعة الزوج تأمين إحتياجات زوجته المعتادة عليها حتى ولو كانت من الأمور غير الضرورية في حياتها، ولكنها اعتادت عليها منذ بداية رحلة الزواج كالهدايا للأصدقاء والزينة وغيرها.

ثانياً- التأكد من صحة الفرضية الثانية:

نصّ الفرضية: توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين المتزوجين الذكور والمتزوجات الإناث على مستوى الاستقرار النفسي في ظل الأزمة المالية.

بهدف التأكد من صحة الفرضية الثانية، تمّ احتساب الفروقات بين متوسطات مجموعة المتزوجين الذكور ومتوسطات مجموعة المتزوجات الإناث (اختبار T-test) على مستوى محور الإستقرار النفسي. يعكس الجدول التالي رقم 5 نتائج هذا الاختبار. جدول رقم 5: الفروق بين متوسطات المتزوجين الذكور ومتوسطات المتزوجات الإناث (اختبار T) على مستوى الاستقرار النفسي:

| الدرجة الكلية لمتغير الاستقرار النفسي | مجموعة المتزوجات الإناث ن=204 | | مجموعة المتزوجين الذكور ن=103 | | الدالة |
|---------------------------------------|----------------------------------|---------|----------------------------------|---------|------------|
| | الانحراف المعياري | المتوسط | الانحراف المعياري | المتوسط | |
| | 6.587 | 17.59 | 7.785 | 19.59 | 0.000 دالة |
| | 8.21 | | | | |

تكشف النتائج الواردة في الجدول أعلاه وجود فروق دالة بين المتزوجين الذكور والمتزوجات الإناث على مستوى الاستقرار النفسي في ظل الأزمة المالية التي يمرون فيها لصالح المتزوجين الذكور بفارق درجتين، حيث أن قيمة ت هي دالة عند مستوى 0.001. بالتالي، تحققت صحة الفرضية الثانية.

ومن خلال تلك الفروق لصالح الذكور نرى مدى أثر الإستقرار النفسي لديهم أكثر من الإناث. فمن المتعارف في المجتمعات الشرقية على تحمل الذكر مسؤولية الإنفاق على المنزل وتأمين احتياجاته سواء كان الذكر متزوجاً أم أعزباً، فالأعزب أيضاً لديه مسؤوليات تجاه عائلته وتأمين مستقبله واستعداده للزواج والارتباط، أما المتزوج فهو لديه المسؤوليات لتأمين احتياجاته أيضاً وخاصة إن كان ينفق على والديه إضافة لعائلته النواة.

من هنا نرى الترابط بين الأزمة المالية والإستقرار النفسي لديهم فكلما زادت الأزمة المالية قلَّ الاستقرار النفسي بسبب الضغوط النفسية التي سببتها تلك الأزمة.

ثالثاً- التأكد من صحة الفرضية الثالثة:

نصّ الفرضية: توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين المتزوجين باختلاف مدة الزواج على مستوى الاستقرار النفسي في ظل الأزمة المالية. (زواج أقل من سنة، من 1 حتى 5 سنوات، من 6 حتى 10 سنوات، من 11 حتى 15 سنة، أكثر من 15 سنة)؟

بهدف التأكد من صحة الفرضية، تم احتساب قيمة تحليل التباين متعدد الإتجاهات بين مجموعات المتزوجين باختلاف مدة الزواج على مستوى الاستقرار النفسي. يعكس الجدول رقم 6 النتائج الإحصائية.

جدول رقم 6: تحليل التباين متعدد الإتجاهات بين مجموعات المتزوجين وفق متغير مدة الزواج على مستوى الإستقرار النفسي.

| الدرجة الكلية | مصدر التباين | مجموع المربعات | درجة الحرية | متوسط المربعات | قيمة ف | مستوى الدلالة |
|------------------|----------------|----------------|-------------|----------------|--------|---------------|
| للاستقرار النفسي | بين المجموعات | 33.652 | 3 | 9.532 | 2.931 | 0.089 دالة |
| | داخل المجموعات | 25.2365 | 2 | 8.89755 | | |
| | المجموع | 3.3535 | | | | |

تبدو الفروقات الإحصائية في ضوء مُعطيات الجدول السادس دالة إحصائيًا عند مستوى 0.001 على مستوى الاستقرار النفسي في ظل الأزمة المالية الحاصلة. بمعنى آخر نقول، توجد فروقات جوهرية بين مجموعات المتزوجين الخمسة (زواج أقل من سنة، من 1 حتى 5 سنوات، من 6 حتى 10 سنوات، من 11 حتى 15 سنة، أكثر من 15 سنة) على مستوى الاستقرار النفسي. بالتالي، يُقبل نُصُ الفرضية.

بهدف التأكد من نوعية الفروقات الاحصائية بين المجموعات الخمسة، تم احتساب اختبار LSD الذي بتوضيح مصدر الفروقات بين المجموعات المُتباينة لإجراء مقارنات بعدية بين المتوسطات الحسابية. تتبين النتائج في الجدول رقم 7 .

جدول رقم 7: الفروق بين متوسطات مجموعات المتزوجين الخمسة على مستوى الإستقرار النفسي LSD.

| المجموعات الخمسة | المتوسط | الوسط التمييزي | الخطأ المعياري | درجة الدلالة |
|------------------|-------------------|----------------|----------------|---------------|
| زواج أقل من سنة | من 1 حتى 5 سنوات | 9.34 | 1.3 | 0.05 غير دالة |
| | من 6 حتى 10 سنوات | 9.33 | 1.2 | 0.05 غير دالة |
| | من 11 حتى 15 سنة | 9.55 | ** 3.45 | 0.000 دالة |
| | أكثر من 15 سنة | 9.89 | ** 3.65 | 0.000 دالة |

| | | | | | |
|-------------------|-------------------|------|--------|-------|---------------|
| من 1 حتى 5 سنوات | زواج أقل من سنة | 9.31 | 1.2 | 0.321 | 0.05 غير دالة |
| | من 6 حتى 10 سنوات | 9.33 | 9.33 | 1.2 | 0.05 غير دالة |
| | من 11 حتى 15 سنة | 9.55 | **3.45 | 0.323 | 0.000 دالة |
| | أكثر من 15 سنة | 9.89 | **3.65 | 0.412 | 0.000 دالة |
| من 6 حتى 10 سنوات | زواج أقل من سنة | 9.31 | 1.2 | 0.321 | 0.05 غير دالة |
| | من 1 حتى 5 سنوات | 9.34 | 1.3 | 0.322 | 0.05 غير دالة |
| | من 11 حتى 15 سنة | 9.55 | **3.45 | 0.323 | 0.000 دالة |
| | أكثر من 15 سنة | 9.89 | **3.65 | 0.412 | 0.000 دالة |
| من 11 حتى 15 سنة | زواج أقل من سنة | 9.31 | 1.2 | 0.321 | 0.05 غير دالة |
| | من 1 حتى 5 سنوات | 9.34 | 1.3 | 0.322 | 0.05 غير دالة |
| | من 6 حتى 10 سنوات | 9.33 | 9.33 | 1.2 | 0.05 غير دالة |
| | أكثر من 15 سنة | 9.89 | **3.65 | 0.412 | 0.000 دالة |
| أكثر من 15 سنة | زواج أقل من سنة | 9.89 | **3.65 | 0.412 | 0.000 دالة |
| | من 1 حتى 5 سنوات | 9.34 | 1.3 | 0.322 | 0.05 غير دالة |
| | من 6 حتى 10 سنوات | 9.33 | 9.33 | 1.2 | 0.05 غير دالة |
| | من 11 حتى 15 سنة | 9.55 | **3.45 | 0.323 | 0.000 دالة |

يتضح من الجدول أعلاه أن المتزوجين الذين مضى على فترة زواجهم 11 سنة وأكثر هم أكثر إحساسًا بالاستقرار النفسي من أقرانهم المتزوجين أقل من عشرة سنوات. بدت الفروق دالة إحصائيًا على مستوى الاستقرار النفسي في ظل الأزمة المالية عند مستوى 0.001 بين مجموعة المتزوجين من 11 حتى 15 سنة ومجموعة المتزوجين لأكثر من 15 سنة لصالح الأخيرة. فيما بدت الفروقات غير دالة بين مجموعات المتزوجين منخفضي المدة الزمنية: زواج أقل من سنة، من 1 حتى 5 سنوات، من 6 حتى عشرة سنوات) بعبارة أخرى نقول، أن المتزوجين الذين لديهم فترة زمنية طويلة في زواجهم هم أكثر استقرارًا نفسيًا في ظل الأزمة المالية من أقرانهم قليلي المدة الزمنية المنخفضة في الزواج. وتعتبر هذه النتيجة منطقية نوعًا ما، حيث أن المتزوجين منذ فترة 11 سنة

وأكثر قد امتلكوا خبرات ومهارات زواجية وحياتية وإقتصادية ومادية ونفسية وإجتماعية كبيرة» مقارنة» بأقرانهم ذوي الفترة الزمنية المنخفضة، مكنتهم من معرفة كيفية الضبط والتصرف والتعامل مع الأزمات والمحن المتنوعة، عكس المتزوجين الحديثين الذين يُعتبرون في طور الإكتساب وكيفية التصرف والإدخار وتحقيق التوازن على مستوى المداخل والصرفيات للنواة الأسرية.

خلاصة:

مما سبق ومن خلال النتائج السابقة والفرضيات المحققة نرى مدى أهمية تأمين المال لدى الزوجين لتأمين الإحتياجات الأولية لهما فحسب هرم الإحتياجات لماسلو وأول الإحتياجات هي المأكل والمشرب والمسكن والملبس كإحتياجات أولية. نظرية ماسلو للإحتياجات وتسمى الحاجات الفسيولوجية و هي عبارة عن الحاجات الأساسية لبقاء حياة الإنسان وتمتاز بأنها فطرية أما تعتبر نقطة البداية في الوصول إلى اشباع حاجات أخرى وهي عامة لجميع البشر إلا أن الاختلاف يعود إلى درجة الإشباع المطلوبة لكل فرد حسب حاجته .

فتلك الإحتياجات هي لجميع العائلات النواة مهما كانت مدة الزواج فالعامل النفسي المتأثر بالأزمة المالية يزيد كلما زاد عدد افراد العائلة حيث تكثر المسؤوليات كلما زاد عدد الأفراد، فنفقات المأكل والمشرب والتعليم والتنقلات والملبس والحياة اليومية ومتطلباتها تزيد كلما زاد عدد افراد العائلة، وعليه يكون الإستقرار النفسي لتلك العائلة، أيضا لا ننسى نوع عمل الزوجين الذي يؤثر أيضا على حجم المدخول للعائلة وقدرتها على تأمين الإحتياجات.

مما سبق نستنتج أن الدرجة الكلية للإستقرار النفسي لها علاقة بالجنس ومدة الزواج وعدد افراد العائلة ونوع الإحتياجات وعدد الأولاد وغيرها من المؤثرات التي تزيد من الأزمة المالية .

مقترحات وتوصيات البحث:

- تطوير برامج محو الأمية المالية: تعزيز الثقافة المالية بين الأفراد والأزواج لتعزيز فهمهم للإدارة المالية ، وإعداد الميزانية ، وإدارة الديون ، والتخطيط المالي طويل الأجل. يمكن أن تساعد هذه البرامج الأزواج على تجاوز الأزمات المالية بمزيد من المرونة وتقليل العبء النفسي الناجم عن عدم الاستقرار المالي .
- تعزيز التواصل والتعاون: تعزيز التواصل المفتوح والصادق داخل العلاقات لتسهيل التفاهم والتعاطف والدعم المتبادل في أوقات الأزمات المالية. يجب تشجيع الأزواج على

مناقشة الأمور المالية واتخاذ القرارات بشكل مشترك.

- مناصرة السياسات واللوائح التي تحمي الأفراد والأسر أثناء الأزمات المالية. وقد يشمل ذلك تدابير مثل إعانات البطالة ، وبرامج الإعفاء من الديون ، والمساعدة في الإسكان.
- حملات توعية إرشادية حول كيفية تكيف العائلة في ظل الأزمة المالية والصحية.
- تأمين فرص عمل وزيادة مستوى الحد الأدنى من الأجور.

المراجع:

المراجع العربية:

- باهميم، أميرة، (د. ت.)، المشكلات الأسرية بعض الأسباب والمعالجة. القاهرة: دار الفارابي للنشر والتوزيع.
 - بكار، عبد الكريم، (2001)، دليل التربية الأسرية (ط 1). الأردن: دار الإعلام.
 - الجنابي، حميد محمد عبد الحسين. (2015). الصحة النفسية: الجسم والنفس والروح. العراق، بغداد: دار الكتب العلمية.
 - الحلوة، عبد الحميد. (2019). الاستقرار النفسي والصحة العقلية. الأردن: مركز النور للنشر والتوزيع.
 - الحلبي، محمد عبد الله. (2017). إدارة المال الأسري: دليل عملي. العراق، بغداد: دار الرافدين للنشر والتوزيع.
 - السرطاوي، محمود، (2008)، الزواج والطلاق. عمان: دار الفكر.
 - عبد الرحيم، آمال، (1993)، ظاهرة الطلاق في سوريا أسبابها ومتغيراتها الاجتماعية المعاصرة. رسالة دكتوراه غير منشورة جامعة دمشق، دمشق.
- المراجع الأجنبية:

- Carol Sorgen (26-9-2013), “7 Solutions That Can Save a Relationship”, www.webmd.com, Retrieved 31-12-2019. Edited.
- Drees, B. (2011). Financial Crisis: Definition, History, and Recovery. Springer Science & Business Media.
- Mishkin, F. S. (2011). The economics of money, banking, and financial markets (10th ed.). Pearson.
- Schwartz, B. K. (2012). Encyclopedia of knowledge management (2nd ed.). IGI Global.

On the Healing Role of Philosophy

Dr. Eliane Saade

Ph.D, Political
Philosophy

I- Introduction

In his *Nicomachean Ethics*, Aristotle questions the purpose of life elaborating therefore a theory of happiness, which is still significant for the current philosophical debate. Answering the question, “What is the ultimate purpose of human existence?” he argues that happiness is the end or purpose or goal, to which all human activities should be inclined over a lifetime. But, even if we can grasp the meaning of happy moments and enjoyable situations, it is not possible to know whether someone’s life is a happy life before it ends. Whereas for Aristotle, it depends on how well the person has lived their life and if they have fully explored their human potential, according to the classical version of utilitarianism, as defined by Jeremy Bentham in his *Introduction to the Principles of Morals and Legislations*, human beings tend to achieve their happiness by increasing the utility of their action. Hence the “greatest happiness of the greatest number”, which defines happiness as the sum of pleasures and pains. Following the hedonist utilitarian conception of happiness, rational human beings tend to naturally augment their pleasure and diminish their pain in order to maximize the utility of their action and thereby realize their happiness.

So, whether following Aristotle or Bentham, human beings are held responsible for achieving their happiness by fully exploring their human potential and increasing the utility of their actions. However, in order to reach

this endeavor based on a natural human tendency to be happy, happier, or the happiest, an enormous work has been done in the psychological field to help people understand themselves, their past, and the causes of their emotional and rational behaviors. Different psychological approaches are applied to make people contemplate their actions, evaluate their outcomes, situate themselves and others regarding the quality of their lived experience, and judge the way they are affected by their environment.

Yet, combining its ancient guiding virtues with different philosophical methods, whether as presented by Gerd Achenbach¹ – who is widely known to have founded the philosophical practice in 1981, – or the Socratic dialogue as applied by Oscar Brenifier², or the phenomenological approach in concert with the interactive guided imagery technique, or the new rational therapy as explored by Elliot Cohen³, the current rising movement of philosophical practitioners with their different counseling approaches, is a proof of philosophy's contemporary renaissance as a discipline of useful practice. The role of philosophy is not only to question concepts at a theoretical level, but rather to provide solutions to human problems at a practical level. With its methods that include questioning, critical discussion, rational argumentation, and its theories, virtues and concepts, philosophy, can deal, as proven by the aforementioned philosophers, with existential human problems, self-destructive emotions, and moral dilemmas on a daily basis. But, does the philosophical practice prove satisfactory, even if necessary, to deal with these problems, dilemmas and emotions, related to a large extent to the past, and caused by psychological traumas and lived experience? Does it prove adequate to regulate these problems, dilemmas and emotions without looking at the causes that mostly lie in psychological issues? Nonetheless, if the philosophical tools are the same for all philosophical practices, then what would explain the methodological differences in philosophical counseling? How sufficient is the philosophical approach per se in regulating, for the long run, self-destructive emotions lived on a daily basis? In dealing with destructive emotions for example, how convincing and sustainable is the exclusive application of the philosophical approach, like the one promoted by Cohen, without using the psychological tools and even combining both fields (the philosophical and the psychological) in order to evaluate the problem, and at best deal with it proposing a long term solution?

In the following, I start by examining the Cohenian new rational therapy that aims at regulating self-destructive emotions by correcting the underlying deceitful emotional reasoning. Then, I would present a critique of this method

in reaching the aim it pretends to realize for long-term and sustainable results, trying to complete it with both theological and psychological elements.

II- Logic-Based Therapy: Method and Principles

Logic-Based Therapy (LBT) is a dynamic, philosophical form of cognitive-behavior therapy (CBT). It is distinct from other forms of CBT because it constantly adopts a justification framework instead of a causal one. If Cognitive Therapy (CT) speaks in terms of “automatic thoughts” that arise spontaneously as a result of a kind of reflex without any process of reasoning, Rational-Emotive Behavior Therapy (REBT) speaks in terms of “activating events”, which together with beliefs, produce behavioral and emotional consequences” (Ellis & Bernard, 1986, pp. 11-12). However, there is no other theory, except for Logic-Based Therapy that attempts to show how such “automatic thoughts,” “activating events,” and “consequences” are more practically viewed as elements of a process of reasoning, which can be addressed therapeutically by applying the tools of logic and philosophy.

Following Aristotle, logic is concerned with reasoning in order to reach scientific certainty. It is indeed the study of reasoning, which provides standards for distinguishing good and bad reasoning. LBT applies these standards in distinguishing good, rational, behavioral and emotional reasoning from bad, irrational, behavioral and emotional reasoning. In fact, every syllogism or reasoning consists of two components: at least one premise, and one conclusion. For example, if the major premise states that: If inhaling tobacco burning poses health risks to people. The minor premise could be that: A second-hand smoke is the combination of tobacco burning and the smoke breathed out by smokers. Then the conclusion would be that: Inhaling second-hand cigarette smoke poses health risks to people. The argument is sound because a tobacco burning is a tobacco burning and inhaling it causes health risks whether you are the smoker or a second-hand smoker. So, the premises of the reasoning provides the reasons or evidence that is used in order to support the conclusion. Accordingly, the conclusion of the syllogism is a statement, an object of belief, on the basis of the premises. For example, in the following reasoning, “I should always tell the truth because that’s what I would expect of others”, I am concluding that I should always tell the truth, based on the premise that I would expect the same from others.

According to the same understanding of syllogism, Cohen affirms that people deduce their emotional problems from irrational premises in their belief

systems. By distinguishing between repression and suppression, he argues that people tend to suppress their irrational rules in their reasoning.

1) Repression versus Suppression

In *The Interpretation of Dreams* (1899), Freud asserts that the unconscious is the true psychic reality as far as its deepest nature is concerned. This argument about the true psychic reality seemed to be something very new and revolutionary.

Thus, the unconscious has become with Freud a system of positive and active dynamic forces, tendencies and repressed feelings which spring and arise at the level of consciousness through access routes such as dreams, neuroses, and psychoses. Its manifestations, however, cause most often a disturbance at the level of the psychic life. Hence the importance of understanding the unconscious mechanism in order to make conscious everything that is unconscious which would allow to restore the lost psychic balance or equilibrium. Freud proposes two theories of the psychic apparatus. In the first topic, he explores the structure of the psyche that he divides into three instances that coexist together in a psychic dynamism: the conscious, the preconscious and the unconscious.

The unconscious is the set of repressed psychic facts which have not been able to access the system of the preconscious and the aware, according to the pleasure principle (desire-immediate satisfaction-pleasure). The preconscious is the actualizable aspect of the unconscious, of latent psychic facts. It approaches the conscious and constitutes with it an association and a unity of perception. Finally, the consciousness is what makes contact with reality. It is the privileged place of adaptation, the category of the present and the place of thought. Preconscious and conscious are linked to the reality principle (desire-expectation-satisfaction-pleasure).

Before going any further, it seems important to define repression, according to which one can restore or lose the balance of the psyche. Repression is a basic mechanism, one of the defense mechanisms. This concept, which is the very center of psychoanalytic theory, is also the center of psychic life. Freud says that it is the operation which pushes back or which maintains in the unconscious the representations inaccessible to consciousness. Repression, therefore, takes place in the case where the satisfaction of an instinct, which is capable of giving pleasure in itself risks at the same time giving displeasure with regard to other demands. This mechanism is therefore partly or totally unconscious. Its purpose is to safeguard the integrity of the ego.

Nevertheless, this first topic soon seemed insufficient because it opposed, to unconscious impulses, a force of conscious repression. But the analysis revealed to Freud that the repression was also unconscious. In the second topography exposed in "the Ego and the Id" he will use the term unconscious to refer to the "Id", but also the super-ego and a part of the ego. The Id is totally unconscious. It represents the set of instincts, tendencies which require satisfaction or pleasure. The Id ignores the value judgment, the good, the bad, and the moral. A person ruled by the Id is erotic, amoral. The ego is a central authority governed by the principle of reality. It is the place where conflicts are played out and where regulations operate. The ego is permanently torn between the absolute demands of the Id and the prohibitions of the superego. If regulation fails, then neurosis appears. A person ruled by the ego is narcissistic. The superego, nonetheless, is the product of prohibitions and moral obligations coming from the socio-cultural family and environment. Despite its seemingly high place in the hierarchy, the superego is partly unconscious. It is most often a severe and rigid judge. It represents order and law and it belongs to the register of the father. A person ruled by the superego is obsessive.

So the ego is the victim of this conflicting constitution of the psychic apparatus. According to Freud, the psychic apparatus is not a united substance and transparent to itself, which means that man is not master of himself. Consequently, consciousness is not the fundamental force of the psyche.

So, the idea of repressed memories goes back to Freud, who was the first psychologist to bring it into the mainstream. Repression is the unconscious blocking of unpleasant emotions, impulses, memories, and thoughts from the conscious mind. "[I]t is the incompatible, repressed wishes of childhood which lend power to the creation of symptoms. Without these the reactions upon later traumata discharge normally". (The Origin and Development of Psychoanalysis, Sigmund Freud, 1910, first published in *American Journal of Psychology*, 21, 181-218) Freud believes that there are parts in our mind that we can regularly access and other parts that we cannot, which are called the subconscious. However, we can try to discover it through the psychoanalysis of our thoughts, actions, habits, feelings and behaviors. In the article written in April 2022 by Jon Jaehnig and medically reviewed by Lauren Guilbeault⁴, "Approaches for Repressed Memories", the author explains that repressed memories are often traumatic experiences that the mind refuses to deal with. "The idea is that some experiences are so hard for the mind to deal with that the mind simply refuses to deal with them. The individual may have other

symptoms of the traumatic experience but doesn't have a memory of the event itself."⁵ The best way to deal with repressed memories is not to keep them repressed, but rather to push people in a talk therapy to encounter them by making them aware about them. "Some clients seek out repressed memory counseling because they believe that they have repressed memories. Other times, the client is unaware of any repressed memories or even the concept of repressed memories, and it is the therapist or counselor who thinks that the client may have them."⁶

However, suppression is "person's effective try to stop thinking about negative things, or better said to try to gain control over undesirable thoughts, ideas, desires."⁷ For example, drug abusers who are on rehabilitation are asked to suppress their drug desires. According to Cohen, it is not ordinarily repressed wishes about the past that are most destructive of human happiness, but rather suppressed irrational premises in our reasoning that tend to harm the most. Moreover, in one of his answers to my emails in September 2021, while I was completing the LBT practical training under his supervision, Cohen said that "also, typically people with repressed thoughts will deny their veracity when asked, whereas suppressed thoughts are typically defended. E.g. a client whose parent sexually molested her will vehemently deny it if confronted. On the other and, a client who is suppressing that parental disapproval means she's unworthy will agree with this premise when brought to her attention." So, if repression is done unconsciously, suppression is conscious and could be made aware of itself. As a matter of fact, whereas psychotherapy is needed to treat repressed wishes and memories, LBT has much more to say about the treatment of suppressed irrational premises in one's reasoning. It recognizes eleven fallacies that are responsible for much human unhappiness: there are eight fallacies of rules and three fallacies of reports. Following Cohen, we suppress fallacies, we do not repress them. In fact, when we make practical decisions, the rules we apply are assumed but not articulated. And because these rules are assumed, they cannot be hidden in our unconscious, nor are they forgotten for the same reason. So, the rules we assume are suppressed like in the following example: "If I screw up at something, then I'm myself a screw-up" (Cohen, *The New Rational Therapy*, p. 9). Even without articulating the rule of damnation, it has been assumed in the reasoning so that the conclusion follows as such.

"In such cases, we philosophers say the rule in question is a suppressed premise, not a repressed belief. The fallacious rules in practical reasoning are ordinarily suppressed, not repressed. The suppressed rule is not buried in your

unconscious. It's simply unstated or unexpressed even though accepted. It is implicit in what you say or think, even though you are not (explicitly) saying or thinking it to yourself when you apply it" (Ibid.).

Furthermore, Cohen highlights another difference between a suppressed and a repressed thought. According to him, people tend to reject repressed thoughts if called to their attention and they may feel uncomfortable about their suggestion, since a repressed thought is supposed to stay unconscious. However, people tend to insist on their suppressed rules when they are called to their attention, as if they were self-evident without any further proof. "Of course, screwing up at something makes that person a screw-up! Isn't that obvious?" (Ibid.).

2) The Fallacies

As mentioned in the introduction, philosophers from antiquity, "have warned against relying on irrational patterns of thought in concluding the affairs of life" (Ibid., p. 4). In explaining a form of reasoning he called "practical syllogism", Aristotle shows that a reasoning has two premises and one conclusion. One of these premises is a rule and the other is an opinion. A rule implies an "ought", "should", or "must" and it accordingly tells the person what to do or how to feel. An opinion, however, is a statement of particular fact, a report that is filed under the rule. The particular thing about this reasoning is that its outcome or conclusion is not a simple statement but an action or an emotion or a behavior. For example, if a person does something that you absolutely dislike, like lying to you, then as a conclusion you would consider this person as totally worthless. In the case at hand, the premise which implies an emotional rule is if someone is doing something totally unacceptable then the conclusion would be that this person is totally worthless and should be therefore damned. Suppose that Jack lies to you then your conclusion would consider him as totally worthless and he should at least be blamed or even damned. The emotional reaction to his lies is anger or rage and it would be the practical conclusion of your reasoning. And "it would include not just other thoughts- like, "Jack should be damned"- but also bodily changes associated with anger, like increased adrenal activity, respiration, and heart race" (Ibid., p. 5). This conclusion as well as other behavioral rules you accept, will let you put Jack in his place. These additional rules recommend "putting people in their place by calling them names, threatening them, harming them, or even killing them. Did you ever think about what it takes for a soldier to learn how to kill another human being? Indoctrinate him to perceive the "enemy" as less than human, and the rest is history" (Ibid.).

So, the personal happiness at both individual and social levels depends on the premises behind the emotions and behavior. This is exactly the place where philosophy has to deal with psychological practice in order to rectify the reasoning behind the emotion, in contrast with traditional psychology which aim is to unveil the repressed thoughts as well as the reason behind the repression. "Philosophers look at things in terms of reasoning from premises to conclusions. They look at your premises to see if your reasoning is sound" (Ibid., p. 6). However, traditional psychology deals with the psychological issues in terms of cause and effect. "Instead of looking for causal laws, a philosophical approach attempts to identify and catalog the various types of fallacious premises in destructive patterns of reasoning" (Ibid.). Can we say that LBT is trying to a certain extent to accomplish the mission usually attributed to psychology by examining our reasoning for erroneous fallacies instead of looking for the causes of our self-destructive behavior and emotions? Is Cohen trying to minimize the role of psychological therapies by aiming at restoring negative behaviors and emotions?

Cohen identifies eleven fallacies (Ibid. p. 6-7) which he distinguishes between eight fallacies of behavioral and emotional rules and three fallacies of reporting, which I am going to explore in the following.

Fallacies of Behavioral and Emotional Rules

1. Demanding perfection: Perfect-a-holic addiction to what you can't have in an imperfect universe.

This is according to Cohen one of the most destructive forms of irrational thinking. It's a psychological addiction based on a perceived and doomed need for the absolute. In his therapy, he refers to it by both terms "demandingness" and "musturbation" as being the source of most human emotional and behavioral disorders. Cohen formulates it as follows: "If the world fails to conform to some state of ideality, perfection, or near perfection, then the world is not the way it absolutely, unconditionally must be, and you cannot and must not ever have it any other way" (Ibid. p. 27).

2. Awfulizing: Reasoning from bad to worst.

Cohen argues that because we live in an imperfect world, bad in the sense of imperfect things could easily happen. But how bad do things have to get before we say that they are terrible, horrible and awful? Cohen defines the awfulizing fallacy as follows: "If something shitty happens or might happen to you or to a significant other, then it's totally terrible, horrible, and awful-by far the worst and shittiest thing that could possibly ever happen" (Ibid. p. 50). The irrationality of the fallacy lies in the inference we make from the relatively bad

to the absolutely bad. Indeed, he insists that the idea of the absolutely bad is a fiction without any evidence.

3. Damnation: Shit-ification of self, others, and the universe.

Because bad things may be sometimes our own doing or someone else's doing, it is easy enough to damn ourselves, another or the universe and to explode in rage. Following Cohen, the fallacy comes in three self-disturbing variations depending on the object damned: "Global damnation ("Damn the universe!") If something shitty happens, then the world itself is shitty. Damnation of self ("Damn me!") If I screw up or do something shitty, then I am myself a worthless screw-up or shit. Damnation of others ("Damn you!") If someone else screws up or does something shitty, then he or she is a worthless screw-up or shit" (Ibid. p. 65).

4. Jumping on the bandwagon: Blind, inauthentic, antidemocratic and parrot-like conformity.

Cohen explains this fallacy by referring to the idea of social indoctrination according to which each one of us forges a personal identity. Whether we consider ourselves leaders or followers, it is due to the fact that we are conformists of a greatness that transcends even your own awareness. "This is because, you like the rest of us, have been raised in a society with surrounding cultures and subcultures and socialized into accepting certain moral standards, etiquette, laws, taboos, gender roles, prejudices, religious doctrines, standards of physical attractiveness and unattractiveness, concepts of cool and nerdy, economic ideologies (capitalism is good, socialism and communism are bad), material values, party politics, traditions" (Ibid. p. 93).

5. Can'tstipation: Obstructing your creative potential by holding in and refusing to excrete an emotional, behavioral, or volitional can't.

This fallacy implies that the person keeps themselves from being happy by reminding themselves that they can't. "You hold in the "can't" and refuse to poop it out" (Ibid. p. 111). There are three ways possible to can'tstipate yourself: emotionally, behaviorally and volitionally which means can't stipating your will. So, if you feel upset because someone else or something else triggered you to feel this way, then you cannot do anything about it, not even try to control the way you feel, nor the way you behave, nor you can tolerate frustration. "This rule tells you to blame your depression, guilt, anxiety, anger, and other negative emotions on external events, objects, and other persons rather than to accept personal responsibility for your emotions" (Ibid.).

6. Thou shalt upset yourself: Dutifully and obsessively disturbing yourself and significant others.

This is a self-defeating fallacy where you feel you have a moral duty which is a moral must to upset yourself if something you consider important goes wrong. "If you encounter a problem in your life that you deem important, then you have a moral duty to ruminate over it, never stop thinking about it, make yourself miserable and upset over it, and demand that others, for whom you also deem it a problem, do the same until you have certainty-or near certainty-about a solution" (Ibid. p. 137).

7. Manipulation: Bullying, bullshitting, or well poisoning to get what you want. Cohen explores three different ways of manipulation in order to get what we want using intimidation, threats, deceit, or other manipulative tactics. The question is not whether we use them or not. It's a matter of how often we count on manipulation to achieve our goals. As a matter of fact, our relationships with others would lead us to suffer. In manipulating others, we treat them like objects and we fail to respect their personhood. The three rules of manipulation read as follows: "Bullying: If you want something from someone, then you should try to get it by using or threatening to use force, blackmail, or other manner of coercion. Poisoning the Well: If you don't want others to act or think in certain ways, you should persuade them with strong, negative language or other manner of manipulation. Bullshitting: If you want to gain others' respect, approval, trust, or cooperation, you should make up lies, omit facts, exaggerate the truth, or otherwise deceive them" (Ibid. p. 151).

8. The world-revolves-around-me thinking: Setting yourself up as the reality guru. This fallacy has a truth-decreeing rule which stipulates that "if you believe (disbelieve) something, then what you believe is true (false) and indeed the one and only reality. Therefore, everybody else should also share your belief" (Ibid. p. 182).

Fallacies of Reporting

According to Cohen, even if we have a rational rule, we can still deduce very irrational conclusions if the report we file under the rule is irrational.

9. Oversimplifying reality: Pigeonholing reality or prejudging and stereotyping individuals.

Concerning this fallacy, it's about the report of reality which is not based on sufficient evidence that implies the rule of action. The rule is rational but the report filed under it lacks of evidence.

10. Distorting probabilities: Making generalizations and predictions about the future that are not probable relative to the evidence at hand.

To highlight this fallacy, Cohen provides us with five types of reporting rules, based on shoddy evidence. "1. Generalization rules for generalizing about

the world. 2. Predictive rules for predicting the future. 3. Explanatory rules for explaining things. 4. Causal rules for determining the causes of things. 5. Contrary-to-fact rules for speculating about what could-a/would-a/should-a happened” (Ibid. p. 228).

11. Blind conjecture: Advancing explanations, causal judgments and contrary-to-fact claims about the world based on fear, guilt, superstition, magical thinking, fanaticism, or other anti-scientific grounds.

In order to explain this fallacy, Cohen opposes it to the scientific approach to living. It starts like Socrates proposes by asking why. Scientific inquiry begins with this question. But Cohen explains how we should ask the different whys. “Broadly speaking, a scientific approach to living means basing the answers you give to the whys and wherefores of life on rules of reporting that show you how you rationally arrive at and confirm your answers. (...) there are three related types of rules in this category: explanatory rules, causal rules, and contrary-to-fact rules” (Ibid. p. 251).

The first eight fallacies occur as rules in the premises of people’s emotional reasoning, which they describe destructive behavior and emotions. However, the last three fallacies usually occur in the reports filed under the emotional rules, that’s why Cohen calls them fallacies of reporting. They tend to give false, wrong and misleading descriptions of reality. “Fallacies hide rational alternates to problems behind a cloud of false or unrealistic absolutes” (Ibid., p. 8). In fact, once you identify the fallacies and you refute them you would be able to grasp a varied field of philosophical wisdom and antidotes, which will help you attaining your own profound sense of happiness and maintaining your sound reasoning. So, the refutation of a premise would show what is wrong with it and would let you find a correction because you would be able to see what needs to be corrected. Let’s take examples related to the damnation or the self-damnation fallacies. If I find someone’s political view as screwed-up then the person themselves would be screw-up in my viewpoint. Or saying something worthless would make the person worthless. However, how can these syllogisms be corrected? The reasoning should be corrected by saying that humans are all imperfect. Making mistakes is absolutely human. In the case of a self-damnation fallacy, the fallacious reasoning would read as follows: If I screw up, then I’m a screw-up. If I report screwing-up at work today, by forgetting to send an important email to the manager, then I am absolutely worthless. An antidote to this self-destructive rule would be “you should accept responsibility for your mistake, learn from it, construct a new plan of action, and try to achieve it” (Ibid. p.10). Moreover, this antidote

finds its profound meaning in the existentialist philosophical approach which considers human beings as capable of conscious choices. They should not hide from their freedom, but rather to live responsibly and accordingly. "Philosophical antidotes are recipes for virtue. (...) They aim at helping you transcend [irrational thinking]. This means they aim at helping you live up to your higher human potentials" (Ibid. p. 15). Cohen defines these higher human potentials by a set of eleven transcendent virtues that sketch what LBT means by happiness. He considers philosophy its royal route because it nourishes the rational soul by giving us insight. "These virtues are metaphysical security, courage, respect, authenticity, temperance, moral creativity, empowerment, empathy, good judgment, foresightedness, and the ability to think scientifically (scientificity)" (Ibid.). However, even though attaining the transcendent virtue is essential for human happiness, the philosophical antidote is the rule of happiness which defines the virtue. "For example, your idea of self-respect will be different if you take a theological perspective like that of St. Thomas than if you take a humanistic one like that of Nietzsche. But, regardless of what approach you take, your happiness will depend on having self-respect" (Ibid.). Before exploring the meaning of the transcendent virtues and the importance of the appropriate philosophical antidotes, let us highlight the six steps defined by Cohen as basic steps for LBT to accomplish its main goal.

The first step implies identifying the emotion such as anger, depression, guilt and anxiety, constituted by an intentional object and its rating: E (Emotion) = O (Intentional Object) + R (Rating). Cohen gives the death of his own father as an example leading him to depression because his father had a heart attack while at the same time Cohen's phone went dead. In this particular case, the emotion is depression. The object is the death due to a heart attack and at the same time the phone went dead. The rating is seeing the awfulness of what happened and the impossibility of being happy again. The next step would be to construct the emotional reasoning which presupposes a rule, an emotional object and a conclusion. The report which states the death of Cohen's father highlights the emotional object which is depression due to the death in that way and a feeling of guilt because the phone went dead together with the rating of what happened as something awful. In this reasoning, a rule is required to infer depression which is suppressed in the case at hand. This rule that connects the object to the rating says that if Cohen's father died like this, life would never be the same again (awful thing, impossibility of being happy again). Now, the third step should consist of refuting irrational premises by asking questions such as: is there a counter-example to the premise? Does it

lack sufficient evidence? Does it have any acceptable consequences? Does it involve an inconsistency?

In order to refute the rule at hand, Cohen proposes the following argument that there have been many people who have suffered even worse tragedies and have still been able to lead reasonably happy lives, like for example some holocaust survivors. The fourth step implies identifying the guiding virtue, for example to overcome awfulizing we have to work toward increasing courage, or to overcome can'tstipation we have to work toward increasing self-control. After identifying the guiding virtue, the fifth step requires finding a suitable philosophical antidote. It's a philosophical idea that provides a rational corrective and counter to an irrational premise. It should promote or interpret a guiding virtue and it should absolutely resonate with the person; that's why different people choose different philosophies. The last sixth step would be to apply the philosophy by exercising the willpower to overcome cognitive dissonance. If Cohen defines willpower as a muscle that can be strengthened through practice and effort by applying Rational-Emotive imagery or shame attacking exercises or behavioral assignments or thought stopping exercises or philosophical bibliotherapy, what is cognitive dissonance?

Indeed, lucky is the person who feels this conflict of realizing that one's emotion is being deduced from a fallacious premise. But, this realization does not automatically assure that the person will stop deducing a conclusion from it. Often, people in this situation still continue to make the fallacious conclusion even though they know on an intellectual level that this is irrational. However, they may still not appreciate it on an emotional level. This state of conflict is what is commonly known as cognitive dissonance. When someone is in a state of cognitive dissonance, they are still disposed to act and feel in ways supported by the faulty premises. While cognitive dissonance is typically experienced as an uncomfortable tension between rational and irrational thinking, it can also be a healthy sign that one is beginning to deal rationally with their faulty practical reasoning. The realization of such a tension means that the person perceives a fallacy. In the absence of this realization no constructive change will occur. So, in this state of cognitive dissonance, the rational constraint is necessary to counterbalance the irrational tendency. This constraint consists of two components: (1) finding an antidote to the fallacious emotional reasoning that gives rational direction, and (2) exercising willpower to apply the antidote.

3) Virtues and Antidotes

As for the virtues, Cohen insists that practicing a virtue is a lifelong

commitment. He provides us with eleven virtues that correspond to the eleven fallacies. To the cardinal fallacy of demanding perfection, the guiding virtue would be metaphysical security. It refers to security about reality, or the ability to accept imperfections in reality. It is the fact of accepting the human fallibility and limitations and remaining humble towards the uncertainty of the universe. "Such a person does not attempt to control what is beyond his ability to control but stays focused on excelling in what he can control" (Ibid. p. 17). The guiding virtue to awfulizing or catastrophizing is courage. This means perceiving evil as something relative according to which things could always be worse, but never absolutely bad. "Such a person tends to learn from and derive positive value from his misfortunes and is willing to take reasonable risks in order to live well" (Ibid.). Respect for self, others and the universe is the guiding virtue that corresponds to the fallacy of damnation of self, others and the universe. Respect implies avoiding rating the whole according to the part and self-respect as well as respect for others imply self-acceptance based on a deep understanding of human worth and dignity. Authenticity is the guiding virtue corresponding to the fallacy of jumping on the bandwagon. This means to live autonomously instead of losing oneself on a bandwagon of social conformity. "An authentic person is no cog in a social establishment. She values her individuality, cherishes a democratic life style and its inherent personal freedoms, and does not hide her responsibility for life choices behind deterministic excuses" (Ibid.). Temperance or self-control is the guiding virtue that corresponds to the fallacy of can'tstipation. It involves rational control over actions, emotions and will. Cohen proposes the guiding virtue of empowerment to the fallacy of manipulation. It implies treating others as "rational, self-determining agents in contrast to trying to get what you want through power plays, intimidation, and deceit" (Ibid. p. 18). To the fallacy of the world-revolves-around-me corresponds the virtue of empathy; this means cognitively, emotionally and spiritually connecting with the subjectivity of others by transcending ego-based universe. Moral creativity is the guiding virtue that relates to dutiful worrying. This implies the use of proactive thinking instead of procrastination and dilemma thinking in confronting the ambiguity of moral problems. To the fallacy of oversimplifying reality, Cohen proposes the guiding virtue of objectivity in making unbiased discernments and sympathetic judgments in practical affairs. The virtue of foresightedness in assessing probabilities corresponds to the fallacy of distorting probabilities. This is the ability to make generalizations about the material world and predictions about the future that are probable relative to the facts as known. And finally the virtue

of scientificity corresponds to the fallacy of blind conjecture. According to Cohen, a scientific person recognizes that scientific and religious explanations can be compatible but is disinclined toward superstition, magical thinking and religious fanaticism. Such a person relies on evidence rather than on personal emotional reactions like fear and guilt.

In his book, *What Would Aristotle Do?* Cohen explains that an antidote “is not effective against your irrational thinking unless it prescribes something, that is, it tells you how or how not to respond more rationally to your situation” (p. 31). Some antidotal reasoning is positive in the sense that it tells you what to do and some is negative telling you what you should not do. Indeed you would be doing an antidotal reasoning in case of demanding perfection when you tell yourself “I shouldn’t dogmatically and absolutely demand perfection in this imperfect world,” and “Demanding that everyone, and therefore my neighbor, like me is doing just that.” Simply this rule tells you to “stop batting your head against the wall!” (p. 32).

III- The Critique

So Cohen has elaborated his theory of happiness based on Aristotle’s guiding virtues and fallacies. He argues that once the erroneous syllogisms are corrected, the emotional and behavioral outcome would be regulated and as a matter of fact, the person would be happy. In an article published in 2022, “Use of Logic-Based Therapy to Encode Emotional Reasoning on the Ventromedial Prefrontal Cortex”⁸ Cohen explores the implications of using LBT for the treatment of Posttraumatic Stress Disorder (PTSD). In this article, Cohen explains that “recent fMRI, lesion, and electrophysiological brain studies provide a large body of evidence to show that the ventromedial prefrontal cortex (vmPFC) is linked to value-based decision-making and regulation of negative emotions. Not only does this evidence show that the vmPFC inhibits negative emotions, there is evidence that it also plays a role in generating negative emotions (Hiser & Koenigs, 2018). Further, there is evidence that, when subjects engage in reasoning/inferences having emotional content, ventromedial prefrontal cortices (VmPFC) are active.” (Ibid.). Goel and Dolan (2003) found that in the case of emotionally neutral syllogisms, fMRIs relative to the neutral baseline, were associated with blood oxygenation changes in the left dorsolateral prefrontal cortex (dlPFC) whereas fMRIs in the case of emotionally charged syllogisms, relative to the emotional baseline, were associated with changes in bilateral vmPFC activity. “The vmPFC responses to the emotionally charged syllogisms were stronger when the

content was rated by subjects as more emotionally charged, whereas the dlPFC responses to the neutral syllogisms were stronger when the content was rated as less emotionally charged. The researchers concluded that “[The] VMPFC is engaged by the reasoning process in the presence of emotional saliency” (Goel & Dolan, p. 2318, italics added). Conversely, the dlPFC is engaged by the reasoning process in the case of emotionally neutral syllogisms. Further fMRI study also suggests that the dlPFC may be engaged in neutral reasoning involving reappraisal or assessment of emotional reasoning (Winecoff, et al, 2013).” (Ibid.). These findings push Cohen to stress the importance of LBT in regulating irrational premises insofar as cognitive restructuring involves working cognitively and behaviorally with the patient to replace the irrational syllogism with a more rational one (Cohen, 2017, 2013), which would resolve negative emotions. Furthermore, in a comparison between LBT and the traditional REBT methodology, which Cohen finds valuable, he claims that the latter “does not have a consistent mechanism for encoding inferential brain processes, and may only capture a part of an inference such as the conclusion (“I’m a failure”). (...) In contrast, Logic-Based Therapy provides a more complete picture of our inferences (and the stuff behind our thoughts and feelings). As such, there is great promise in the possibility of Logic-Based Therapy and its ability to help us address some of our most challenging experiences, including the experiences of those who suffer from PTSD”.⁹ So in arguing in favor of LBT Cohen aims at proving that this methodology is sufficient to make people happy by addressing their negative emotions and the reasoning behind them. However, there is no doubt that his method is valuable in the sense that it is logic-based and would as a matter of fact correct the bad logic behind syllogisms. But, does the fact of having a logic-based reasoning sufficient for us to reach our happiness? Whereas Cohen seems to draw an equality between fallacy-free, logic-based reasoning that works in tandem with positive outcomes (emotions and behaviors), it would be naïve to expect from the person to be happy. Happiness cannot be reduced to the fact of being rational and having logic-based reasoning. All rational people are not happy, unless being happy is identified with having rational reasoning which seems to be very limited as to the definition of happiness. Furthermore, in the standards of ethical practice, Cohen provides us with the conditions under which philosophical activities should be applied. “The practice of providing philosophical assistance to others is at least as ancient as Socrates who, in the Fifth Century B.C., made such a practice of philosophy. While individual philosophical practitioners may differ in method and

theoretical orientation, for example, analytic or existential-phenomenological, they facilitate such activities as: (1) the examination of clients' arguments and justifications; (2) the clarification, analysis, and definition of important terms and concepts; (3) the exposure and examination of underlying assumptions and logical implications; (4) the exposure of conflicts and inconsistencies; (5) the exploration of traditional philosophical theories and their significance for client issues; and (6) all other related activities that have historically been identified as philosophical.” (Cohen, 2014). However, in his book *Logic-Based Therapy and Everyday Emotions*, Cohen provides us with a list of cases where LBT cannot be practiced, and the patient should therefore be referred to a psychologist or a psychiatrist. In this list, he includes different types of disorders such as neurodevelopmental, psychotic, bipolar and depressive, anxiety, obsessive-compulsive, trauma and stress, dissociative, somatic symptom, feeding and eating, elimination, sleep-wake, sexual dysfunctions, disruptive, impulse-control, and conduct, substance-related and addictive, neurocognitive, personality and paraphilia. Yet, he enumerates in another list some problems that the philosophical consultant should address. The list highlights moral issues, values disagreements, political issues and disagreements, writer’s block, time management issues, procrastination, career issues, job loss, problems with coworkers, disability issues, financial issues, retirement, aging, end of life issues, midlife issues, adult children of aging parents, problems with family, family planning issues, in-law issues, breakups and divorce, parenting issues, becoming a parent, sibling rivalry, finding out one is adopted, falling in and out of love, loss of a family member, loss of a pet, friendship issues, peer pressure, academic or school-related issues, rejection, discrimination, religion and race-related issues, entertainment-related issues and technology-related issues. As such, philosophical consulting tends to be brief, no longer than one to three one-hour sessions. “This approach is appropriately called “consulting” because the client “consults” with the practitioner on how to think more rationally and philosophically about the particular problem at hand; and how to use the new perspective in devising a fresh plan of action for addressing this specific problem” (Ibid. p. xxiv). However, although Cohen distinguishes between problems that can be treated psychologically and other problems that need a mere philosophical treatment, it seems to us that it is important to affirm the complementarity of both approaches where they are included in a philosophical-psychological therapy. Whereas the philosophical approach would address the fallacious reasoning, the psychological approach on the long run would show the patient the causes

and effects of their traumas and why his reasoning was per se erroneous. What would hinder a person with neurological disorder from benefitting from a logic-based therapy that correct their reasoning? This could take place at the beginning of a long psychological psychotherapy or at the middle of it, where the person is searching for a certain meaning for their life, and where they likely behave and reason in a fallacious way.

Therefore, both approaches are complementary and they could equally contribute to the well-being of persons as a rational (logic-based) emotional (psychological) relational (social) equilibrium. This would still contribute to their happiness but cannot be reduced to it.

IV- Conclusion

In sum, this work highlights the philosophical approach to self-destructive emotions elaborated by Elliot Cohen. After presenting his methodology, explaining his concepts (fallacies and virtues) and the way he proposes to rectify erroneous syllogisms, I tried to draw the limits of this approach on the long run. On the one hand, it seems insufficient as Cohen claims to make the person reach their own happiness. Happiness cannot be restricted to correcting the logic behind negative emotions. On the other hand, it seems important to complement this philosophical approach to daily problems with a psychological one. The first would correct the logic, question the dilemmas and the second would investigate the psychological reasons behind negative emotions and behaviors. Both approaches would guarantee persons' healthy emotional and rational well-being.

References

Albert Ellis' ABC model in the cognitive behavioral therapy spotlight. (2018). In Positive Psychology Program. Retrieved from <https://positivepsychologyprogram.com/albert-ellis-abc-model-rebt-cbt/>

American Psychological Association. (2017). Cognitive behavioral therapy (CBT). Clinical Practice Guidelines for the Treatment of Post-Traumatic Stress Disorder. Retrieved from <http://www.apa.org/ptsd-guideline/treatments/cognitive-behavioral-therapy.aspx>

Cohen, E.D. (1987). The use of syllogism in rational-emotive therapy. *Journal of Counseling & Development*.66(1) 37-39.

Cohen, E.D. (1992). Syllogizing ret: Applying formal logic in rational-emotive therapy. *Journal of Rational-Emotive and Cognitive-Behavior Therapy*. 10(4), 235-252.

Cohen, E.D. (2003). Philosophical principles of logic-based therapy. *Practical Philosophy: Journal of the Society for Philosophy in Practice*, 6(2), 27-35. Retrieved from <http://society-for-philosophy-in-practice.org/journal/pdf/6-1%20027%20Cohen%20-%20Logic-Based.pdf>

Cohen, E.D. (2006). Logic-based therapy: The new philosophical frontier for REBT. REBT Network. Retrieved from www.rebtnetwork.org/essays/logic.html

Cohen, E.D. (2013). *Theory and practice of logic-based therapy: Integrating critical thinking and philosophy into psychotherapy*. New Castle Upon Tyne, UK: Cambridge Scholars Publishing.

Cohen, E.D. (2014). Logic-based therapy to go. *Psychology Today*. Retrieved from <https://www.psychologytoday.com/us/blog/what-would-aristotle-do/201403/logic-based-therapy-go>

Cohen, E.D. (2016). *Logic-based therapy and everyday emotions: A case-based approach*. Lanham, MD: Lexington Books.

Cohen, E.D. *What Would Aristotle Do?* New York: Prometheus Books.

Cohen, E.D. *The New Rational Therapy*. Lanham, MD: Rowman & Littlefield Publishers, Inc.

Ellis, A., & Grieger, R. (1977). *RET: Handbook of rational-emotive therapy*. New York: Springer Publishing.

Ellis, A. (1990). Rational and irrational beliefs in counselling psychology. *Journal of Rational-Emotive & Cognitive-Behavior Therapy*, 8(4), 221–233.

Ellis, A. (1991). The revised ABC's of rational-emotive therapy (RET). *Journal of Rational-Emotive & Cognitive-Behavior Therapy*, 9(3), 139-172.

Ellis, A. (2001). *Feeling better, getting better, staying better: Profound self-help therapy for your emotions*. Atascadero, CA: Impact Publishers.

Goel, V. & Dolan, R. J. (2003). Reciprocal neural response within lateral and ventral medial prefrontal cortex during hot and cold reasoning *NeuroImage* 20 (2003) 2314–2321 http://library.mpib-berlin.mpg.de/ft/ext/rd/RD_Reciprocal_2003.pdf

Goel, V. (2007). Anatomy of deductive reasoning. *Trends in Cognitive Sciences*, 11(10), 435-441.

Hayes, J.P., Hayes, S.M., & Mikedis, A.M. (2012). Quantitative meta-analysis of neural activity in posttraumatic stress disorder. *Biol Mood Anxiety Disord*. 2012; 2: 9. Published online 2012. <https://www.ncbi.nlm.nih.gov/pmc/articles/PMC3430553/>

Hiser, J.S., & Koenigs, M. (2018) The multifaceted role of ventromedial prefrontal cortex in emotion, decision-making, social cognition, and psychopathology. *Biological Psychiatry*, 83, 638-647. <http://koenigslab.psychiatry.wisc.edu/wp-content/uploads/2018/03/1-s2.0-S0006322317322035-main.pdf>

Koenigs, M., & Grafman, J. (2009a). The functional neuroanatomy of depression: Distinct roles for ventromedial and dorsolateral prefrontal cortex *Behavioural Brain Research*. 2009 Aug 12; 201(2): 239-243.

Koenigs, M., & Grafman, J. (2009b). Post-traumatic stress disorder: The role of medial prefrontal cortex and amygdala. *Neuroscientist*. 2009 Oct; 15(5): 540-548. <https://www.ncbi.nlm.nih.gov/pmc/articles/PMC2771687/>

Nicolle, A. & Goel, V. (2013). What is the role of ventromedial prefrontal cortex in emotional influences on reason? In I. Blanchette (Ed.), *Emotion and Reasoning*. Hove, UK: Psychology Press.

Noveck, I.A., Goel, V., & Smith, K.W. (2004). The neural basis of conditional reasoning with arbitrary content. *Cortex*, 40(4), 613- 622.

Ross, W. (2006). What is REBT? REBT Network. www.rebttnetwork.org/whatis.html

Veqar Siddiqui, S, Chatterjee, U., Kumar D., Siddiqui, A, & Goyal, N. (2008). Neuropsychology of prefrontal cortex. *Indian Journal of Psychiatry*. 50(3): 202-208.

¹Gerd Achenbach is a German philosopher, known for introducing in 1981 the world's first philosophical practice (philosophische Praxis).

² Oscar Brenifier has a PhD in Philosophy and he is known for working on the concept of philosophical practice based on Socratic maieutic. He has founded the Institut de Pratiques Philosophiques to train practical philosophers.

³ Elliot Cohen is one of the main founders of philosophical practice in the United States. He is co-founder and Executive Director of the National Philosophical Counseling Association (NPCA) and President of the Logic-Based Therapy and Consultation Institute.

⁴ Find the Best Therapists and Psychologists near 12222 - Psychology Today

⁵ Understanding Therapy For Repressed Memories | BetterHelp

⁶ Ibid.

⁷ What is SUPPRESSION? definition of SUPPRESSION (Psychology Dictionary)

⁸ Use of Logic-Based Therapy to Encode Emotional Reasoning on the Ventromedial Prefrontal Cortex – Trauma Psychology News (traumapsychnews.com)

⁹ Merlin | Logic-Based Therapy: Philosophy, Emotional Reasoning & PTSD (merlinccc.org)

Laurence Ajaka, PhD
Liza Khachadourian

PhD
Islamic University of
Lebanon

Knowledge Management Strategies to Improve the Quality of Education

Abstract

COVID-19 forced individuals and organizations to slow down and consider their status quo in many fields including education. An honest contemplation has shown that our pedagogic systems have atrophied amidst the onslaught of technology. The availability of information transformed education from obtaining knowledge to knowledge management. This technique is a new approach that consolidates teaching with the new generations that are no longer motivated to be passive recipients of knowledge. The ease of access to information mandates a new system of assessment that relies on processing information and transforming them into new concepts. This change is beneficial to students that do not conform to the memorization cult that has dominated our academic systems for centuries. It creates an open space for innovation and advancement. There are many techniques and proper software that will aid students and teachers to adapt and flourish. This new approach will transform the classroom into a dynamic medium where each individual is assessed by their capabilities which would only lead to well-adjusted future employers and employees.

Keywords: Knowledge management, education, assessment, interactive learning

Introduction

The COVID-19 pandemic can be viewed as a golden opportunity to shake off the dust that has gathered over our outdated academic syllabi. Despite all the voices calling for an update in the curricula, only ceremonious attempts have been made. As academics, we have been forced to reexamine our systems, and the results were very discouraging. Remote learning has encountered numerous obstacles and challenges for teachers and students. Even the institutes that had online learning systems were riddled with challenges when it came to the implementation of said systems. Whatever modernization we envisioned was cut short when we realized that we cannot deliver what is expected. What was lacking is a system that would guide teachers and students.

We often equate having a management system with business and profit, but that is not necessarily true. The purpose of any management system is to provide a framework for functioning and improvement. It will establish standards and practices that will allow everyone in the system to coordinate and evolve. These notions will help any organization including our academic institutes that have long depended on establishing syllabi rather than systems. We ought to consider the Knowledge Chain model, based on Knowledge Management (KM) ontology in reestablishing our pedagogic systems in a manner suiting the current situation. After all, we deal with knowledge, but we are not proficient in delivering the mechanisms needed to implement them. The aim of this article is first to raise the awareness of university administrators to employ Knowledge Management strategies for their numerous benefits; second, to introduce updated assessment techniques to teachers and faculty members to enhance students' cognitive functioning by employing various online platforms.

Knowledge Chain Model

The Knowledge Chain model (KC) that started with Holsapple & Jones (2003) is based on a Knowledge Management (KM) ontology that identifies five major knowledge manipulation activities: Knowledge acquisition, Knowledge selection, Knowledge generation/discovery/inference, Knowledge assimilation or internalization (referring to the activity of storage), and Knowledge emission or externalization (referring to the existing knowledge produced as organizational outputs).

Knowledge acquisition is the individual's ability and desire to engage in harnessing knowledge. It seems simplistic, but it can be very difficult to engage teachers and students in this process. Some teachers are reluctant to

evolve because they fear they will not be competent enough to deal with this new knowledge. Students are also demotivated to seek knowledge that they do not perceive as important since they can just access it on their phones. It is not enough for teachers to put their lessons on an online platform. It is essential that they attract the sincere participation of students to achieve the vital cooperation between human, structural, and relational capital. This will reflect positively on the organization's achievement and efficacy (Vatamanescu et al., 2022).

Knowledge selection refers to the material that will be presented to the students. This is perhaps the most challenging aspect for teachers who have relied on a system that assumed, albeit correctly, that students do not have the resources to access any of the information delivered to them. This changed when technology and the internet became available along with the entirety of human knowledge. It becomes pivotal to reexamine the nature of the material provided for students. There are even applications and websites that can provide detailed solutions to complicated mathematical problems with detailed graphs if needed. So where does that leave the teachers when they can no longer entice students? The answer is to give them a sense of novelty and stimulate their desire to work in a team. Needless cramming of information is no longer acceptable nor effective (Atkin, J.M., Black, P., and Coffey, J. 2001). Knowledge generation is more complex than it first seems. There are two distinct types of knowledge generation according to Simske (2019). The first is data mining where large amounts of data are organized and analyzed to obtain more information. The second is knowledge discovery where an individual or an organization, that is specialized, can generate new discoveries. This can be done quantitatively and qualitatively while the first is mostly quantitative. Our students should ideally be able to master both techniques. We need to nurture both their critical thinking and creativity as means of generating knowledge. This will necessitate teachers to foster a culture of robust questioning and free space for originality when it comes to thinking about old and new challenges.

Knowledge assimilation is a process of interaction. Whenever we add new information to our "database" of personal knowledge, it will not just be passively added. Whatever we take in has to reconcile with the knowledge that we already have. It is not a simple process of adding another item to the shelf. This is a practice that would have been acceptable to older generations, but it will not be tolerated by the younger ones. They are constantly questioning what is being delivered to them. They need to reconcile this new piece of information with what they have already accepted before. This is a sign of

intelligence because it will use this new input to expand and enhance what has already been established. This will aid in understanding and utilizing information to generate new knowledge.

Knowledge emission established new information or generates old ideas in a new format. This is the ultimate goal for any system and it is even more profound in education. The goal of every teacher should be to foster independent and creative students that will examine everything, including their individual work, as a critique. With everything being available, it becomes the role of these students to make the correct connections between points A and B to confirm the status quo and/or challenge it at the same time.

There are four major managerial activities that affect and govern the conduct of the KM occurrences. Knowledge measurement is "... an activity that involves the assessment of knowledge" (Dayan, 2006), where students will evaluate what is given to them instead of being passive acceptors of what is being given to them. Knowledge control is controlling the quality of knowledge because students no longer want to be burdened by enormous amounts of information that do not stimulate or interest them. They want to soak in everything that would help them to further develop their interests and passions. Knowledge coordination is guiding the conduct of KM in an organization that establishes the right circumstances for distributing information. The same knowledge can be dispensed in numerous ways (verbal, visual, puzzle, etc.), and it falls upon teachers to accommodate that. Coordination also means providing the right classroom dynamic that will encourage the active participation of all students. Knowledge leadership establishes conditions "... for achieving fruitful KM through the other eight activities" (Holsapple & Jones, 2003). Leadership is another vital aspect of learning that has often been ignored. As teachers, we must step down from our thrones and allow the new kings and queens to ascend. In other words, we are no longer the focal point of our classes. As leaders, our job now requires that we provide the necessary tools and circumstances to allow our students to shine. We need to empower them to take the lead in their pursuit of knowledge and the skills needed to navigate the corporate world.

Unfortunately, studies show that successful implementation of these strategies is still lacking in the Arab region. For instance, a study conducted at 2 Lebanese Universities, tackled the 90 faculty members' behavior and the organization's Knowledge management practices across all departments.

Some of these strategies included Knowledge storage practices, Knowledge sharing practices, and Knowledge usage practices. The results showed that faculty were unaware "... about the process of sharing knowledge or reluctant to share their course material with their colleagues in fear of criticism or plagiarism from technological tools like intranet". Kebbi (2016, p.57) recommended that "... individual blogs and storage depositories should be user friendly and easy to use for faculty members inside each department".

Knowledge Assessment

Being one of the four major managerial activities that impact and govern the conduct of the KM occurrences, knowledge measurement or assessment is of utmost importance in the field of education. Assessment of students was a sore topic even before the online crisis. The two latest generations are drastically different from those who preceded them, and yet we are still applying the same notions to their assessments. All over the world, the validity of assessment methods has been questioned for the last few decades, and yet standardized systems are still in place in the majority of the world countries. These methods do not test the skills and intelligence quotient of students and instead force them to adapt to a unified pattern that definitely doesn't come in a "one-size fits all". Any teacher can attest to the fact that they have been surprised by the capabilities of some of the students they have encountered who can test so well in certain criteria and yet fail abysmally in others. Take for example a student who is mechanically oriented and can pull any electronic device apart and put it back together. This would be an ideal candidate for a mechanical engineer, and yet he/she is not proficient in Biology and Chemistry. This means they won't be able to join the science section in high school because they would have tested poorly in Grade 10. By imposing unrealistic expectations on gifted people, we are denying them access to their calling in life. We, therefore, must admit, at the very least, that our assessment systems are flawed and need to be revisited. We believe that is a common ground we need to establish to be able to move forward with designing a fairer assessment system. But how can that be done in such a way that it is practical to instructors and students?

Here, it is worth to mention that Gardner (2013) himself believes that educators should not base instruction on a single theory or educational innovation, but rather on tailored objectives and values that are appropriate for teaching, subject matter, and student learning requirements. Addressing multiple intelligences can assist teachers diversify their training and evaluation approaches, as well as improve student learning (c.i., <https://www.niu.edu>).

Bloom's Revised Taxonomy, developed by Krathwohl (2002), advises us to impart knowledge to students and make them "... aware of their metacognitive activity, and then use this knowledge to appropriately adapt the ways in which they think and operate" (p. 214). But how can that knowledge be employed if it is disconnected from reality? Students will undergo years of university-level education and then go into the working environment where they are shocked by the discrepancies between what they were taught and how they are expected to perform. The flaw lies in the relentless focus on grades as an assessment instead of knowledge gained. Students are concerned with nothing but their GPA; it is what they work for and where all their efforts are channeled. The result was creating students who retain little to nothing of what they learn, and future employees who needed to know the ropes at their workplace.

As instructors, it is our job to change that priority into gaining a working understanding of the material given. We should start proper assessment of students since their childhood. The shift to a more dynamic assessment (DA) is required. DA refers to "... an assessment, by an active teaching process, of a child's perception, learning, thinking, and problem-solving... based on Vygotsky's notions of the zone of proximal development (ZPD), defined as the difference between a student's independent performance and the level of performance when assisted by a more knowledgeable partner" (Rahbardar, et al., 2014, p.53).

For example, Rahbardar, et al. (2014) conducted a study in 5 schools, and they found out that the participants (6 years old) were able to perform problem-solving equally at the symbolic, visual-image, and visual-motor levels via deductive reasoning after understanding the way to solve a problem. The aim of DA is to enhance one's cognitive functioning and observe consequent changes in "... learning and problem-solving patterns within the testing situation. DA has been advocated as an alternative and/or supplemental approach to traditional standardized testing with children who are culturally and linguistically diverse (CLD)" (p.47).

Furthermore, dynamic assessment is used to test "... a communication concept (i.e., content, form & use), a reading concept (i.e., phonemic awareness, word attack skills, comprehension skills, etc.), math skills (i.e., calculation & reasoning), and writing skills (i.e., orthographic, organization, etc.)" (<https://coe.uoregon.edu>, p.5). During a teaching session,

teachers/ examiners can use some of the following scaffolding techniques:

- *Provide a model or example of the concept, idea, or linguistic structure the student needs to learn.*
- *Shorten the directions given to the student.*
- *Require the student to restate the directions.*
- *Give the student extra time to organize their thoughts.*
- *Give the student cues to assist in word retrieval.*
- *Provide a more elaborate explanation of questions and instructions.*
- *Use expansions of the student's statements.*
- *Encourage elaboration by asking questions.*
- *Use simple terms when explaining concepts.*
- *Respond positively to the student's verbal attempts.*
- *Teach the student some strategies for asking for assistance and/or clarification.*
- *Give instructions and examples on using descriptive language.*
- *Use questions to help the student make connections between old and new information.*
- *Use semantic maps of stories and expository texts.*
- *Pair pictures and objects with directions or explanations of concepts.*
- *Simplify the questions posed to the student (<https://coe.uoregon.edu>, p.6).*

On the other hand, a study conducted by Mitra and Barua (2015) revealed the "... impact of web-based formative assessment practices on performance of undergraduate medical students in summative assessments" (p.15) which are indicators of the learning process. In addition, there is a positive link between "... online computer-based formative test with automated feedback and the performance in the summative assessment in a multi-disciplinary integrated module of undergraduate medical students". So, an increase in the "... use of the online formative test with automated feedback can produce an increase in the score of the summative assessment" due to development in the learning process. At the end, the medical students with higher academic ability benefitted more from the online formative tests (Mitra and Barua, 2015).

Moreover, numerous online platforms are freely available for any teacher who needs help in assessing students online. Some examples include Vocaroo which allows students and teachers to make videos with embedded presentations; Propofs which allows you to make interactive puzzles and polls. Miro which allows real-time collaboration between students; and Quick Key which helps

teachers with grading and getting feedback. They can even be valid for the physical classroom setting later on with some modifications. What is ingenious about these systems is that they allow for different skills and functions. They have activities that test various aspects of intelligence instead of the traditional blind memorization and rehashing of information. Teachers can benefit from all these tools to make their lives easier away from the grind that used to weigh them down. Using these tools would help decrease the time needed to prepare lessons and perform an immediate assessment. Teachers can now have a better work-life balance as they no longer have to go through the grueling process of correcting hundreds of papers and grading them.

Students can be divided into groups with similar or complementary skills, depending on the assessment, where they tackle variant situations from various aspects. This fluidity in the approach is something that appeals to the new learners. Since they are digital experts, they are not likely to be moved into exploring what is available to them in a matter of seconds. What they need is the challenge of the questions and the answers to which are not found on open-source data platforms. Teachers can also group together individuals that have different skills to solve the same problem. What is interesting about this method is that it will allow the students to be able to view things from different angles. It will expand their knowledge and give them an appreciation for the skills of others. Furthermore, it will foster an environment where they will need to cooperate and compromise about what decisions they need to make to reach a resolution. This simulates real working environments where social skills come into play when there are people from different backgrounds and opinions. It also helps future leaders to organize the people they work with and establish a system for cooperation and coordination.

Conflict will be a constant presence in these groups, but it can be a beneficial aspect. We often view conflict as a destructive force when it does not necessarily have to be the case. Even when the students have the same way of thinking, they will not always agree. For example, two students who are mechanically gifted might not agree on how best to take apart a machine. What conflict always does is lead to a conversation. This can be destructive or constructive depending on how it is managed. It will be the teacher's role to help smooth over the passion and conviction of students and allow them to transition to a conversation where there is an exchange of ideas between the two opposing sides. This can lead to innovation as different members of the team would be encouraged to present their ideas and have others listen to these ideas with an

open mind. This is another example of how the role of teachers has changed in this new system.

Many say these new students are easily demotivated, but the sense of ennui they face is rather because they feel like their skills are not being engaged and they are only expected to work on retaining facts. As teachers, it falls to us to probe and poke around what makes them click. A student might be passive in one class, and yet he/she is an active participant in others or even in extracurricular activities. So inherently, they are not lazy as most people perceive them; they are what I would prefer to refer to as “selectively passionate”. Assessments are not scoring devices. They are vehicles for translating the skills and capabilities of students. They function to create a human being that can operate proficiently in the real world.

The 21st-century learning skills of “critical thinking, creative thinking, communicating and collaborating”, or the 4Cs, that are vital to educational success (Nebraska, 2016), should be an integral part of any assessment that is taking place. We need to engage students in the class so that they can start communicating with one another. It will not only teach them how and what to ask, but it will modulate their passions to enable them to be team players. This will allow them to collaborate and bring out the best in one another. This is especially crucial in a world where knowledge is becoming particularly specialized that a large group is needed to push through any innovation. We must provide them with enough puzzling questions and cases that provoke their critical thinking capabilities. This will create intuitive students that do not accept the status quo and always aim for the better. This is where their creativity is engaged through their sense of challenge and desire to establish themselves as innovators. The newer generations are already in possession of some and all of these skills through their digitized orientation, so it remains up to us to foster an assessment environment that caters to this challenge.

Conclusion

Teachers need to become proactive when it comes to teaching instead of resting on the laurels of past achievements. The difficulty faced by today’s teachers is due to students not having any interest or respect for the antiquated teaching techniques that are foisted on them. The application of Knowledge Management in academic settings will evolve the existing systems into interactive media that accommodate the different cognitive capabilities of students. It will

transform the classroom into a bastion for attaining knowledge rather than accumulating grades. However, this cannot be achieved if teachers fail to accept that they need to change. Often, we have teachers who are resisting this tidal wave of change because they think it is a criticism of their life work and it questions their proficiency. This is an understandable sentiment because no one appreciates feeling devalued. But should we step aside from behind the confines of the ego, we will realize that our job has always been to serve our students to the best of our capabilities.

It is interesting to witness the resistance that many teachers have against change when change had been the only constant that we can depend on. It would be ludicrous to state that we still teach the way we used to hundreds of years ago. For example, we all concur about the validity of the scientific method, but four short centuries ago, it was ridiculed when the pioneers such as Copernicus and Galileo started laying the foundation. It was not accepted until the 1930s, but it managed to put the development of mankind into overdrive. Change in our educational systems can also lead to another shift in our evolutionary speed.

References

Abdul-Hamid, H. (2014). What Matters Most for Education Management Information Systems: A Framework Paper. SABER Working Paper Series No. 7, World Bank, Washington, DC.

Atkin, J.M., Black, P., and Janet Coffey. (2001). National Research Council. Classroom Assessment and the National Science Education Standards. Washington, DC: The National Academies Press. <https://doi.org/10.17226/9847>.

Dayan, R. (2006). Factors in the implementation of a sustainable knowledge management programme. URI: <http://hdl.handle.net/1826/1113>
<https://dspace.lib.cranfield.ac.uk/handle/1826/1113>

Holsapple, C. and Jones, K. (2003). Toward an Elaboration of the Knowledge Chain Model. <https://aisel.aisnet.org/cgi/viewcontent.cgi?article=1795&context=amcis2003>

Kebbi, S. (2016). Knowledge management: Assessment of Knowledge Management in Higher Educational Institutions.

https://laur.lau.edu.lb:8443/xmlui/bitstream/handle/10725/4398/Siham_Rachid_Kebbi_Thesis_Redacted.pdf?sequence=3

Krathwohl, D. (2002). A Revision of Bloom's Taxonomy: An Overview. *Theory Into Practice*, 41, (4), 212-218. The Ohio State University: Routledge (ISSN: 0040-5841)

Mitra, N.K., Barua, A. (2015). Effect of online formative assessment on summative performance in integrated musculoskeletal system module. *BMC Med Educ* 15, 29 . <https://doi.org/10.1186/s12909-015-0318-1>

Nebraska Lincoln University. (2016). Thoughtful Learning: What are the 4 C's of learning skills? : <https://newsroom.unl.edu/announce/csmce/5344/29195>

Northern Illinois University Center for Innovative Teaching and Learning. (2020). Howard Gardner's theory of multiple intelligences. In *Instructional guide for university faculty and teaching assistants*. Retrieved from <https://www.niu.edu/citl/resources/guides/instructional-guide>

Rahbardar, H. Ajilian Abbasi, M., Talaei, A. (2014). Dynamic Assessment (DA) and Evaluation of Problem-solving Skills in Children. *International Journal of Pediatrics (Supplement 5)*, Vol.2, N.3-3, Serial No.9. https://ijp.mums.ac.ir/article_3150_39903d3c12c741c38a8faab2cfd0316e.pdf

Simske, S. (2019). Meta-Analytics: Consensus Approaches and System Patterns for Data Analysis. <https://doi.org/10.1016/B978-0-12-814623-1.00001-0>

University of Oregon. (2016). Dynamic Assessment <https://coe.uoregon.edu/cds/files/2016/04/Dynamic-Assessment-Info-Protocol-and-Scoring-Criteria.pdf>

Vătămănescu, E.-M., Bratianu, C., Dabija, D.-C. and Popa, S. (2022), «Capitalizing online knowledge networks: from individual knowledge acquisition towards organizational achievements», *Journal of Knowledge Management*, <https://doi.org/10.1108/JKM-04-2022-0273>

The Power of Weblogs in Developing Language Skills of ESL Learners

HOUSSAM A.
HAMADEH

Lebanese University
English Department

Abstract:

Learner development greatly depends on language awareness which not only focuses on language itself, but also a cognitive reflection upon language functions. Language awareness can be fostered by giving learners various choices in learning activities. The variety of choice stimulates learner interest and has a potential for learner development. This paper discusses the application of the latest innovation of Information and Communication Technology (ICT), which is known as weblog for learner language development. The aim of this study is to explore the pedagogical potentials of using weblog as a tool in developing the language skills of pre-university ESL students at some of the Lebanese private schools. In addition, this study further discusses the impacts weblogging activities can have on students' motivation to write in English. Drawing on students' blogs as well as the responses given by students in interviews and questionnaires the paper ends by highlighting the benefits that can be acquired as a result of the integration weblogs in language learning classrooms.

Keywords: weblogs, activities, writing skills, information and communication tools (ICT).

Introduction:

Writing is viewed as an important component of language learning. However, studies have shown that students find writing as a daunting task in learning

English. Students lack writing skills and they are de-motivated to write in English. Thus, discovering new ways of teaching and learning this skill would be beneficial to all involved in teaching and learning. Information and Communication Technology (ICT) and Computer Mediated Communication (CMC) in teaching and learning have offered many ways of improving the learner's writing skills such as using online forum, wikis, and weblogs. Although various studies have shown the possibilities of using weblog in accomplishing tasks in the classroom, in particular, using weblogs as online portfolios or journals, where students can improve their writing, and research on the use of weblog as a tool for the process writing approach is relatively new and it is an area for further research. This paper discusses the application of the latest innovation of information and communication Technology (ICT), which is known as weblog for learner language development. The aim of this study is to explore the pedagogical potentials of using weblog as a tool in developing the language skills of pre-university ESL students. In addition, this study further discusses the impacts weblogging activities can have on students' motivation to write in English. Drawing on students' blogs as well as the responses given by students in interviews and questionnaires the paper ends by highlighting the benefits that can be acquired as a result of the integration weblogs in language learning classrooms. This study will move on to discuss where and how blogging can contribute and facilitate the process writing approach. In other words, how weblog assists students to improve their writing skills.

Process Writing Approach:

The field of research in writing is fairly young in comparison with the fields like language acquisition or reading. However, there have been numerous approaches to the teaching of writing in the history of language teaching. These writing approaches have evolved with the development of different approaches to teaching in general, which have in turn contributed to the changing role and status of writing (Holmes 2009).

The pedagogical approaches to second language writing emerged at different times since 1960's. They are Product, Process, Post-Process, Socio-cultural and genre approaches which have contributed to the development of the writing pedagogy. However, since the focus of this paper is on weblogs in Process Writing Approach, the review of literature will cover the areas of process oriented approach, and weblogs in second language writing. The rise of the process approach marks the beginning of a new era for second language writing pedagogy.

Hayes and Flower's (1980) model of the writing process was arguably a turning point in the field, triggering a growth in empirical studies, which still flourishes today (Beard et al., 2009). The traditional product-oriented view of writing which regards writing as linear and fragmented procedure is thus contrary to the actual writing process. In process-oriented writing writers are able to make modifications to the written text or make changes in their original plans as they review their writing (Flower & Hayes, 1981, cited in Joe, 2009). The focus of writing was on two major views: An expressive view which was free and creative and a heavy influence of a cognitive view of writing. Later, a third view was recognized as part of the process, a social view (Jones 2006).

According to Heald-Taylor (1986, cited in Jarvis, 2002), Process writing is an approach which encourages ESL youngsters to communicate their own written messages while simultaneously developing their literacy skills in speaking and reading rather than delaying involvement in the writing process, as advocated in the past, until students have perfected their abilities in handwriting, reading, phonetics, spelling, grammar and punctuation. In Process Writing, the communication of the message is paramount and therefore the developing, but inaccurate, attempts at handwriting, spelling, and grammar are accepted, know that within the process of regular writing opportunities students will gain control of these sub-skills.

In this regard, Nunan (1999) clearly states the process approach is very different from the traditional product-oriented approach. Whereas the product approach focuses on writing tasks in which the learner imitates, copies and transforms teacher supplied models, the process approach focuses on the steps involved in creating a piece of work. The primary goal of a product approach is an error-free coherent text.

Process writing allows for the fact that no text can be perfect, but that a writer will get closer to perfection by producing, reflecting on, discussing and reworking successive drafts of a text (Simpson 2009). This shift requires greater learner participation and responsibility in the learning process, and with this, the teacher's role has been shifted from an evaluator of the written product to a facilitator and co-contributor in the writing process. The collaborative effort between teachers and learners result in discovering what written language is and how a piece of writing is produced.

Stages of the Writing Process:

Prewriting: Clarifies the purpose of writing, thoughts are generated through talking, drawing, remembering, brainstorming, reading, note talking,

searching for information, free associating and questioning to generate ideas.

Drafting: This is a rough, exploratory piece of writing in which ideas are organized and written up into a coherent draft; this stage of writing should not be evaluated, but supported. Topics and concepts are generated through quick-writes, free writing, graphic organizers, journals, learning logs.

Feedback: At this stage the writer receives the most guidance on how to improve his or her writing skills. Responses at this stage typically focus on meaning, not correctness. Activities include conferencing, getting feedback, sharing work; responding to comments, suggestions, reflecting on own writing (meta-writing). Through the questions and comments raised by the instructor or peers, the writer discovers, clarifies and refines his or her writing. Accepting criticism/comments is important at this stage.

Revising: Revising means re-writing the paper, building on what has been done, in order to make it stronger. Revision adds coherence, variety, transition, emphasis and details. Revision eliminates irrelevance, wordiness and inconsistencies.

Editing: Editing is to check for and correct errors in grammar, punctuation, sentence structure, vocabulary and spelling.

Publishing: In this stage, students share their final versions of writing with an audience.

The process approach to writing emphasizes a cycle of revision during which students draft, edit, revise, and redraft their work. In this approach, feedback from teachers or peers and the opportunity to revise written work based on the feedback are considered to be keys to students' development as writers, and the role of instruction in novice learning and appropriation of writing has become a focal concern. Teachers are to treat "the emerging text as an improbable object" (Haneda & Wells, 2000, p. 443 as cited in Patthey-Chavez, Matsumura & Valdes, 2004). Figure 1 demonstrates the general stages of the process writing approach. Thus, the process-oriented writing approach offers a new viewpoint in giving responses to students' written work and a new way of providing feedback. Unlike the product-centered model which considers writing as a product to be evaluated, the process-oriented approach regards writing as a complex developmental task. It pays more attention to how a discourse is created through the negotiation and discovery of meaning than to write sentences without any mistakes.

Weblogs in Second Language Writing:

Technology is increasingly becoming popular and it is being exploited for

teaching and learning all over the world mostly because of its flexibility in terms of time, place and pace. The trend toward computer-assisted language learning (CALL) and computer mediated communication (CMC) in language learning have influenced the teaching of writing in both L1 and L2 settings. To date, several studies have been conducted to examine how technology can be used in EFL and ESL classes. Majority of the studies have focused on the potentials of computer technology with regards to teaching and learning languages more effectively. Dunkel (1990), for example, states that the possibilities of computer technology as a pedagogical tool can increase (1) self-esteem, (2) vocational preparedness, (3) language proficiency and (4) overall academic skills of language learners.

The pedagogical benefits of CMC have been facilitated mainly through both synchronous and asynchronous modes. In synchronous mode of communication, students communicate with each other or the teacher in real time via internet chat sites and in asynchronous mode students communicate in a delayed way such as via e-mail (Li, 2009). CMC seems to encourage human interactions that support the language learning process. This greatly helps the learners to have meaningful, collaborative interactions regardless of culture within or across classrooms and therefore, CMC can be considered as an excellent medium to enhance new social relations. In view of this, some of the studies focused on the benefits of using computer testing, students' perceptions and experiences of teaching and learning with technology, web based peer review and its impacts, and the impact of technology on writing. In conceptualizing these, researchers found various information and communication technologies that can be considered as pedagogical tools to facilitate teaching and learning. These include wikis, online forums, podcasts, bulletin boards and weblogs. The term weblog as initiated by Barger in 1997 refers to a personalized webpage which is arranged according to the reverse chronological diary form.

Weblogs are kept on the web as the term weblog suggests and connected to other internet locations via hyperlinks (Du & Wagner, 2005). Campbell (2003) suggests that a weblog (or blog) can be considered as an online journal that can be updated constantly by an individual. Further he explains that since the number of users of blogs has been increased tremendously due to various reasons; blogs can be used for personal, educational, journalistic and commercial purposes.

Weblog with its dynamic features is identified as an individual or social communication channel and also as a great educational resource. In light of

the pedagogic values of blogging, researchers are determined to trial blogging as a tool for learner language development. Several researchers have written about the possibilities of using weblog as a teaching and learning tool in education. Among them is Campbell (2003) who states that there are three types of educational blogs that can be used in ESL classrooms; the tutor blog, the learner bog and the class blog. He suggests various positive and possible uses of these weblogs. One of the significant and emerging genres in ESL context is using weblogs to improve students' writing skills.

The integration of blogs in English classes report that web publications provide the learners with a real audience and a collaborative environment where students interact by proving and receiving feedback and thus, enhancing their writing skills (Bragg, 2003). Nelson and Fernheimer (2003) also indicate that blogs as an effective tool for collaborative writing projects for small groups. In particular the brief, frequent blog posts help students in the writing process. They also indicate that writing in a group blog helps students to share individual work because it facilitates revisions that can be negotiated between writer and readers. (Jones, 2006) Arani (2005) conducted a research on using weblogs to develop writing, reading and communication skills in English for Specific Purposes among non-native speakers of English at Kashan University of Medical Sciences in Iran. And the results showed that students preferred to write on the weblog than the traditional ways, and weblogs can improve English in the context of ESP.

Tekinarslan (2008) conducted a study on the experiences of an instructor and an undergraduate class who used blogs in their teaching and learning environment at Abant Izzet Baysal University, Turkey. He reports that blogs as a web publishing tool can be used to improve the students' writing skills while improving other skills such as information searching and literature review skills. Similar results were shown in the study conducted by Davi et al. (2007). The researchers affirm that blogs as can be used in various disciplines as they enhance liberal learning in classrooms. In addition, Davi et al. claim that having engaged in various blogging activities, students improve their critical thinking skills, reasoning skills and also written and oral communication skills.

Weblogs In Process Writing Approach:

Studies on weblogs in educational context suggest that blogs can be used as online journals, learning logs, reflective journals, e-portfolios, group discussions and collaborative learning spaces etc. (Campbell, 2003b; Kennedy, 2003). The application of weblogs with the Process Writing Approach, which is the focus

of this paper, appears to offer additional benefits to the ESL learners. Process Writing Approach emphasizes writing as a process or a developmental task in which prewriting, multiple drafting, and revising are considered important in assisting learners to develop their writing skills. In the process of multiple drafting, peer review which is referred to as peer editing, peer evaluation, or peer response comes in as a step where the writer is exposed to meaningful interaction with peers, a greater exposure to ideas, and new perspectives on the writing process (Hansen and Liu, 2005). According to Warschauer (1997), the potential of collaborative learning through CMC is related to the Social Constructivist Approach which was developed by Lev Vygotsky (1978). He claims that the construction of knowledge is socially oriented. He believes that learning occurs through interactions with and within the environment in which these interactions take place and cultural tools influence learning to a great extent. One of Vygotsky's major claims, Zone of Proximal Development (ZPD) refers to the distance between the actual development level of a learner and the level of potential development under adult guidance or in collaboration with more capable peers (Vygotsky, 1978). This paper wishes to identify and discuss the role of weblogs as an appropriate and effective tool in various stages of process writing approach with emphasis on the stages of peer feedback and revising. It is based on an observation conducted as part of a research (2010) that is being carried out in ESL classrooms. These students possess basic writing skills and average computer literacy. The students who are between 18-20 years old are studying at pre-university level. They are required to take English as a Second Language as a compulsory subject as part of the course which prepares them for the degree program. The researcher/lecturer is using weblogs in developing these young scholars' writing skills. In implementing weblogs in the writing process all the students in this class are expected to have their own weblog provided by Blogger.com. Blogger.com is a website where anybody can create a blog free of charge. Students can create their blogs in Blogger.com in three simple steps. They can also customize the features depending on their needs and interests. All students' blogs are connected to the class blog which is created by the researcher/lecturer for cross references. Students are mainly involved in developmental writing and after drafting students publish their work in their blogs. These writings are based on the lessons, discussions and assignments they need to complete. As the next step, students are asked to provide feedback on their peers' work using the comment feature of the blog. Before students start commenting on and critiquing their peers' work, students are given a set of guidelines which

can help them to be focused. With the help of the comments they receive from their peers, students are to revise and edit their work and as the last step the final version of the essay will be published in the blog for the researcher/lecturer to do the evaluation. On the other hand, the class blog which is linked to all the students' blogs provides additional and supplementary materials for the students. For instance, reading materials, useful links to online dictionaries and referencing systems, guidelines etc. The following discussion includes the various ways that weblogs benefit and facilitate in particular the feedback and revising stages of process writing approach. Having the features to support the peer feedback in process writing, weblogs offer more flexibility than face to face peer feedback in terms of time, place and pace.

In a computer based teaching and learning setting, the learners are not required to log on to a computer at the same time to provide feedback as weblog is an asynchronous mode of communication. Therefore, it is beyond the four walls of the classroom which provides the learners with the opportunity to take time to reflect and engage in the activities when convenient and at their own space. Weblogs make the revising stage easier where the learners can add what they would like to express and also can change any points that they think are not appropriate. It is easy to edit and revise using weblogs because the learners can make use of the edit post and delete post features since typed feedback can be amended any time before being forwarded to the writer.

Weblogs can be used as a tool for observation: student-based observation and teacher-based observation. In the latter, weblogs provide teachers with total access to every individual learner blog where students' progress can be monitored. Based on the students' interaction and comments, the teachers can guide them to be focused and observe students' negotiation. Upon reviewing students' negotiations, if the teachers find a peer or an individual student making general or superficial comments, they can redirect them toward specific comments and critical and analytical negotiations.

In the student-based observation, weblogs enable the learners to observe their own progress. Learners are benefitted as they can refer to the previous comments and re-read all the drafts which are stored in their weblogs. This retrieval feature allows students to enhance their autonomy in making corrections and reflecting on their writing. This motivates students to reflect on the process of learning in which they are actively participated in a recurring learning cycle. Kennedy (2003) reports on the integration of blogs into English classes in secondary schools and states that students are able to sharpen their skills through receiving and providing feedback when publishing their work

on the blog where they have a real audience. Furthermore, he explains that in this way they are involved in a cycle of reflective learning.

ESL learners blog where students post their assignments, tasks etc. According to process writing approach, students post their writings as drafts to the blog, and these drafts and comments can be retrieved any time students need to refer to them. Using weblogs in the stage of feedback in process writing approach is less “face threatening” compared to asking the students to mark and comment a paper in red ink, cross out some sentences, or use question marks and exclamation marks in the margins. This may make the student writer feel embarrassed, and unwilling to accept the suggestions provided by the peers (Liu and Sadler, 2003, p.220).

The traditional way of providing feedback using pen and paper limits interaction as the students do not get to see all their peers writing. Whereas in weblogs, the learners can become the followers of their peers blogs using weblog functions and get access to read all the drafts and comments posted. It is significant to note that in process writing approach, the suggestions made by peers are more suggestive than directive. The writers are not expected to produce an error free and coherent text as writing is seen as a developmental task. The aim is to get close to perfection by doing the task in various stages in form of a process. Besides, ESL students can post comments as well to the learner blog on a draft of an essay which will be sent by the student writer. The suggestive comments sent by the peer would help the student writer to edit/revise the draft of the essay in order to come up with the final submission.

Another way of providing feedback in classrooms is in form of oral comments where students have to see their peers in a face to face setting. This is considered not only time consuming but it also makes students feel uneasy to listen to their peers when they point out their weaknesses. Weblogs is a useful tool to help students feel less stressful as they do not need to see their peers when giving and receiving feedback. Weblogs give this opportunity to learners to feel more comfortable. In addition, some learners have problems with their own listening comprehension skills which create tension in oral feedback process. Using weblogs they feel less pressure since they do not struggle or understand the peers’ accent or unknown words and other related issues.

However, in providing feedback in process writing, it is important to instruct and guide the learners how to give effective and helpful comments. This is another stage that weblogs can benefit process writing. Guiding students to give comments not only helps to improve the quality of feedback but also assists students to write and revise their own drafts in a more analytical and

skillful way. Many studies support the idea that peer review can be extremely effective for a variety of reasons when used correctly especially when students are trained on how to give and use feedback (Min, 2006). Thus, weblog-based peer review sessions in process writing approach undoubtedly can teach students writing skills, particularly writing to a real audience. The learners are able to see different ideas and points of view other than their own and revise their drafts effectively with the suitable features in the weblog. Learning to effectively review the peers' drafts may then ultimately result in creating better self-reviewers.

Summary:

Although the vogue of blogging is becoming increasingly popular, the use of weblogs in process writing approach is still in its stage of infancy. Therefore, studies on this area will add to the area of teaching and learning in numerous ways. It will provide the pedagogical practices and guidelines for the educators to incorporate blogging as a tool in the writing process. To ensure optimal participation of learners and maximize the level of motivation to write in English, blogging opens new doors for teachers to systematically monitor the students' writing skills.

In addition, the implementation of blogs into the curriculum offers encouragement and self-esteem to students, and allows language teachers to actively engage with their students. As such, this will help to enhance the areas of independent learning (learner autonomy), and student-centered learning.

REFERENCES:

- Arani, J. A.** (2005). Teaching writing and reading English in ESP through a web-
www.espworld.info/Articles_11/TeachingReadingandWritinginESPthroughaWeb-BasedCommunicativeMedium.htm.
- Atkinson, D.** (2003a). L2 writing in the post-process era: Introduction. *Journal of Second Language Writing*, 12, 3-15.
- Atkinson, D.** (2003b). Writing and culture in the post-process era. *Journal of Second Language Writing*, 12, 49-63 .
- Beard, R., Myhill, D., Riley, J., & Nystrand, M.** (2009). *The SAGE handbook of Writing Development*. London: SAGE Publications Inc.
- Berg, E. C.** (1999b). The effects of prepared peer response on ESL students' revision types and writing quality. *Journal of Second Language Writing*, 8, 215-241.

- Davi, A., Frydenberg, M., & Gulati, G. J.** (2007). Blogging Across the Disciplines: Integrating Technology to Enhance Liberal Learning. *MERLOT Journal of Online Learning and Teaching*.
- Du, H. S., & Wagner, C.** (2005). Learning with weblogs. *Proceedings of 38th Hawaii International Conference on System Sciences 2005*. IEEE. Retrieved from <http://ieeexplore.ieee.org>
- Dunkel, P.** (1990). Implications of the CAI effectiveness research for limited English proficient learners. *Computers in the Schools*, 7(1/2), 31-52.
- Ferris, D. R., & Hedgcock, J. S.** (2005). *Teaching ESL Composition purpose, process, and practice*. New Jersey: Lawrence Erlbaum Associates Publishers.
- Garrison, D. R., & Anderson, T.** (2003). *E-Learning in the 21st century*. London: Routledge Falmer.
- Guardado, M., & Ling, S.** (2007). ESL students' experiences of online peer feedback. *Computers and Composition*, 24, 443-461.
- Hansen, J. G., & Liu, J.** (2005). Guiding principles for effective peer response. *ELT Journal*, 59(1), 31-38 .
- Heald-Taylor, G.** (1994). *Whole Language Strategies for ESL Learners*. Carlsbad: Dominic Press, Inc.
- M.C., & Savignon, S. J.** (2007). Face-to-face and Computer-mediated Peer Review in EFL Writing. *CALICO Journal*, 24(2), 269-290.
- Holmes, N.** (2009). The use of process-oriented approach to facilitate the planning and production stages of writing for adult students of English as a foreign or second language.
- Hyland, K.** (2003). *Second Language Writing*. Cambridge: Cambridge University Press.
- Jarvis, D. J.** (2002). The Process Writing Method. *The Internet TESL Journal*, VIII (7). Retrieved from <http://iteslj.org>
- Joe, L. W.** (2009). A process Approach to Feedback in Writing. Retrieved from <http://citeseerx.ist.psu.edu/viewdoc/download;jsessionid>
- Jones, S. J.** (2006). Blogging and ESL writing: A case study of how students responded to the use of weblogs as a pedagogical tool for the writing process approach in a community college ESL writing class. Austin: The University of Texas.
- Kelly, C.** (1997). David Kolb, The Theory of Experiential Learning and ESL. *The Internet TESL Journal* , III(9). Retrieved from <http://iteslj.org/Articles/KellyExperiential>
- Kennedy, K.** (2003). Writing with Web Logs. *Technology and Learning Magazine*, 23. Retrieved from <http://web2play.pbworks.com/f/Post+Writing+with+Web+Logs+copy.pdf>
- Lundstrom, K., & Baker, W.** (2009). To give is better than to receive: The benefits of peer review to the receiver's own writing. *Journal of Second Language Writing*, 18 , 30-43.
- Reiff, M. J.** (2002). Teaching audience post-process: Recognizing the complexities of audiences in disciplinary contexts. *The WAC Journal*, 13, 100-111.

- Schutz, R.** (2007). Stephen Krashen's theory of second language acquisition. Retrieved from <http://www.sk.com.br/sk-krash.html>
- Simpson, A.** (2009). A process Approach to Writing. Retrieved from http://developingteachers.com/articles_tchtraining/pwvf_adam.htm
- Simpson, J.** (2002). Computer-mediated communication. *ELT Journal*, 56(4), 414-415.
- Tekinarslan, E.** (2008). Blogs: A qualitative investigation into an instructor and undergraduate students' experiences. *Australian journal of Educational Technology*, 24(4) , 402-412.
- Topping, K. J.** (2005). Trends in Peer Learning. *Educational Psychology*, 25(6), 631- 645.
- Turney, C. S., Robinson, D., Lee, M., & Soutar, A.** (2009). Using technology to direct learning in higher education: The way forward? *Active Learning in Higher Education*, 10(1), 71-83.
- Vygotsky, L. S.** (1978). *Mind in society*. Cambridge, England: Harvard University Press.

Etude sur la dichotomie entre la modernité et l’Islam Chez Daryush Shayegan

Mirna Keyrouz

طالبة دكتوراه

L’Islam ; modèle de contre-modernité : opposition et fascination face à une modernité non assimilée

Dans son œuvre “La schizophrénie culturelle: les sociétés islamiques face à la modernité¹”, Shayegan, ancien professeur d’étude indienne et de philosophie comparée à l’université de Téhéran ainsi que directeur du centre iranien pour l’étude des civilisations et grande figure iranienne révolutionnaire qui milite pour la nécessaire démocratisation de l’Iran, analyse les raisons des distorsions de l’esprit dans les civilisations qui sont restées en retrait dans l’histoire et dont les structures mentales encore tributaires de la Tradition ont du mal à assimiler la modernité et n’ont pas participé aux changements radicaux de la pensée humaine. Derrière ce décalage se profilent deux modes d’être antagonistes, deux expériences historiques diverses qui, en dépit des disparités sous-jacentes, représentent les deux faces d’une expérience unique de l’homme dans le monde. C’est de la confrontation critique de ces deux mondes que dépendra, dans l’avenir, la possibilité d’un dialogue entre les habitants de la planète.

De plus, dans « La conscience métisse² », Shayegan expose ses obsessions personnelles développées dans d’autres recueils qu’il a écrits :

Comment colmater les brèches historiques dans le tissu de nos connaissances ?

Quel rôle peut-on jouer dans une civilisation planétaire ?

Comment penser la philosophie en dehors de l’orbite occidentale ?

Ces questions concernent la destinée des civilisations extra-occidentales.

Shayegan fait une comparaison entre la pensée moderne et la pensée islamique, il constate que le XVII^e siècle fut dominé par l'innovation cartésienne de la méthode dans laquelle Descartes court – circuitant le passé, innove et perce de nouvelles avenues qui feront de l'homme l'instance fondatrice de l'univers et par suite le XVIII^e siècle fut l'ère des Lumières et de la critique où le dualisme métaphysique se traduit aussi politiquement par l'espace privé de la conscience libre et l'espace public du pouvoir absolutiste. Ce sera au tour de l'espace privé à censurer le pouvoir et mettre en évidence les contradictions dialectiques qui opposent la morale à la politique. D'où l'idée de la crise et des tentatives pour moraliser le pouvoir qui aboutiront à l'idéologie des révolutions.

De l'autre côté du monde, Shayegan déduit qu'en Iran, la grande synthèse de la pensée islamique s'achève vers le XVII^e siècle sous la dynastie safavide (1501-1722), c'est la renaissance de l'école d'Ispahan et l'impressionnant édifice doctrinal de Mollâ Sadrâ Shîrâzî (1571-1640) qui achève un mouvement séculaire et ajoute la dernière pierre à l'édifice déjà imposant de la métaphysique islamique de sorte qu'en Iran, tous les développements ultérieurs de la pensée seront en quelque sorte une suite de commentaires sur l'œuvre de Sadrâ, laquelle ne sera jamais dépassée dans son contenu métaphysique sinon toute innovation sera effectuée en termes de rupture avec les prémisses de la théologie islamique. Ce que ne peut tolérer la vision religieuse de l'homme sans renoncer à elle-même, d'où entassement de la pensée et renouvellement limité à l'intérieur de la sphère d'une philosophie prophétique qui ne cesse de se répéter de penseur en penseur pour aboutir à la sclérose scolastique. Assiégées par des modes de pensée agressifs, les idées se marginalisent et se replient sur elles-mêmes, socialement, les gens vivent et reproduisent mimétiquement les anciens comportements ancestraux et pensent en schèmes de pensée périmés qui correspondent de moins en moins aux réalités changeantes du monde qui les entoure. C'est cette sclérose ontologique qui est l'objet de cet article dans une tentative de discerner les pseudo-fondements dans lesquels est ancrée la théologie islamique dont on vit toujours les répercussions devenant de plus en plus altérées.

Contre la Modernité : adhésion impétueuse à la sclérose identitaire

Le refus obsessionnel de l'Occident et de la modernité provient, dit Shayegan, de la non – compréhension ou de la non-assimilation de ce phénomène historique majeur qui n'a jamais été pris en compte objectivement dans sa teneur philosophique propre, mais toujours en fonction des transformations traumatisantes qu'il a infligées à nos traditions, à nos manières de vivre et de

penser. L'Occident ne fut jamais considéré comme un paradigme nouveau en rupture avec le passé, ayant ses propres lois et sa propre logique de domination, mais comme une conspiration de forces occultes, qui, de fait de leur puissance matérielle, prenait possession de nous, dépravaient nos mœurs, corrompaient nos vertus en nous réduisant à la longue à l'esclavage politique et culturel.

Shayegan se pose trois questions majeures sur l'existence des distorsions entre l'Occident et le monde islamique de sorte que ce dernier soit ancré dans **un retard³ ontologique** dans lequel il se sent bien couvé contre tout type de basculement : d'où viennent les distorsions ? Comment opèrent-elles ? Et quelle est leur nature ?

La première question est d'ordre ontologique, elle envisage les brèches historiques et le changement de paradigme, la seconde concerne l'épistémologie, c. à. d. les placages que la pensée effectue pour raccorder les paradigmes hétérogènes et la troisième a pour objet l'étude des types de connaissances hybrides qui constituent un monde de sous – réalité et de non-lieu.

Les distorsions, dit Shayegan proviennent du décalage ontologique, les structures de la modernité se sont imposées à toutes les cultures de la planète et se sont substituées à notre culture médiévale du passé, les sciences humaines sont issues de grands basculements épistémologiques du XXe siècle. On a acquis les sciences de la modernité sans avoir subi intérieurement le processus qui leur a donné naissance. La conscience, imprégnée du paradigme des visions premières n'étant pas été intérieurement modifiées, est en retard sur la modernité qui au lieu de l'éclairer l'obnubile : « *parce que pour la première fois dans l'histoire de l'humanité les rapports de l'homme à l'égard de la nature changent de fond en comble. Ce changement nous vient de l'Occident ; c'est en Occident que débute au XVIe et XVIIe siècles l'âge scientifique-technique⁴* ».

C'est à ce moment original de l'humanité que l'homme transcende la nature et la domine, il devient maître et possesseur de la nature avec Descartes et les philosophes des Lumières, dès lors, dit Shayegan, la pensée scientifico-technique issues des sciences de la nature se substitue aux formes contemplatives de connaissances sur lesquelles étaient basées les valeurs qui rendaient possible une communication en profondeur entre les différentes civilisations, donc un bouleversement total des valeurs, des conditions et des habitudes de vie et de pensée s'est établi. Il y a eu dans le développement de la pensée occidentale un déplacement de centre du supérieur à l'inférieur : de l'intelligence aux instincts, de l'eschatologie à l'histoire, de l'esprit à la raison, de la contemplation extatique d'un ego ultra-gonflé à une démarche dialectique dans la compréhension des faits naturels. Ce qui n'est pas le cas en

l'islam, explique Shayegan, qui depuis Adam jusqu'au prophète Mohammad, baigne dans le circuit d'une histoire complètement contemplative fondée sur une vérité éternelle dite la « réalité mohammadienne », l'on voit qu'il est évident que dans une telle civilisation où la pensée mytho-poétique conserve toujours sa charge numineuse, les catégories de temps, d'espace et de causalité sont qualitatives et obéissent beaucoup plus aux structures symboliques de l'esprit qu'aux lois rigoureuses, claires et distinctes de la raison analytique. Les sociétés arabes, « *que l'on considérerait naguère stagnantes et ossifiées ... sont les dernières à sortir de l'ornière d'un immobilisme séculaire, de l'illusion d'un califat universel.*⁵ » Il considère en fait que les peuples arabes gémissant encore sur les ruines des gloires d'antan, profondément ancrés dans un ressentiment étouffant tout espoir de briser leurs chaînes de souvenirs pénibles et douloureux qu'ils se sont infligés, demeurent prisonniers de leur paralysie psycho-cognitive qui, conséquemment, les empêchent de suivre les pirouettes du jour.

Cette mentalité, dans toutes ses dimensions, se reflète tant au niveau des croyances que des coutumes. Au niveau des premières, il constitue une sorte de matérialité distincte à la fois du réel et de l'irréel. Cette matérialité se laisse intégrer dès le début de la vie comme une sorte de rêve car elle s'appuie sur l'expérience vécue, sur le pouvoir de la vision, sur l'intuition plutôt que sur l'analyse scientifique. La modernité vient achopper sur cette matérialité quasi immuable qui se traduit aussi dans la masse pesante des coutumes et des habitudes invétérées qui sont la cristallisation de cet espace mental, d'où leur imperméabilité à l'endroit de tout changement.

Entre la conscience puisant dans le sous-sol de la psyché collective et l'idée émergeant des métamorphoses de l'histoire, s'insère le retard. Et celui-ci est à la croisée de deux ordres de connaissance dont les modes de déploiement demeurent radicalement opposés. D'un côté, délayage du mythe, rabattement de celui-ci au niveau de l'histoire, recherche de causalité et de détermination, de l'autre, tendance à la verticalité, à l'identification, à la substantiation, bref à la recherche des origines consacrées, dignes de culte, non substituables de peur d'être altérées car tout autre substitutif sera impropre.

Les idées nouvelles, n'y trouvant aucun point d'ancrage, se plaquent sur un fond historiquement incommensurable qui n'est pas prêt à les recevoir, encore moins à les intégrer d'où irrémédiablement la béance qui est une sorte de plaie ouverte dans notre conscience, c'est pour illustrer cette idée que Sagan écrit dans son ouvrage *La conscience métisse* : « *dans la mesure où cette non-contemporanéité est un refus du temps présent, elle est subjectivement non*

contemporaine, le peuple refusant tout bonnement de se soumettre au diktat de l'Etat, et dans la mesure où cet Etat présente les strates archaïques d'un pouvoir non-adapté au rythme accéléré du monde actuel, elle est objectivement non contemporaine.⁶»

Sagan affirme que tout retrait de projections suscite un phénomène de compensation. En Occident, à chaque retrait correspond une substitution. Le travail de retrait étant accéléré par l'œuvre corrosive de la critique, le retrait de quelque chose qui était là jadis mais qui ne l'est plus aujourd'hui. Avec l'âge des Lumières, la raison se substitue à la révélation tout comme les tendances et les pulsions fondamentales viennent supplanter le règne autoritaire de celle-là. Ces substitutions provoquent un basculement de catégories tant au niveau de la connaissance qu'à celui des modes de production et des rapports sociaux : entre l'idée et la conscience qui se l'approprie, il y a toujours adéquation et isomorphisme, dans ce sens, Sagan souligne dans son ouvrage *Les Illusions De L'Identité* qu'« *en parcourant d'un bout à l'autre l'histoire de cette pensée nous constatons, sous-jacent à son développement, un mouvement continu de métamorphoses, de changement qualitatifs...dans cette perspective, ontologie et histoire sont intimement liées, c'est-à-dire qu'il y a correspondance entre la façon dont l'être se révèle à chaque étape de l'histoire à la conscience occidentale et la manière dont celle-ci assume celui-là⁷»* .

Shayegan note que ce phénomène de réalisation dans l'histoire, de chute dans le temps fut parfaitement étranger aux grandes civilisations traditionnelles pour lesquelles l'être, loin d'être une activité, est cette surabondance immobile, cette vacuité plénière qui n'a besoin d'admettre aucune extension dans l'espace, aucune dégradation dans le sensible. Quoique la pensée occidentale demeure, en dépit des crises continuelles qu'elle subit - ces crises étant implicites à la nature même de sa structure **schizomorphe**⁸ - conséquence avec elle-même.

En revanche, nous voyons que Shayegan insiste sur le fait que dans les aires de culture extra-occidentale, les deux phénomènes de retrait de projection et de compensation restent décalés. Les retraits de projection ne sont guère subis comme des expériences historiques vécues intérieurement mais comme des choses venues du dehors.

Les remplacements qui viennent compenser la dévalorisation d'une partie de la conscience n'y sont pas opératoires puisque la conscience rétrograde et puise dans les réserves de la mémoire collective toujours archaïque et obsolète, il s'ensuit que nous nous permettons de déduire que Forme et contenu n'ont pas évolué d'une façon parallèle et **isomorphe**⁹.

Shayegan, dans son analyse des constitutifs de la pensée des civilisations extra-

occidentales se fut inspiré du paradigme de Kuhn pour décrire le décalage ontologique qui opposa dès le seuil des temps modernes l'Occident au reste des civilisations de la planète, partant de la définition selon laquelle l'épistémè est un « sous-sol » de la pensée, une « grille conceptuelle » qui sous-tend tous les types de connaissance à une période donnée, ce dernier considère que le changement de paradigme correspond à des périodes de crise où les deux paradigmes peuvent coexister et lutter avec acharnement pour survivre. C'est précisément un cas analogue que nous constatons aujourd'hui dans le conflit des paradigmes qui oppose l'Occident au tiers monde.

Les épistémès de la méthode archéologique mettent en évidence les césures des différentes périodes de la pensée occidentale, les civilisations extra-occidentales n'ont pas connu ces bouleversements sismiques de la pensée car elles n'ont vécu ni l'âge classique ni l'âge critique ni les temps modernes, elles les ont subis par procuration. Les seules armes épistémologiques dont disposaient ces vieilles civilisations pour connaître ce nouveau monde étaient du type de l'épistémè préclassique où l'analogie, la sympathie, les relations magiques entre le microcosme et le macrocosme, les correspondances occultes entre les êtres et les choses étaient les principes suprêmes du monde et de la connaissance de l'être, elles vivaient encore dans le monde enchanté des projections :

Shayegan examine l'épistémè des civilisations non occidentales qui, n'ayant pas subi ces césures, ont eu à affronter les dernières métamorphoses de l'épistémè moderne vers la deuxième moitié du XIXe siècle, il constate que l'épistémè de la ressemblance constitue le sous – sol qui relie les mots et les choses dans un tissu de similitudes.

L'épistémè de la ressemblance est la signature selon laquelle Dieu a mis partout sa signature dans le monde couvert de signes à déchiffrer. Connaître, ici, selon Shayegan, c'est donc interpréter, c. à. d. aller de la marque visible à l'invisible, par conséquent, la connaissance sera une herméneutique des arcanes.

Cette épistémè s'effondre en Occident à partir du XVIIe siècle et aux analogies comme loi de la pensée classique se substitue la représentation comme nouveau mode de la connaissance, la similitude n'y est plus une forme de savoir mais une source d'erreur et d'images confuses de l'esprit. L'activité de l'esprit ne consiste plus à rapprocher les choses entre elles mais à discerner, c. à. d. à établir des identités distinctes et claires.

Par conséquent, l'analyse se substitue à la hiérarchie analogique. Dès lors toute similitude sera mise à l'épreuve de la vérification et il sera possible de faire une énumération complète des choses, de les mettre en catégories, d'en distinguer les différences et les identités. De même, l'homme apparaît comme

un objet de savoir et de sujet qui connaît. L'épistémè classique ne cherchait pas à isoler un domaine spécifique propre à l'homme, par contre, l'épistémè moderne est clairement anthropologique : l'homme y est sujet et objet de la connaissance, sa finitude constitue l'essence de la modernité. Shayegan ajoute que l'humanisme de la Renaissance, le rationalisme des classiques se sont occupés certes de l'homme, lui ont assigné une place privilégiée mais ne l'ont jamais pensé, on dirait qu'avant la fin du XVIII^e siècle l'homme n'existait pas. Ce qu'on analysait au XVIII^e siècle furent les modes de la représentation qui permettaient la connaissance comme réminiscence, imagination et mémoire. Alors qu'avec l'épistémè moderne, il s'agit de mettre au jour les conditions de la connaissance à partir des contenus empiriques qui sont données en elle. Ici, la place centrale est donnée à l'homme comme sujet souverain de toute connaissance possible, Shayegan met en valeur le rôle majeur et exclusif de la modernité qui « *se présente comme un mouvement de libération*¹⁰ » du mythe fondateur de la révélation qui justifiait le règne de la religion. C'est ainsi que l'homme devient autonome et source fondatrice de toute valeur, il construit le monde à partir des catégories de la raison, et ce n'est, ajoute Shayegan, qu'à l'intérieur d'un tel espace laïcisé que l'essence de l'homme peut être fondée comme un sujet de droit et de reconnaissance : « *Dès lors, intériorisant la religion comme la loi morale en lui, voire la privatisant...l'homme moderne émerge à l'aube des temps modernes comme un être libre capable de créer des institutions démocratiques*¹¹. » Shayegan voit que dans les conflits de paradigme qui opposent de nos jours le tiers monde à l'Occident, on est arrivé à une **situation intermédiaire**¹² où deux épistémès se croisent en se défigurant l'une l'autre. Une situation conflictuelle, inter-épistémique s'est créée qui va à l'encontre de la vision monolithique de Foucault qui disait que dans une culture et à un moment donné, il n'y a jamais qu'une épistémè qui définit les conditions de possibilité de tout savoir alors que notre expérience montre que les épistémès, quelques hétérogènes et incommensurables qu'elles puissent être, ne sont pas des blocs monolithes, s'excluant mutuellement dans une période donnée, elles peuvent coexister et même se déformer réciproquement, on peut vivre alors une période de retards épistémiques dans laquelle les tenants d'une épistémè archaïque s'affrontent aux précurseurs de la nouvelle grille conceptuelle du monde.

Nous voyons Shayegan exprimer son mécontentement quant à ce retard ontologique qui encercle les arabes dans une paralysie culturelle, les rendant nonchalants à toute vision innovatrice d'où le décalage morbide et pervers entre l'Occident et les civilisations extra-occidentales, ce texte extrait de son

ouvrage *Schizophrénie culturelle : les sociétés islamiques face à la modernité* manifeste nettement le resserrement et le racornissement de l'esprit arabe dont les visions, les idées, les perceptions, bref tout le contenu de sa pensée ne correspondent plus organiquement aux formes du monde concret, aux modes de la vie courante, aux applications diverses relatives au contexte vécu, il s'ensuit que ses réactions face à la réalité des choses sont mutilées vu l'absence d'interaction ou d'interconnectivité avec le réel :

« ma vision du monde renvoie à une transfiguration préalable grâce à laquelle les choses baignent dans un climat magique. Le monde où vivent les objets, d'où ils tirent leurs fonctions n'a pas pour mon esprit la même épaisseur réelle que pour le regard de celui qui le conçoit et en fit l'expérience. Je vis dans un monde d'absence : ma pensée opère sur des idées qui n'ont aucune prise sur les choses.¹³»

Shayegan décrit le mécanisme de la pensée de l'homme traditionnel arabe pour qui les idées nouvelles et les objets nouveaux lui sont étrangers, il n'a, pour les connaître, ni les mots appropriés ni les représentations adéquates dans son esprit donc il ne peut pas tracer leur genèse car il n'a pas assisté à leur naissance.

Il n'a pas pris part aux crises successives qui préludèrent à leur fabrication ni aux modes de production qui les rendirent possibles, leur généalogie et leur archéologie lui restèrent inconnues, ils sont des choses aberrantes qui dérangent ses habitudes et lui imposent des contraintes dont il ne peut se libérer et pourtant quelque chose en eux le séduit. Ses perceptions de la réalité n'ont pas changé au même rythme des objets.

Nous constatons d'après la description de Shayegan que la conscience de l'homme arabe vit toujours à l'heure de l'enchantement du monde si hermétique est son attachement à la structure mythique de la réalité qui demeure immuable à ses yeux et de laquelle il est complètement dépendant, par suite les sociétés arabes se trouvent prisonnières de la discordance entre ce qu'elles vivent et ce qu'il est réellement. Shayegan montre encore une fois son mécontentement à l'égard de la crispation et des distorsions qui encadrent la pensée arabe : *« Lorsque je communique avec les grands courants de ma culture, je n'y vois ni rupture ni changement de cap ni déviation par rapport aux grands principes qui les ont régis. Quelque chose persiste en dépit des changements, quelque chose plane au-dessus des aspérités du temps. Je sens confusément qu'entre ce que m'ont légué mes ancêtres et ce qu'est devenu le monde il y a un hiatus. Rien à l'intérieur de ma culture ne m'y prédisposait, rien non plus n'y annonçait un changement de cet ordre.¹⁴»*

Shayegan considère que notre homme évolue dans un monde comparatif ;

ne vivant plus dans un monde clos se suffisant à lui-même, il raisonne par comparaisons, par extrapolations, par identification en chaîne. Il reconstruit son passé selon les normes qui lui sont imposées d'office, il se voit à travers les lunettes d'autrui car il réévalue son passé à la lumière des critères qui lui viennent de l'extérieur.

Ainsi sa compréhension de son histoire est fautive à l'origine car elle est motivée par des critères qui s'apparentent de façon très lâche à ses problèmes. Aux mêmes thèmes qui ne cessent de répéter les mêmes réponses toutes faites.

Il se trouve tiraillé entre deux pôles antagonistes ; le premier lui demandant de lâcher prise ce monde de notions fâcheuses et de se contenter de son orbite traditionnelle tandis que le second le conseillant de ne rien accepter qui ne soit vérifié expérimentalement, de se méfier des a priori dogmatiques et des délires qui se veulent des vérités. La schizophrénie est la situation qui le conditionne malgré lui. Le mensonge s'insère dans les distorsions de ses concepts, il devient sa seconde nature, une façon d'être dans le monde, une manière d'appréhender une réalité face à laquelle il est démuné.

Nous déduisons d'après l'ensemble des idées déjà expliquées que l'affranchissement de la tutelle des **pseudo-palliatifs anachroniques**¹⁵ exige, aux yeux de Shayegan, l'audace de trancher son cordon ombilical, de briser le cocon ouaté de totalisation qui le protège des détails et de la critique qui le fatiguent et le dérangent, le changement doit émaner de l'intérieur de la psyché, de la conscience la plus aigüe, il faut changer sa manière de voir le monde afin de pouvoir le voir dans sa réalité vraie loin de tout déguisement, loin de toute paresse de se contenter des ressources maigres, bref avoir le courage et la bonne volonté de se lancer dans des aventures même si ces dernières sont hasardeuses et susceptibles d'ébranler sa quiétude.

A savoir que, dans la perspective de Shayegan, les notions fondamentales de la modernité dont on vantait les vertus n'étaient pas le produit d'une recette miracle mais l'aboutissement d'un processus historique exceptionnel, elles ne pouvaient être transplantées dans notre monde sans évacuer et marginaliser par là même les valeurs traditionnelles auxquelles le monde musulman tenait tant et qui meublaient entièrement son espace public. Il est évident que les tensions entre le dévoilement de nouvelles zones de réalité et les résistances ataviques qui les excluent ou les refoulent du champ de la connaissance avaient nécessairement généré des fissures dans la conscience. Alors que les choses changeaient extérieurement, les projections mentales opéraient encore sur les anciens modes de représentations. L'homme se sent aliéné par rapport au changement radical dont il subit l'impact alors il se retire progressivement de la scène du monde.

En résumé, Shayegan confirme que les discours relativistes auxquels s'acharnent les civilisations extra-occidentales sont porteurs de défi lancé contre l'occident et la modernité qui le sous-tend.

A son avis, les pays arabes et islamiques vivent la non-contemporanéité dans la mesure où cette dernière est autant la pression étouffante de toute remise à jour du pouvoir que l'entrave d'un avenir émancipatoire de la population qui se révolte pour combler le retard historique qui l'écrase, cet élan vital vers l'avenir est la libération des énergies retenues par la puissance d'une machine désuète qui tourne à vide, donc pour Shayegan, il faut remettre les pendules à l'heure, briser la carapace suffocante pour respirer l'air de la liberté.

Nous avons vu que l'affranchissement des différences culturelles n'est sans doute pas si facile d'autant plus que les décalages historiques entre les civilisations freinent le mouvement de compréhension mutuelle et que la mondialisation non assimilée crée des zones de résistance dans les cultures toujours traditionnelles étant donné qu'à l'origine toutes les cultures de la planète furent ethnocentriques. Mais plus tard en Occident, grâce à la modernité naissante, on s'est mis à douter de l'identification absolue des vertus à sa propre ethnie ou religion en éliminant les particularismes pour ne garder que tout ce qui est accessible à tous les hommes indépendamment de leur race, de leur langue et de leurs particularismes ethniques : la raison.

La raison des Lumières, estime Shayegan, est la source des valeurs neutres dont bénéficient tous les hommes de la planète en dehors de toute prise de position idéologique ou religieuse, d'où le cachet universel de ces idées.

Ces valeurs universelles, neutres idéologiquement, constituent en soi une nouvelle identité qui est la raison à laquelle tous les hommes participent sans réserve, indépendamment de leur appartenance culturelle. On pourrait refuser ces valeurs en se réfugiant dans des fantasmes identitaires mais on ne peut pas négliger leur valeur universelle car cela conduit catégoriquement à une **ankylose identitaire**¹⁶ qu'est le cas des sociétés arabes islamiques.

Au risque de s'isoler dans un monde égocentrique, toutes les cultures de la planète doivent se conformer aux acquis de la modernité faute de valeurs de substitution.

Sans cette identité moderne, ces cultures resteraient bloquées à un certain stade de développement, en dehors de l'évolution historique. Sans l'apport de la modernité, elles aboutiraient à une crispation identitaire sans pour autant que la diversité débouche sur une identité exclusive qui n'est qu'une recherche vaine de la pureté originelle, on risque de tomber de l'immobilisme (valorisation du statu quo en adoptant une attitude d'aversion au changement

donc conservatisme) dans l'obscurantisme (hostilité au progrès des Lumières dans les domaines scientifique ou moral). Dès lors que le critère de l'authenticité se mesure à l'aune du conformisme, à un idéal sclérosé qui ne permet aucune distanciation encore moins aucun dédoublement de la conscience qui nous aide à construire une vision objective du monde, on démolit par-là l'essence même de la diversité culturelle.

Bibliographie consultée

Ouvrages de Shayegan :

- La conscience métisse, Paris, éd. Albin Michel, Bibliothèque Idées, 2012.
- Les illusions de l'identité, Paris, éd. Du Félin, 1992
- Schizophrénie culturelle : les sociétés islamiques face à la modernité, Paris, éd. Albin Michel, 2008.
- Qu'est-ce qu'une révolution religieuse ? Paris, Presses d'aujourd'hui. 1982. Paris 1991, deuxième édition, Bibliothèque Albin Michel des idées, 1991.
- Sous les ciels du monde, Entretiens avec Ramin Jahanbegloo, Paris, Éditions du Félin, 1992.
- La lumière vient de l'Occident, Le réenchantement du monde et la pensée nomade, L'aube, Paris, essai, 2001, troisième édition, 2005, quatrième édition, essai poche, 2008.

¹ Daryush Shayegan, Schizophrénie culturelle : les sociétés islamiques face à la modernité, Ed. Albin Michel, Espaces libres, 2008.

La Schizophrénie culturelle désigne le malaise de nos sociétés traditionnelles à cause de l'inexorabilité d'une modernité non assimilée et de l'effondrement d'une tradition qui ne retrouvera plus sa forme originelle.

² Daryush Shayegan, La conscience métisse, Éditions Albin Michel, Paris, 2012.

La Conscience métisse indique ici une conscience plurielle dans la mesure où elle exige une compréhension multiple des idées opposées loin de toute partialité au point que les identités plurielles sont devenues notre façon d'être dans le monde c. à. d. notre destinée collective.

³ Shayegan désigne par le mot « retard » un retard ontologique, c. à. d. l'idée est plus proche des mythes et des réalités premières que des vérités rationnelles et dialectiques.

⁴ Daryush Shayegan, Les Illusions De L'Identité, Editions DU FÉLIN, Paris, 1992, p.169.

⁵ La conscience métisse, op.cit., p18.

⁶ Ibid., p.11.

⁷ Les Illusions De L'Identité, op. cit., p. 191.

⁸ Shayegan désigne par le concept « schizomorphe » la propension fondamentale de la pensée occidentale aux mutations, aux ruptures internes d'avec l'ensemble de son être.

⁹ Shayegan entend ici par le concept « isomorphe » l'uniformité de la pensée et de la réalité, la conformité entre la conscience dans ses aspects psychique et moral et le monde des phénomènes de sorte que la raison soit ajustée aux transformations et aux modifications de l'heure.

¹⁰ La conscience métisse, op.cit., pp. 100-101.

¹¹ Ibid., p101.

¹² Shayegan parle ici de l'épistémè de l'Entre-deux qui décrit la situation des civilisations traditionnelles qui vivent une longue transition entre un événement en voie de se réaliser et un système spirituel trébuchant qui ne peut ni récupérer sa forme originelle ni être complètement détruit ; entre le « pas encore » et le « plus jamais » qui constitue ce milieu interstitiel appelé « l'Entre-deux ».

¹³ Schizophrénie culturelle : les sociétés islamiques face à la modernité, op.cit., pp. 15-16

¹⁴ Ibid., pp. 19-20

¹⁵ L'auteur juge les divers types de connaissances hybrides qui constituent un monde de sous-réalité et de non-lieu entravant la mise en valeur de la pensée musulmane comme des pseudo-palliatifs anachroniques qui au lieu de la raccorder à des paradigmes réels la plongent dans l'abîme de la désuétude.

¹⁶ Les décalages historiques entre les civilisations extra-occidentale et occidentale freinent le mouvement de compréhension mutuelle et la mondialisation non assimilée par le monde islamique crée des zones de résistance dans les cultures toujours traditionnelles. Ces dernières refusent les valeurs occidentales et se réfugient dans des fantasmes identitaires qui les conduisent catégoriquement à un repli sur soi, à ce durcissement de l'identité que Shayegan appelle une ankylose identitaire.

KNOWLEDGE, ATTITUDE AND PRACTICE OF NURSES TOWARDS ANTIBIOTIC USE AND RESISTANCE IN “RASHAYA” AND “HASBAYA” REGIONS

Bassel Harfoush

Infirmier diplômé-
Université Zalhé-
branche Rachaya

Sally Mahmoud

Infirmière diplômée-
Université Zalhé-
branche Rachaya

Ruba Timraz

Enseignante-
Université Zalhé-
branche Rachaya

Imane AZZAM

Ph-D en psychologie
USJ - Professeur à
l'Université Libanaise-
Faculté de Santé
Publique

Nassab AZZAM

Directrice de soins
infirmiers – Hôpital
de « Irfan Medical
Center »

Abstract :

Antibiotics have saved millions of lives around the world. However, their effectiveness is compromised by the emergence and spread of antibiotic resistance. The latter is a threat to global health. The aim of this study was to assess the nurse's knowledge, attitude and practice towards antibiotics use and resistance in “Rachaya” and “Hasbaya” governmental hospitals as a representative sample of both regions respectively. A cross-sectional, descriptive study was conducted using a pre-validated self-administered questionnaire. A total of 40 nurses participated and selected randomly. Participants generally had a varying knowledge between adequate and deficient, about antibiotic use and resistance, their knowledge is affected by their degree earned and their years of experience. Also, some flaws were observed in their practices and attitudes towards antibiotics. The study concluded that there is a dynamic need for interventions at both personal and health care system levels. Proper training initiatives to improve the awareness of nurses towards antibiotics and the development of continuing education programs are needed to promote their knowledge, attitude and practices regarding the use of antibiotics.

Keywords: Knowledge, attitude, practice, nurses, antibiotic use and resistance, Rachaya and Hasbaya governmental hospital.

Study context:

An antibiotic is a chemical substance, produced by microorganisms, that has the ability to prevent growth of and to even destroy bacteria and other microorganisms (Mohr, 2016). Antibiotics are among the most commonly used medications globally and are of enormous importance to global health. According to the World Health Organization (WHO), more than 50% of all antibiotics are prescribed, sold or dispensed inappropriately, whereas 50% of the patients are not taking antibiotics correctly (WHO, 2001).

Antibiotic resistance (AR) is affected by many factors including socio-economic status, physicians and nurses' knowledge and training, diagnostic ambiguity, availability of treatment guidelines and pharmaceutical marketing (Faizullah et al, 2017). Simultaneously, in many cases antibiotics use is either unnecessary or inappropriate. This discriminate use of antibiotics has significantly contributed to a healthy problem that is called "AR".

In his study, WHO (2020) stated that more than 23000 people yearly die or become critically ill due to the AR therefore the unavoidable threat to human life is rising day by day. As antibiotics are frequently abused and overused in many countries, resistance to antimicrobials has led to an increase in morbidity, mortality and increased cost of health care. (WHO, 2020)

The situation is more serious in developing countries because of self-medication without prescription over the counter sales of antibiotic, inadequate regulation of antibiotics, high cost of medical consultation and dissatisfaction with medical practitioners. According to a study done by Cars et al (2008), it was noted that greater than 50% of antibiotics worldwide are bought without prescription. (Cars et al., 2008)

Lashley & Durham (2007) affirmed that the ability of bacteria to resist the bacteriostatic or bactericidal effect of an antibiotic is referred to as AR. The development of resistant bacteria as well as ineffective therapy, resource wastage, increased cost of therapy, increased risk of adverse drug reaction, and more importantly the rising economic burden on national and global health systems are all consequences of excessive use of antibiotics (Lashley & Durham, 2007; Edwin & Dy, 1997; Shehadeh et al., 2012). AR is a global problem as reported by the U.S. Centers for Disease Control and Prevention reports confirmed that each year in the United States, at least 2,000,000 people

acquire serious bacterial infections that are resistant to one or more of the antibiotics designed to treat them. At least 23,000 people die each year as a direct result of these antibiotic-resistant infections (CDC, 2013). Although in Canada the rates of resistance are lower than most countries of the world, approximately 220,000 to 250,000 people are infected with nosocomial infections every year, and of these people, 8,000 – 12,000 people die from being infected with resistant strains (Canadian Antimicrobial Resistance Alliance, 2013).

Another study conducted in Europe in the European Center for Disease Control (ECDC), estimates that 25,000 deaths per year result from antibiotic resistance. An equivalent excess mortality is observed in the United States by the Atlanta CDC. Sufficient data are lacking for low-income countries, but the increase in resistance rates in these countries, coupled with the lack of access to safe antibiotics - when they are needed - are likely responsible for high scores of deaths. The increase in resistance will be responsible for a dramatic increase in these numbers as modeled in Jim O'Neill's report in 2016. (ECDC, 2017)

As for Lebanon, resistance is building over drug abuse. Patients sometimes ask for medicines that they do not need and health care providers tend to over-prescribe them gladly. A study to assess the relevance of the prescription of antibiotics by doctors that are not specialized in infectious diseases has shown that the choice of antibiotic prescribed was appropriate in 61.5% of the cases studied, while the prescribed dose and duration of treatment were inadequate in 52% and 64% of cases, respectively. This study showed a high prevalence of inappropriate prescriptions of antibiotics in Lebanon (Saleh et al., 2015; Salameh et al., 2018).

Several studies have focused on the general public's knowledge, attitude and practices about antibiotic usage and resistance, whereas similar studies among health care workers including nurses are very scarce. In addition, the few that have been published aimed to assess the antibiotic prescribing pattern among physicians only. It is important to understand that nurses and other paramedical staffs in hospitals also play a vital role in prevention of transmission of resistant bacterial infections and promotion of awareness on antibiotic resistance among patients and communities. (KANIMOZHI et al., 2016)

Finally, a study published in 2008 in Alberta, aimed at evaluating the public knowledge and attitude regarding antibiotics use and antibiotic resistance in southwest Alberta. The discovery and development of antibiotics radically changed the treatment of bacterial infectious diseases, transforming diseases

that were once deadly into manageable health problems. However, the development of AR, as well as the reduction in the research and development of newer antibiotics, threatens a return to the era before the discovery of antibiotics. (Cars, et al. 2008).

Relationship between antibiotic use and antibiotic resistance

Establishing a causal relationship between the amount of antibiotics used and the development of AR is not easy to analyze (Barbosa & Levy, 2000). Findings from epidemiological studies (Arason et al., 1996; Albrich, Monnet, & Harbarth, 2004; Oduyebo, Onwuezobe, Olayemi, & Akintunde, 2008) have demonstrated positive correlation between antibiotic use and AR. These researchers concluded that an increase in antibiotic use through misuse and overuse increased the prevalence of antibiotic resistance. They suggested the control of antibiotic use as a measure to address the problem of antibiotic resistance.

Factors influencing AR

Various factors are highlighted as being responsible for antibiotic resistance. These factors can be classified into two categories:

a- The bacterial factor: the bacterial factor involves the ability of bacteria to change its genetic make-up. Following this change, the bacteria develop resistance to the antibiotics by producing biological activity that results in the antibiotics losing its antibacterial property (Alanis, 2005). The bacterial factor is a natural process for the bacteria and cannot be prevented.

b- The human factor: involves the misuse of antibiotics. This misuse of antibiotics results in selective antibiotic pressure which is the process whereby antibiotics kill susceptible bacteria, allowing antibiotic-resistant bacteria to survive and multiply. This is regarded as the most important factor stimulating the development of antibiotic resistance (Mah & Memish, 2000).

Nurse's role and antibiotics

Nurses working at multiple levels within the clinical setting play a key role in patient safety and have the most consistent presence in patient care. They are in a key position to contribute to the multidisciplinary management of antimicrobials in both acute and chronic care settings. Their daily review of medication charts, and administering antibiotics as part of their scope of practice presents nurses as the first front liners in managing antibiotic abuse (Edwards, and al., 2011).

Another study explains the basic role of nurses towards antibiotics that is collection of coordinated, interprofessional and focused strategies to optimize

antibiotic use by ensuring that every patient receives an antibiotic only when it is clinically indicated at the right dose, duration, and route of administration (Manning and al, 2016). In addition to the education and engagement strategy to patient and family ,nurses roles include : adherence to therapeutic courses, avoiding self-antibiotic “prescription” and misuse of antibiotics. Oral versus parenteral antimicrobials in order to achieve our main goal that is nursing education, awareness and good perception of their role are key elements to determine contribution to prevent selection and dissemination of multidrug resistant microorganisms (WHO, 2015).

In the same idea, Munro et al (2001) indicated adequate knowledge and positive attitude but poor practices of nurses towards antibiotic use and resistance. The poor practice of nurses may lead to negative outcomes related to patient’s health, hence training programs should be provided to nurses to improve their practices towards the rising problem. Special courses should be incorporated in curriculum in nursing schools and colleges to improve nurses’ practices towards antibiotic resistance. (Munro et al.,2001)

Lastly, CDC (2014) affirmed that Staff nurses play an important role in addressing antibiotic resistance by participating in hospital antibiotic stewardship activities. Every day, they make critical decisions regarding safe antibiotic administration and monitoring processes and practice. As well, nurses make up the largest segment of healthcare workers and stand at the center of patient care due to the time they spend with patients than other healthcare professionals, which makes them the cornerstone of the patient-care team, providing consistency, continuity, and coordination of care. Frontline nurses also bear the crucial responsibility for administering antibiotics. Perhaps most important, in many cases the nurse is the last professional to evaluate the appropriateness of a prescribed medication before it’s administered (CDC, 2014).

Thus, the present research aims obtaining the baseline awareness of nurses in “Rashaya” and “Hasbaya” governmental hospitals toward antibiotic usage, their attitude, perception and practices regarding antibiotics. In view of the dearth of literature on this topic in Lebanon, we raise the following questions: What are the knowledge, attitudes and practices (KAP) of nurses towards antibiotic abuse? What are some of the determinants associated with the KAP of this study population from an individual level starting from the knowledge of health care professionals, their experience and daily practices toward antibiotic use? And, our general question is «What is the Knowledge, attitude and practice of nurses towards antibiotic use and resistance in “rashaya” and “hasbaya” regions? »

The plethora of hypothesis are:

- High level of education increase knowledge of the nurses concerning antibiotic and AR
- High experience increases knowledge and attitude of the nurses toward antibiotic and AR
- Poor practice of nurses may lead to negative outcomes related to patient's health.

Method:

This is a quantitative cross-sectional hospital-based descriptive study, to determinate the degree of knowledge, attitude, and practices of nurses about antibiotic abuse in the two biggest governmental hospitals of "Rashaya" and "Hasbaya" as representative samples of "Rashaya" and "Hasbaya" regions respectively. The sample is made up of 40 (N = 40), nurses working in several hospital departments. The sample includes nursing director, supervisor, managers, and nurses that are involved in direct patient care, were randomly selected to participate in the study. Doctors, para-clinics team (radiology technicians, laboratory, etc.) and trainees were excluded from the study. The sample was divided equally, so that 20 nurses participated from each hospital for valid representation. Data collection was done between 12 and 16 of October 2020.

Used a validated questionnaire that is framed into the context of the country. A pre-test was done on a sample of nurses (3 nurses in the hospitals mentioned), and some questions were modified to avoid statistical bias then, the questionnaire was translated into the Arabic language to meet the educational level of all nurses. The average duration for completing the questionnaire is about four to seven minutes.

The questionnaire consisted of two parts, with a part in the beginning explaining the aim of the study. The first part consists of personal characteristics of the participants (socio-demographic and professional status of the nurse). It contains 5 questions concerning age, gender, graduate, experience and the floor they are working in. The second part includes information about knowledge, attitude, and practices towards antibiotic abuse of nurses. This part is divided into 3 sections: knowledge (from question 6 to 16), attitude (from question 17 to 19) and practices (from question 20 to 24), and at the end an open question was left for the participants to leave their comments.

The questionnaires collected were moved to a safe place for further analysis. The software used to process the results were: Microsoft Word 2007 excel and

SPSS Version 23 to correlate the relationship of the different variables of our problem.

Finally, confidentiality, freedom and the right to participate or not in the study were respected. We carried out a univariate analysis, allowing the description of the different variables used (medians in particular). Secondly, a bivariate analysis was performed on paired series. Regarding the categorical explanatory variables, we used chi-square tests (X²). Significance level is set at p-value=0.05 for the entire study.

Result:

A total of 40 questionnaires were distributed. The nurses' ages ranged between 25 and 45 years (n=31,77.5%). The cohort was dominated by females (n=27, 67.5%). 12 of the nurses have BS degree (30%) and 13 of them have TS degree (32.5). The majority of nurses (57.5%) had a working job experience of 5 years and more (n=23) whereas the others (42.5%) had an experience of less than 5 years. The highest number of nurses participated were from the medical-surgical unit (10), whereas the others were distributed between Operating room, Emergency room, Kidney dialysis, Intensive care unit, Maternity and Geriatric unit.

Regarding the knowledge of nurses, 100% of respondents know that Amoxicillin and Augmentin are antibiotics, also all of them know that antibiotics cause allergic reactions. Concerning "Flagyl", 17 respondents (42.5%) know that Flagyl is not an antibiotic, one respondent (2.5%) don't know, and unfortunately 22 respondents (55%) which means more than half, assure that Flagyl is an antibiotic. Regarding pain relief, 37 respondents (92.5%) know that antibiotics is not used for pain relief, whereas 3 respondents (3%) said that antibiotics can be used for pain relief.

With regard to the use of antibiotics for viral infections, 31 respondents (77.5%) know that antibiotics are not used for viral infections, while 8 respondents (20%) affirm that they are used for viral infections and one respondent (2.5%) knows nothing. Similarly, 35 respondents (87.5%) know that antibiotics kill good bacteria, while 3 respondents (7.5%) claim that antibiotics don't kill good bacteria, and two (5%) don't know the answer.

As well, 14 respondents (35%) know that antibiotics are used for inflammations and aches, whereas, unfortunately, 24 respondents (60%) said no, and 2 of them (5%) don't know the answer. And, 23 respondents (57.5%) know that antibiotics are used in case of flu, cough and throat aches, whereas 9 respondents (22.5%) rejected that and unfortunately, 8 respondents (20%) don't know the answer.

Relating to hearing about antibiotic resistance, most respondents (75%) heard about antibiotic resistance, whereas, only 10 respondents (25%) do not have any information about the subject.

“Do You buy antibiotics on your own without a prescription and based on your experience in the nursing field?”, 13 respondents (32.5%) unfortunately buy antibiotics without prescription, whereas, 23 respondents (57.5%) assure that they don't buy antibiotics without prescription and 4 respondents (10%) sometimes buy antibiotics without prescription.

In addition, the responses of the participants about “Do you buy antibiotics after contacting your doctor for a prescription for antibiotics?”, 24 respondents (60%) buy antibiotics after contacting the physician for prescription, whereas 9 respondents (22.5%) said no and 7 respondents (17.5%) say sometimes.

Bivariate analysis between the level of knowledge among nurses concerning antibiotics with respect to their degree of education show: Fifteen respondents don't know the meaning of antibiotic resistance (10 respondents say no and 5 respondents say yes but all of them didn't answer the definition question), among those: 5 holding a BS degree, 1 LT degree, 5 TS and 4 BT. And, Twenty out of 30 respondents, answer the definition of antibiotic resistance correctly which is “loss of antibiotic effectiveness and therefore resistance to it because of random use”, whereas 10 others fail to define antibiotic resistance.

In addition, Bivariate analysis was done also to test the level of knowledge among nurses concerning antibiotics definition with respect to their years of experience: Fifteen respondents don't know the definition; their experience is between 2 years and more (6 respondents having experience from 2-5 years and 9 of them having experience 5 years and more). Whereas only 20 out of 40 respondents with an experience 2 years and more, defines antibiotic resistance correctly. (Significative diff. $X^2=.000$ and $p\text{-value} < 0.05$)

Discussion:

The majority of nurses were able to differentiate between antibiotics; however, 20% of them claim that antibiotics are used to treat viral infections. This lack of knowledge high lightens the need to strengthen this topic in the nursing curriculum and to improve training strategies within the hospitals.

Bivariate analysis was done between the level of knowledge of nurses and their level of education as well as their years of experience. Nurse's knowledge was affected by their level of education as well as the years of experience; the more the number of years they have worked in hospital wards the more they were knowledgeable; this could also be associated with their increased exposure

to a greater number of patients. These results conform with the literature as supported by many studies from both developed and developing countries which showed that nurses rely on their colleague's opinions or experience related to antibiotics use.

Nurse's attitude influences the delivery of educational support to patients concerning antibiotics use. Although nurses are the primary caregivers and the direct chain in the delivery of antibiotics, and are the direct responsibility to review the biopharmaceutical properties of the antibiotics prescribed, they are the last to decide what antimicrobials are to be given. Our study showed that the majority of nurses have a positive attitude about antibiotic resistance; On contrary, this was not reflected in their practices.

An alarming result of this study was that a higher number of nurses (17 out of 40) tend to buy antibiotics without a physician prescription or examination. In addition, 18 of them keep antibiotics and tend to use them if they feel the same symptoms.

Conclusion and recommendations

The results of the current study showed a gap in knowledge among nurses, positive attitude but poor practices towards antibiotic use and resistance. The gap in the knowledge and poor practices of nurses may lead to negative outcomes on patient's safety as supported by the literature due to fragile education they tend to provide.

Our recommendations focus on two major levels: individual and health system level. At the individual level; although some nurses know general information about antibiotics; However, clinical education and mandatory training programs such as panel discussions, lectures, video tapes and printed pamphlets should be provided to nurses in order to enhance their knowledge and keep them aligned with the recent advanced researches.

On the health system level, hospitals should be assessed for readiness to incorporate specialized systems related to antibiotic abuse. Hospitals should adopt a set of guidelines for antibiotic use, recruit infection control specialists' technicians and pharmacists to track the adequate use of antibiotics and recommend sensitivity tests and cultures whenever needed. On the educational level, courses to strengthen awareness about antibiotics should be incorporated in the nursing curriculum in schools and colleges to improve nurses' clinical role regarding antibiotic resistance. Also, hospital administrations should support nurses in continuing their education by supporting them with flexible scheduling and professional motivations.

Reference:

- ALANIS, A. J. (2005). Resistance to antibiotics: are we in the post-antibiotic era? *Archives of Medical Research*, 36(6), 697-705.
- CARS, O., HÖGBERG, L. D., MURRAY, M., NORDBERG, O., SIVARAMAN, S., LUNDBORG, C. S.,... TOMSON, G. (2008). Meeting the challenge of antibiotic resistance. *BMJ*, 337(1), a1438-a1438.
- CDC (2014). Vital signs: Improving antibiotic use among hospitalized patients. *MMWR*. 63(9),194-200. www.cdc.gov/mmwr/preview/mmwrhtml/mm6309a4.htm?s_cid=mm6309a4_w [consult 22 October 2020]
- FAIZULLAH, M., RAHMAN, R., IHTESHAM UMAR, M., ANWAR, M., SARFRAZ, M. (2017). A cross-sectional study on knowledge, attitude and practices of medical doctors towards antibiotic prescribing patterns and resistance in Khyber Pakhtun Khawah, Pakistan. *Journal of Applied Pharmaceutical Science*, 7 (12), 038-046.
- KANIMOZHI, S. BALAJI, C. BALAJI, R. N, KARTHICK. A, SARAVANAN. (2016). Knowledge, Attitude and Practice of Paramedical Staff Towards Antibiotic Usage and its Resistance. *Biomed Pharmacol J*, 9(1),337-33.
- LASHLEY, F. R., & DURHAM, J. D. (2007). *Emerging infectious diseases: trends and issues*. New York: Springer Publishing Company.
- MANNING, M.L., PFEIFFER, J., LARSON, EL. (2016). Combating antibiotic resistance: the role of nursing in antibiotic stewardship. *Am J Infect Control*, 44, 1454-7.
- MOHR, K. (2016). History of Antibiotics Research. *PubMed*,398:237-272.
- O'NEILL, J. (2016). Tackling Drug-Resistant Infections Globally: Final Report and Recommendations. Review on Antimicrobial Resistance. Welcome Trust and HM Government. Available online: https://amr-review.org/sites/default/files/160525_Final%20paper_with%20
- ODUYEBO, O., ONWUEZOBE, I., OLAYEMI, S., & AKINTUNDE, A. (2008). Correlating antibiotic consumption with antimicrobial resistance of uropathogens in a university teaching hospital in Lagos, Nigeria. *Nigerian Journal of Clinical Practice*, 11(4), 305-308.
- SALEH, N.; AWADA, S.; RANA AWWAD, SJ.; ARFOUL, C.; ZAITER, L.; DIB, W. ET AL. (2015) . Evaluation of antibiotic prescription in the Lebanese community : a pilot study. *Infection ecology & epidemiology*, 5.
- SAMALEH, P.; SACRE,H.; HALLIT, S.; ET HAJJ, A.A. (2018). La résistance aux antibiotiques au Liban. *AMR control*, 1, 27-32.
- SHEHADEH, M., SUAIFAN, G., DARWISH, R. M., WAZAIFY, M., ZARU, L., & ALJA'FARI, S. (2012). Knowledge, attitudes and behavior regarding antibiotics use and misuse among adults in the community of Jordan. A pilot study. *Saudi Pharmaceutical Journal*, 20(2), 125-133.
- WORLD HEALTH ORGANIZATION. (2001). WHO global strategy for containment of antimicrobial resistance. <https://www.who.int/csr/resources/publications/drugresist/execsume.pdf> [consult 23 October 2020]
- WORLDS HEALTH ORGANISATION (2020). Antibiotics resistance. <https://www.who.int/news-room/fact-sheets/detail/antibiotic-resistance>. [consult 24 October 2020]

TRAVAIL EN EQUIPE. LES AVANTAGES ET LES PORTEES. UNE ANALYSE A PARTIR DU CAS « AIN WAZEIN MEDICAL VILLAGE»

Nassab AZZAM:

Master en
management des
organisations de la net
économie-Directrice
de soins infirmiers –
Hôpital de « Irfan »

Imane AZZAM :

Ph-D en psychologie
USJ - Professeur à
l'Université Libanaise-
Faculté de Santé
Publique

Résumé: L'efficacité d'une organisation de santé est déterminée en grande partie par la manière de travailler en équipe. Bien souvent, la plupart des personnes qui travaillent au sein d'un hôpital appartiennent à des équipes soignantes pluridisciplinaires dotées de responsabilités spécifiques afin de garantir la bonne prise en charge des patients. L'objectif de cette recherche est d'identifier et d'évaluer l'importance de travail en équipe avec ses avantages et ses portées dans l'hôpital de « Ain Wazein Medical Village». Un questionnaire a été élaboré et rempli par 100 professionnels de la santé travaillant dans les différents départements et service à l'hôpital concerné. L'analyse quantitative a montré une demande de l'aide est à 100% dans les services où les cas sont critiques, et une nécessité accrue d'une communication entre les membres de l'équipe et départements. Aussi, de développer une équipe performante et efficace ainsi d'évaluer en permanence les compétences des membres de l'équipe à travers de la mise en place d'un programme d'amélioration continue de travail en équipe.

Mots clés : travail en équipe; avantages; communication; prise en charge du patient ; équipe pluridisciplinaire

Contexte de l'étude: En milieu hospitalier, et d'une manière générale dans les établissements de santé, le travail en équipe (TEE) est une habitude qui remonte assez loin dans l'organisation de soins. Il est devenu une véritable nécessité dont la raison est certainement simple, l'union fait la force, deux personnes ou plus sont plus efficaces qu'une seule afin d'assurer la prise en charge du patient et la qualité de soins complexes par

des soignants qui n'ont pas tous la même expérience, afin d'offrir aux malades une stabilité d'interventions, et de permettre malgré tout un équilibre et une certaine constance dans les soins.

En Mars 2012, une enquête sur « la perception du travail collectif en fonction du statut occupé au sein de l'équipe de santé » a montré qu'il est indispensable qu'un TEE soit approprié afin d'assurer les soins et le suivi du patient et éviter ainsi toutes erreurs qui peuvent survenir par manque de confiance et de communication entre les deux corps de métier et ont bien compris, une harmonie au sein d'une équipe permet une meilleure qualité de soin et de service pour le quotidien de leurs patients. (Ducrest et Parpex, 2013)

Une équipe peut être définie comme étant « un groupe de personnes interagissant afin de se donner ou d'accomplir une cible commune, laquelle implique une répartition de tâches et la convergence des efforts des membres de l'équipe ». (Alaoui et al., 1996)

« Travailler en équipe » suppose non seulement de partager un même intérêt, mais également d'avoir différentes compétences. On ne peut « faire équipe » que si chacun coopère. En effet, l'équipe nécessite une bonne organisation, des énergies, des méthodes d'action, elle a également besoin d'une ou plusieurs personnes dont l'autorité et la compétence reconnues vont être facteurs de cohésion et de progrès. Le TEE est un mode de répartition des tâches et des responsabilités partagées entre plusieurs personnes où chaque membre tient un rôle particulier. Il s'agit bien d'assurer une bonne compréhension, une collaboration et coordination efficace des soins, un dialogue de qualité, nécessaire au sein d'une équipe afin de fournir une qualité de travail et productivité parfaite.

Grosso modo, l'hôpital peut être considéré comme une organisation où les acteurs se donnent pour objectif prioritaire la prise en charge des patients avec la meilleure qualité de soins possible dont le TEE dans le milieu hospitalier est : « la condition de travail la plus fréquente dans le monde médical, qu'il s'agisse d'une équipe de soins, d'une équipe pluridisciplinaire, etc. Le travail est alors discuté, organisé, réalisé et évalué par différentes personnes dont les compétences sont complémentaires. Aussi, l'équipe peut être une source d'aide pour ses membres lorsque surviennent des difficultés dues à certaines situations. Le TEE favorise une prise en charge individualisée (mise en place d'un projet thérapeutique / interventions cohérentes de chaque soignant) et permet une réaction rapide, quand il le faut, face à une ou plusieurs problématiques du patient, il favorise aussi l'implication et la motivation de chaque soignant (Reconnaissance des compétences de chacun / Aide lors de

difficultés) et enfin permet un partage de connaissances. (Potier, 2002)
 Finalement, l'équipe soignante compose et enrichit le travail en équipe pluridisciplinaire. Elle est pluridisciplinaire si elle concerne le médecin, l'infirmière, le pharmacien, l'orthophoniste, le psychologue, le diététicien, le kinésithérapeute, etc

Types d'équipes

Il existe de nombreux types d'équipes dans le secteur de la santé. Une équipe peut inclure une seule discipline ou impliquer des professionnels issus de plusieurs disciplines différentes, y compris du personnel administratif. De ce fait, on identifie plusieurs types d'équipes différentes, mais étroitement liées, qui interviennent dans la dispensation de soins et la prise en charge du patient: L'équipe non structurée, semi-structurée, très structurée, conflictuelle, unie et finalement équipe équilibrée. (Phaneuf, 2013)

Importance de l'équipe et aspect du fonctionnement en équipe

Elle est basée sur une dynamique commune. En effet, son intérêt est de rejoindre et réunir les professionnels autour des buts communs et de la recherche de solutions. Le TEE est important pour d'autres raisons telles que se sociabiliser, apprendre la collaboration, rester motivé sur la durée, avoir un avis critique objectif sur le travail, partager les risques et les connaissances et apprendre de celles des autres et enfin avoir du soutien dans les moments difficiles.

Le fonctionnement des équipes de travail engage et sollicite tous les membres de l'équipe soignante, ceux-ci, selon leurs responsabilités, sous les directives et la coordination du chef d'équipe, travaillent en collaboration dans le but d'atteindre un objectif commun. Pour comprendre le fonctionnement en équipe, il faut tenir compte des divers aspects: structurels, fonctionnels émotifs et relationnels qui lui confèrent son caractère particulier. (Viande, 2015)

Facteurs qui influencent le travail en équipe

Un ensemble des facteurs influençant le travail d'équipe dans la mise en place de pratiques efficaces et constituant les processus et les propriétés dynamiques de l'équipe et qui sont : la coopération, le conflit, la coordination, la communication, le coaching et la cognition. En outre, le TEE et en collaboration sont influencés par trois facteurs : les facteurs interactionnels, les facteurs organisationnels et les facteurs systémiques. (KOSREMELLI et al, 2007)

Cependant, La mise en place d'un travail en équipe multidisciplinaire se confronte à un certain nombre de difficultés comme la défaillance dans le partage de l'information, pouvant être liée à un manque de communication, ainsi que les problèmes de coordination des membres de l'équipe, les

placements de pouvoir dans le groupe impliquant d'identifier un leadership et les obstacles au niveau des membres de l'équipe tel que l'ignorance des buts et objectifs de l'équipe, la manque d'ambition personnelle et la perte d'intérêt, et au niveau de l'environnement (problèmes de personnes et manque de solidarité).(Phaneuf, 2013)

Alors, afin d'éliminer ces difficultés, Les membres d'une équipe doivent créer ensemble une nouvelle entité qui possède ses propres caractéristiques. En d'autres termes, travailler en équipe, c'est travailler avec le souci de l'harmonie et de l'efficacité des actions, les membres doivent faire preuve d'écoute et de coopération, et de communication efficace, positive, honnête, précise, concise, et omniprésente, chacun se sent responsable et important au sein de l'organisation, et travaille au maximum de ses capacités. Un travail d'équipe efficace exige de la confiance, du respect et un engagement à collaborer.

Quant à la communication, elle est la clé de la vie d'une équipe soignante, c'est un élément essentiel pour faire parvenir à la collaboration efficace. Fontaine (2012) décrit qu'une bonne communication entre les membres de l'équipe est bénéfique pour les patients et va même jusqu'à réduire le taux de mortalité ainsi qu'un travail en équipe efficace est une barrière de sécurité contre les événements indésirables ainsi qu'un facteur de qualité de la prise en charge. (Fontaine, 2012)

Avantages et portés du TEE

Le travail d'équipe présente de nombreux avantages et portés pour le patient, l'hôpital et l'équipe. Les patients reçoivent des soins plus approfondis lorsque les prestataires collaborent, et les prestataires peuvent se concentrer sur leurs domaines d'expertise, la qualité des soins et la sécurité du patient s'améliorent, la charge de travail est répartie de manière plus équilibrée et, à la fin, les hôpitaux économisent de l'argent grâce à un travail d'équipe efficace.

Ainsi, Le but de ce travail est d'étudier l'impact de travail en équipe, ses avantages et ses portés d'après une analyse à partir du cas « AWZMV» Aussi, il est important de connaître les ingrédients essentiels pour réussir en équipe. Notre question générale est comme suivante : « pourquoi travailler en équipe et quelles sont les avantages et les portés de travail en équipe? »

Les hypothèses sont :

- Le travail en équipe améliore la prise en charge du patient et augmente la productivité en réduisant les coûts.
- Le travail d'équipe assure une meilleure communication entre les membres de l'équipe et les autres professionnels en améliorant le partage d'information et l'intégration de compétence et de connaissance.

Méthode :

C'est une étude quantitative (descriptive et analytique). Les participants (n=100) sont les professionnels des santés médicales (médecins traitant, résidents seniors et « fellows »), paramédicales (personnel infirmier tels que surveillants chef, surveillants, infirmiers, et aides-soignants, physiothérapeutes, pharmaciens, nutritionnistes, techniciens de laboratoire ou de radiologie et le responsable de comité d'infection) et administratives travaillant dans les différents départements et services de l'hôpital «AWZMV» (secrétaires (clerk) et personnel de bureau d'admission). A noter que les stagiaires sont exclus de cette étude.

Les caractéristiques sociodémographiques documentées dans le but de décrire la population sont : sexe ; âge, niveau éducationnel, catégorie de travail, les années d'expériences, le poste et les services ou départements de travail.

La variable dépendante à expliquer est le processus d'évaluation des forces de de travail seul/ en équipe et les avantages de travail en équipe. Quant aux variables indépendantes retenues, il s'agit : de l'âge, catégorie de travail, du niveau éducationnel ; les années d'expériences ; le poste et les services ou départements de travail.

Le déroulement de l'étude

L'enquête a été réalisée de 19 Juillet à 21 juillet 2018. La collecte de données a été réalisée à l'aide d'un questionnaire qui est distribué au personnel soignants (médicale, infirmiers, paramédicale et administratif) lors de leur exécution du travail quotidiennement dans des différents services et départements de l'hôpital « AWZMV » (médecine, chirurgie, soins intensifs, gériatrie, urgence, gynéco-obstétrique, laboratoire, radiologie, pharmacie, physiothérapie, diététique, et bureau d'admission). Ce questionnaire a été traduit minutieusement en anglais et distribué pour ceux qui sont anglophones et en français pour ceux qui sont francophones par un groupe d'experts et testé auprès de trois employés.

La confidentialité, la liberté et le droit de participer ou non à l'étude ont été respectés et l'autorisation écrite du IRB (Institutional Review Board) à l'hôpital a été obtenu. Concernant les variables explicatives catégorielles, nous avons utilisé les tests de Khi-deux (X²). Le seuil de significativité est établi à p-value = 0,05.

Résultats :**Analyse descriptive :**

Parmi les 100 participants : les femmes majoritaires représentant 65 % des enquêtés, tandis que les hommes sont 35 %, et dont 83% ont un âge plus que 25 ans. Quant aux années d'expériences, 28% des enquêtés ont une expérience plus que 15 ans, 38% entre 5 et 15 ans et 34% ont une expérience moins que

5 ans. Il est important de dire que les enquêtés ayant une expérience plus que 10 ans ont un haut niveau éducationnel indiquant qu'ils possèdent plus de responsabilité, de connaissance, de compétences et des prises de décisions à partager avec les autres membres de l'équipe de travail et au service du patient et à l'amélioration de sa prise en charge.

a- Évaluation des forces de travail seul / en équipe

35% des enquêtés peuvent parfois gérer leur temps de manière à exécuter et accomplir leur tâches seul dans les délais alors que 9% ne peuvent pas du tout. Le cross tabulation entre ces items et la variable indépendante « la catégorie de travail » affirme que pour certaines catégories telles que le personnel infirmier (n = 32 soit 45.1%) ; l'équipe médical (n= 14 soit 19.7%) et paramédical (n= 17 soit 23.9%) et de même que pour certains départements (l'unité des soins intensifs, la gériatrie et la médecine) où la demande de l'aide est à 100% vu que les patients sont en état critique ont besoin d'une collaboration et un travail en équipe pour la prise en charge. A noter qu'une différence significative est remarquée entre la catégorie de travail et la demande de l'aide (p = .02) et entre catégorie « service/ département » et la gestion de temps pour accomplir les tâches seul (p= .000).

Aussi, nous pouvons affirmer et d'après les résultats (respectivement 84%; 88%) que le travail en collaboration et en coordination au sein de l'équipe de travail est un facteur de réussite et d'efficacité de l'équipe et donc, améliore la prise en charge du patient qui est un des avantages de travail en équipe dans le milieu hospitalier. De ce fait, l'hypothèse selon laquelle le travail en équipe améliore la prise en charge du patient, a été confirmée dans les résultats.

A noter il n'y a aucune différence significative entre ces items et les années d'expériences ainsi que la catégorie de travail, vue que majoritairement (soit 87%), les interrogés peuvent encadrer d'autres personnes en participant à la transmission de leurs expériences, à l'orientation et à l'offre des conseils. A signaler que plus le nombre des années d'expériences est élevé, plus le personnel est tolérant à encadrer les autres (années d'expériences plus que 10 ans; n= 34/87 soit 42.5%). De même, 82% des enquêtés participent aux décisions au sein de l'équipe, et l'aptitude du personnel soignée (soit 92%) à encourager la communication et le maintien d'un climat favorable au sein de l'équipe.

b- Avantages du TEE

En ce qui concerne la meilleure prise en charge des patients, il y a un accord à 91% que le TEE entraîne des meilleurs soins et un environnement de travail plus agréable et moins stressant. Il est important de dire que le TEE a un impact positif sur la qualité de soins et la prise en charge du patient. De ce fait,

l'hypothèse selon laquelle le travail en équipe améliore la prise en charge du patient, a été confirmée dans les résultats.

Généralement, 91% des cas sont d'accord contre 8% ni en accord ni en désaccord et 1% seulement n'est d'accord. Il est important de déduire que, plus la qualité des soins fournis aux patients et leur déroulement de séjour sont corrélés positivement par un travail en équipe efficace, plus la prise en charge des patients et la productivité s'améliore. Aussi, la majorité des interrogés (soit 90%) de différentes catégories de travail considèrent que le TEE a un avantage sur la réduction des coûts et par suite l'augmentation de la productivité.

Quant à la communication, nous avons remarqués que majoritairement (respectivement 95%; 97%) assurent que le TEE accroît la communication entre les membres de l'équipe et permet l'échange d'informations et de savoirs, et en plus la mise en place d'un respect mutuel et une concrète complémentarité entre les professionnels.

Enfin, la comparaison les pourcentages des années d'expériences et la catégorie de travail avec l'item concernant l'écoute des autres et la compréhension les avantages de TEE, nous montre que les enquêtés ayant une expérience plus de 10 ans (n=7 soit 7%) ne sont pas à l'écoute des autres et ne conçoivent pas tout le temps les avantages du travail en équipe. De même que pour le groupe médical et paramédical. (n= 14 soit 14%).

Discussion

L'analyse tranche d'âge de l'ensemble des personnes interrogés montre que 83% sont plus que 25 ans, et cela signifie que le personnel travaillant à l'hôpital a une meilleure performance qualitative. Les résultats établis par Schooler, Caplan et Oates (1998) mettent en évidence un moindre turn-over, un moindre absentéisme, une plus grande implication et un plus haut niveau de satisfaction au travail chez les travailleurs âgés. (Fauri et al, 2008)

En plus, cette analyse permet de montrer que le groupe majeur des interrogés est formé du personnel infirmier (soit 42 %) tandis que les autres interrogés sont respectivement des personnes médicales (22%), paramédicales (21%) et administratifs (15%) et c'est normal vu que le nombre du personnel infirmier est plus grand que les autres catégories travaillant à l'hôpital. ainsi que, c'est le personnel infirmier dans l'équipe soignante ou pluridisciplinaire qui est responsable en grande partie de la prise en charge des patients.

Quant aux années d'expérience et le niveau éducationnel, les enquêtés de cette étude ont dans l'ensemble une expérience plus que 10 ans avec un haut niveau éducationnel, et de ce fait, ils permettent une plus grande flexibilité

dans le partage des responsabilités, des connaissances, des expertises, des expériences et des habiletés pour les mettre au service des membres d'équipe afin de prendre en charge les patients. Ces résultats sont en accord avec ce que Leroux ou Hackman affirment : «le deuxième critère d'efficacité d'une équipe performante est l'expérience vécue en équipe permettant aux membres de satisfaire leurs besoins sociaux reliés au développement personnel et professionnel, comme par exemple approfondir des connaissances, partager l'expertise, acquérir des compétences etc.»(Leroux, 2016 ; Hackman, 2002)

Concernant les départements/services et la gestion du temps pour accomplir les tâches seul, les résultats ont montré que dans les services de soins intensifs, la médecine et la gériatrie demandent une aide à 100%. Ce résultat corrobore avec la recherche d'envergure nationale, financée par le Fonds national suisse de la recherche scientifique (2016-2018), qui consistait que la collaboration naît souvent de la nécessité de traiter des patients présentant des pathologies complexes, des poly morbidités, des symptômes incohérents ou inexplicables, ou encore des problématiques inattendues. De ce fait, tant la gériatrie que les urgences ou les soins intensifs, ainsi que l'oncologie, sont très souvent évoqués dans les entretiens comme étant des domaines de prédilection de la collaboration interprofessionnelle. (Staffoni et al.,2016)

Le TEE améliore d'une part la qualité des soins et la prise en charge du patient dans un climat favorable et agréable, et donc, réduit la duplication dans la dispensation des soins et contribue à la guérison et le bon séjour du patient qui par la suite entraîne une diminution des coûts et une augmentation de la productivité d'autre part. Donc, ces résultats vont dans le sens de l'hypothèse proposée et que Amin (2015) et Crouail (2015), la qualité des soins est la finalité d'une procédure où chaque professionnel, quel que soit sa fonction, se complémentarise. (Amin,2015 ; Crouail,2015)

Aussi, la communication est un des piliers fondamentaux du TEE en améliorant le partage d'information et l'intégration de compétence et de connaissance. Les études réalisées par Fierce in Boyer (2018), 86% des personnes interrogées sur la raison des échecs en entreprise, mettent en cause le manque de collaboration ou une communication inefficace, alors que 97% pensent que le manque d'alignement au sein de l'équipe influence le résultat d'une tâche. Et plus de 99% préfèrent travailler avec des collaborateurs qui parlent des problèmes de manière transparente et efficace. Parallèlement selon la HAS (2015), plus de 70% des causes des événements porteurs de risque sont liées à l'équipe relèvent d'un problème de communication. (Boyer,2018 ; HAS,2015)

Également, nous ne pouvons pas omettre à la fin l'insistance des enquêtés sur

l'importance d'évaluer les compétences des membres de l'équipe en même temps que de développer une équipe performante et efficace à travers un programme d'amélioration continue du travail en équipe. Selon Baker et coll (2006), la formation efficace au travail d'équipe suit les principes généraux de la théorie de l'apprentissage, enseigne les comportements attendus d'une équipe, et donne aux participants l'occasion de mettre en pratique les compétences acquises et de recevoir une rétroaction corrective. La formation au travail d'équipe est expressément axée sur le perfectionnement des compétences des membres individuels de l'équipe. (Baker et al, 2006)

Conclusion

De nos jours, le TEE est devenu une tradition dans des diverses organisations surtout dans les établissements de santé. On peut également constater que de plus en plus les équipes soignantes pluridisciplinaires ont adopté cette formule de travail dans leur exécution professionnelle afin d'assurer la qualité des soins offerts aux patients.

le personnel travaillant à l'hôpital possède une meilleure performance qualitative, présente une flexibilité pour partager leur responsabilités, leur connaissances et leur expériences entre les différents membres d'équipe.

La présente recherche montre que le TEE est essentiel pour assurer les meilleurs soins aux patients surtout dans les services des soins intensifs, la médecine et la gériatrie où il est primordial d'agir en collaboration, en cohérence et en interférence afin de prendre en charge les patients. Il est bien clair que le TEE est primordial dans le milieu hospitalier vu ses avantages et portés pour le patient, le personnel soignant et l'hôpital. De ce fait, il assure une réaction rapide face à une ou plusieurs problématiques du patient et sa prise en charge globale, de même, il augmente la productivité, favorise l'implication et la motivation de chaque soignant et il accroît la communication entre les membres des équipes en améliorant le partage d'information et l'intégration de compétence et de connaissance. Dans l'énoncé du TEE, la communication entre les membres est requise avant tout en regard de la réalisation de la tâche commune et de l'atteinte de la cible commune. De ce fait, elle est un des piliers vitaux du TEE, une défaillance à ce niveau peut entraver le partage entre les professionnels de la santé, et par la suite, à la sécurité du patient. Par ailleurs, l'étude de Lisha (2011) a montré que 70% des événements indésirables touchant la sécurité du patient étaient dus à un manque de communication et donc de travail pluridisciplinaire. (Lisha, 2011)

Il est donc important pour avoir un TEE efficace de développer une équipe

performante ainsi qu'une évaluation des compétences des membres de l'équipe à travers de la mise en place d'un programme d'amélioration continue de TEE qui s'appuie non seulement sur l'affaire de cohésion et d'organisation mais sur des principes, des règles, une dynamique solide et constante qui doivent être maîtrisés pour conduire à la réussite de l'équipe sur le terrain.

Référence :

- Alaoui, A. ; Laferrriere, T. ; MelochE, D. (1996). « Guide sur le travail en équipe ». TACT, Laval. Disponible sur www.tact.fse.ulaval.ca/fr/html/sites/guide2.html [consulté le 15 juillet 2018].
- Amin, A. (2015). « Benefits of Teamwork in Hospital Settings ». LinkedIn. Disponible sur <https://www.linkedin.com/pulse/benefits-teamwork-hospital-settings-ashraf-amin-ahmed-md-acpe> [consulté le 20 juillet 2018].
- Boyer (2018). « La communication dans un projet: comment l'améliorer ». Disponible sur <https://www.nutcache.com/fr/blog/la-communication-dans-un-projet> [consulté le 30 juillet 2018].
- CROUAIL, M. (2015). « Travail en collaboration et qualité de soins ». Mémoire de fin d'étude: Université de Saint – Lo :IFPS : 44.
- Ducresot, M. et Parpex, M. (2013). « Recherche – Travail en équipe : quelles perceptions?» coopération interprofessionnels. Disponible sur <https://www.infirmiers.com/profession> [consulté le 21 juillet 2018].
- FAURI, I. ; LE BLANC. A. (2008). « Âge et travail : des études sur le vieillissement au travail à une approche psychosociale de la fin de la carrière professionnelle ». Le Travail Humain, 2, 137.
- Fontaine, C. (2012). « Collaboration interprofessionnelle ». Mag Rifssso, 1,14.
- Hackman, R. J. (2002). « Leading Teams: Setting the stage for great performances ». Harvard Business Press: 1Ed.
- HAUTE AUTORITE DE SANTE (2015). "Les causes profondes des évènements porteurs de risques" service presse .Disponible sur https://www.hassante.fr/portail/upload/docs/application/pdf/2015-06/causes_profondes_epr_chiffres_cles.pdf [consulté le 28 juillet 2018]
- Kosremelli asmar, M. ; Wacheux, F. (2007). « Facteurs influençant la collaboration interprofessionnelle : cas d'un hôpital universitaire ». Université Saint-Joseph. Conférence Internationale en Management, Hall. Archive ouverte
- Leroux, L. (2016). « Gestion d'équipe performante - Critères d'efficacité et conditions essentielles ». blogue. Performer, développer, innover, exceller. Disponible sur <https://www.louiseleroux.com/single-post/2016/09/08/La-gestion-dune-%C3%A9quipe-performantePartie-I> [consulté le 29 juillet 2018].
- Lisha, LO (2011). « Le travail d'équipe et la communication dans les soins de santé ». Une analyse documentaire. Disponible sur <http://www.patientsafetyinstitute.ca>. [Consulté le 9 août 2018]

Phaneuf, M. (2013). « Le travail d'équipe auprès des malades : ressource ou souffrance ». Disponible sur <http://www.prendresoins.org/wp-content/uploads/2013/01/Le-travail-dequipe-.pdf> [Consulté le 4 juillet 2018].

Staffoni, L. ; Schoeb, V. (2016). « Collaboration interprofessionnelle : comment les professionnels de santé interagissent-ils en situation de pratique collaborative ? » Candidature au prix ASSM « Inter professionnalité » HESAV recherche. Disponible sur https://www.samw.ch/.../award2016_interprofess_assm_staffoni.pdf [consulté le 29 juillet 2018].

Viande, C. (2015). « Le travail en équipe : définition, problématique et enjeux ». 4ème Rencontre régionale des AMP-AP-AS. Blois Disponible sur <http://www.anfh.fr/sites/default/files/fichiers/presentations- matin-travail-en-equipes.pdf> [consulté le 6 juillet 2018].

QUALITY OF LIFE AFTER RECOVERING FROM COVID19-

Lama Seed

Infirmière diplômée-
Université Zalhé-
branche Rachaya

Haneen Olabi

Infirmière diplômée-
Université Zalhé-
branche Rachaya

Maher Younes

Infirmier diplômé-
Université Zalhé-
branche Rachaya

Nassab AZZAM

Directrice de soins
infirmiers – Hôpital
de « Irfan Medical
Center »

Imane AZZAM

Ph-D en psychologie
USJ - Professeur à
l'Université Libanaise-
Faculté de Santé
Publique

Abstract: The COVID-19 outbreak emerged as an ongoing crisis at the beginning of the year 2020. While the leading symptoms during coronavirus disease 2019 (COVID-19) are acute and the majority of patients fully recover, a significant fraction of patients now increasingly experience long-term health sequela and persistent symptomatology (SPS). Two conditions described as post-COVID-19 and Post Intensive Care Syndrome (PICS) are horrific manifestations at the physical, social and psychological levels significantly affecting various dimensions of the quality of life (QoL) of all individuals hospitalized and non-hospitalized. The present study used a retrospective study design and aimed to examine participant's QoL on five dimensions and its main predictors. The study population (N= 60) comprised of discharged COVID-19 patients from three hospitals: «Rachaiya Governmental Hospital», «Hasbaiyya Governmental Hospital», and «Al Atibaa Hospital». They were enrolled in the study to complete a survey questionnaire to assess individuals' psychological reactions and QoL Post-COVID-19 and its associated factors. A majority were within the age group ≥ 45 years (75%), and male (41.7%). All our participants had at least one or more persistent COVID-19 symptoms after discharge. The most persistent COVID-like symptoms experienced were shortness of breath, chest pain, fatigue or muscle weakness, and anxiety or depression, even beyond 12 weeks after recovery in both ICU and COVID-19 ward survivors. Noteworthy, a decrease in the QoL and functional status was observed among all

participants. (84.0%) of participants affirmed their need and the importance for having a health care team and post-COVID-19 rehabilitation centers (developed and nearby) for follow up assessments. Therefore, having an inter-professional health care team involving trained nurses and home health care providers to addresses the breadth of PCS and PICS affecting the QoL is mandatory. In addition, to a developed and nearby rehab-COVID centers/ Post-COVID-19 clinics involving rehabilitation nurses to help patients and families restore optimal function aftermath of COVID-19.

Keywords: Quality of life, COVID-19, PICS, PCS, SPS, Functional status, Rehabilitation nurses, Post-COVID-19 rehabilitaion, Follow up assessments

Study context:

According to the World Health Organization (WHO), in December 2019, a series of pneumonia cases of unknown cause emerged in Wuhan, Hubei Province, China. The cases were later identified to be a novel coronavirus, which was initially named 2019 novel coronavirus (2019-nCoV) and later on, named severe acute respiratory syndrome coronavirus 2(SARS-CoV-2) that affects people of all ages and genders (Elkholi, et al., 2021). On 11 March 2020, the WHO declared the COVID-19 outbreak a pandemic. SARS-CoV-2 infection has resulted in more than 148 million confirmed cases with more than 3 million deaths reported to WHO (WHO, 2020). It is predicted that the disease will reach over 2.4 billion people, with 10.4 million deaths and approximately 2.3 billion recoveries worldwide (Walker, et al., 2020). Thereby humanity becomes exceptionally vulnerable (Hawash, et al., 2021).

Since the outbreak, most attention in this pandemic has focused on containing transmission of the SARS-CoV-2 and addressing the surge of mild to moderate and critically ill patients in acute care settings, where around 20% of those infected require hospitalization, and around 5% require critical care with non-invasive or mechanical ventilation (Al-Jahdhami, et al., 2021).

A common assumption around the world is that once a patient is discharged from the hospital and is tested negative this problem is resolved. This may be based on a relative lack of information and knowledge, even among the health care professionals, regarding conditions described as post-acute COVID-19(PAC-19) for all COVID-19 survivors, even those with mild disease presentation (Klok, et al., 2020) and PICS dedicated for ICU survivors (Jaffri & Jaffri, 2020). Herein, PAC-19 is defined as “persistent symptoms and/ or delayed or long-term complications of SARS-CoV-2 infection beyond 4 weeks from the onset of symptoms” (Nalbandian, et al., 2021) that could be

related to residual inflammation (convalescent phase), organ damage, social isolation impact on pre-existing health conditions, or non-specific effects from the hospitalization or prolonged ventilation (Moreno-Pérez O. , et al., 2021). PAC-19 is further divided into two categories: (1) subacute or ongoing symptomatic COVID-19, which includes symptoms and abnormalities present from 4–12 weeks beyond acute COVID-19; and (2) chronic or PCS, which includes symptoms and abnormalities persisting or present beyond 12 weeks of the onset of acute COVID-19 and not attributable to alternative diagnoses (Nalbandian, et al., 2021). When it comes to PICS, is defined as “new or worsening impairments in physical, cognitive, or mental health status arising after critical illness and persisting beyond acute care hospitalization” (Smith, et al., 2021). The impact of PAC-19 and PICS can be devastating for the affected individuals, their families (PICS-F), and their communities on both physical and psychological levels.

Consequently, PAC-19 and PICS are considered irrepressible traumatic life event resulting in hampering the QoL in general and health-related quality of life (HRQoL) in particular. In the past decade, the QoL has been explored primarily in studies focusing on non-communicable and chronic diseases. It has been defined as “a patient’s general subjective perception of the effect of illness or medical condition on various domains including physical, psychological, social, and occupational functioning” (Algahtani, et al 2021). Several studies affirmed that about a number of patients who suffered from COVID-19 and presenting disabling symptoms several weeks to 6 months after their recovery, a decrease in the QoL was observed (Nalbandian, et al., 2021), (Chopra & Flanders, 2021), (Taboada, et al., 2020), (Carvalho-Schneider, 2021).

In Europe, similar findings were reported concerning COVID-19 post-acute outpatient service. Carfi et al (2020) reported persistence of symptoms in 87.4% of patients at a mean follow-up of 60 days from the onset of the first symptom. Fatigue (53.1%), dyspnoea (43.4%), joint pain (27.3%) and chest pain (21.7%) were the most commonly reported symptoms. Also, the affirmed that 55% of patients continuing to present three or more symptoms and 44.1% a decline in their QoL (Carfi, et al., 2020).

In Lebanon, the COVID-19 pandemic could not have come at a worse time, when the first case was detected on February 21st, 2020 (GradaWorld, 2020) in which Lebanon was and is still suffering from a financial meltdown and economic collapse (Bizri, et al., 2021), that left the country ill-equipped to handle coronavirus, not forgetting the Beirut port explosion that increased

the woes of the country, whereas after two days from the explosion, Lebanon recorded 255 coronavirus cases on 6 August– its highest single-day infection tally (AFP, 2020), to note that the cases continued to increase especially after holidays to reach 1000 cases per day on 14 September 2020 (Koweyes, et al., 2021). The impact of COVID-19 further extended beyond morbidity and mortality, and affected the health, socioeconomic and educational sectors of the country, as well as the psychological welfare of the population.

It is therefore essential to provide people with mild, severe or critical COVID-19, following hospital discharge, with follow-up assessments focused on symptoms as well as physical and psychological function and refer those with important symptoms and/or impairments in physical, social, and psychological function to rehabilitation programs. Fortunately, the multidisciplinary team such as doctors, nurses, rehabilitation physicians (physiatrists), physiotherapists, occupational therapists, psychologists and other providers are in a unique position to manage and identify these issues related to the QoL after recovery from COVID- 19.

Thus, the present research aims to explore the QoL of patients after their recovery from COVID-19, whether on the physical, social and psychological levels in an already crisis-stricken country. And, our general question is “What is the QoL of patients after recovering from COVID-19, and its physical, mental, and socio-economic consequences in the Rachaiya , Hasbaiyya, and West Bekaa region?”

The plethora of hypothesis are:

- COVID-19 negatively affects the QoL of all Post COVID-19 patients after hospital discharge.
- The severity of illness during acute COVID-19 has been significantly associated with the presence or persistence of symptoms, reduction in health-related QoL scores and pulmonary function abnormalities in the PAC-19 setting.
- Women are more likely to experience anxiety/depression at 3 months and beyond after hospital discharge, similar to SARS survivors than men.
- The low socio-economic level of the family has a negative influence on the patients after recovering from COVID-19.
- Psycho-educational and physical support delivered by the multidisciplinary team focused on the patient improves their physical and mental QoL after recovering from COVID-19.
- The presence of a post clinics /in-home service improves the QoL of patients after recovering from COVID-19.

- Advanced age, male gender, need for mechanical ventilation during ICU stay, length of ICU stay, and length of hospital stay were associated with a decreased QoL, decreased functional status at 3 months and beyond after ICU admission, or both.

Method:

This is a cross sectional descriptive retrospective study assessing QoL, HRQoL, functional status and post discharge persistent symptoms of patients (n=60) residing in Rachaiya, Hasbahiyya region, and specifically Hammarah area which belongs to the West Bekaa region, beyond 3 months from being survived hospitalization via requiring treatment in COVID-19 ward unit and/or the ICU.

We included all patients with laboratory confirmed COVID-19, and/or typical abnormalities on chest computed tomography who were discharged from hospitals mentioned above plus being able to self-report by efficiently completing an anonymous survey questionnaire. All discharged patients met uniform discharge criteria according to the Chinese clinical guidance for COVID-19 pneumonia diagnosis and treatment issued by the National Health Commission (i.e, no fever for 3 consecutive days, improvement in respiratory symptoms, obvious resolution and recovery of acute lesion in lung imaging, and two negative test results for SARS-CoV-2 24 h apart (Osikomaiya, et al., 2021)).

We excluded the following patients: (1) those who died after being discharged, (2) those for whom commitment would be difficult owing to psychotic disorder, dementia, or re-admission to hospital attributed to underlying diseases, (3) those who declined to participate, (4) those unable to be contacted, and (5) those living outside of our two specified regions. The study and the collections of data were between 29 August 2021 and 23 October in the same year.

We defined the acute phase as the time between symptom onset and hospital discharge. Clinical data for disease severity during acute phase were retrieved from electronic medical records, including those: 1) admitted to hospital requiring supplemental oxygen; 2) admitted to hospital requiring high-flow nasal cannula (HFNC), non-invasive mechanical ventilation (NIV), or both; 3) in addition to the need for mechanical ventilation, tracheotomy, length of ICU stay, and ICU outcomes for those who survived ICU admission. A random convenience sampling method was employed to select the participants.

The appointment for the interview visits in home setting was set by trained

nursing staff via telephone. All participants were interviewed face-to-face implementing the social-distance protocols by trained nurses and asked to complete a series of questionnaire. Initially, the questionnaire was pilot tested on a group of 5 patients to assess the comprehension, content and clarity of the questionnaire. The questionnaire was translated into the Arabic language to meet the educational level of all participants. The average duration for completing the questionnaire is about seven to ten minutes.

The survey questionnaire was part of a wider research project to assess individuals' psychological reactions and QoL Post-COVID-19 and its associated factors. It measured several areas: sociodemographic data, employment status, health status (e.g., chronic medical conditions), self-reported symptom questionnaire, modified British Medical Research Council (mMRC) dyspnoea scale, (EuroQoL five-dimension three-level (EQ-5D-3L) questionnaire, psychological reactions (i.e., depression and anxiety levels) for both the survivor and family members, Post-COVID-19 Functional Status (PCFS) scale, and other general questions.

Finally, confidentiality, freedom and the right to participate or not in the study were respected. We carried out a univariate analysis, allowing the description of the different variables used (medians in particular). Secondly, a bivariate analysis was performed on paired series. Regarding the categorical explanatory variables, we used chi-square tests (χ^2). Significance level is set at p -value= 0.05 for the entire study.

Results:

Descriptive analysis

The distribution of the main sociodemographic variables recorded in the study, are stratified by gender. The median age of the enrolled participants is 12 [25-45[years, with 33 (55%) men and 27 (45%) women. Most (75%) were married, the highest education level was primary/middle school (55.0%), whereas the illiteracy was (16.7%). The most common comorbidity is cardiovascular disease and hypertension (23 patients, 38.3%), followed by diabetes (9 patients, 16.7%), and pulmonary disease (6 patients, 10%). The (n=60) participants required oxygen therapy during their hospital stay, 23 (38.5%) required HFNC, non-IMV, or IMV. 21 participants (35%) were admitted to the intensive care unit (ICU). The median duration of COVID-19 ward was 17 for [10-40[days and median time in the ICU was 11 < 10 days.

The proportion of men is higher among participants with a higher disease severity: 13.3% (8 of 60) involved in the third category who require ECMO, IMV or both.

Frequency of SPS during Post-COVID-19

The frequency of SPS was high and varied. The most frequent groups of SPS were musculoskeletal (98.3%), neuropsychiatric (93.3%), respiratory (90.0%), cardiovascular and haematological (81.7%), dermatological (53.3%), digestive (43.3%), endocrinological (15%), urological (16.7%), and ophthalmological (31.7%).

QoL Post-COVID-19 dimensions, independent variables & predictors

In this part, first, we will describe the results of QoL with its dimensions, also, the effect of independent variables such as age, gender, socioeconomic level, and severity of disease on dimensions of QoL. Furthermore, on the one hand, we describe the results of predictors (PCFS; mMRC dyspnea scale; SPS) in general, and we explain the effect of this predictors on the dimensions of the QoL on the other hand.

a- QoL dimensions and independents variables

Concerning the mobility dimension, data represents (80%) for the two levels “I have some walk problems” (75.0%) or “I am confined to bed” (5.0%), this data branches into (43.3%) for males and (36.7%) for females.

In self-care dimension, (36.7%) represents two levels “I have some problems washing or dressing myself” (28.3%) or “I am unable to wash or dress myself” (8.4%), this data branches into (18.4%) for males and (18.3%) for females.

Arrival to the usual activities dimension (e.g. work, study, housework, family, or leisure activities), (78.3%) represents two levels “I have some problems with performing my usual activities” (65.0%) and “I am unable to perform my usual activities” (13.3%), this data branches into (40.0%) for males and (38.3%) for females.

The pain/discomfort dimension shows that (91.7%) represents two levels “I have moderate pain or discomfort” (76.7%) or “I have extreme pain or discomfort” (15.0%), this data branches into (48.3%) for males and (43.3%) for females.

Finally, in anxiety/depression dimension, (95%) represents two levels “I am moderately anxious or depressed” (68.3%) or “I am extremely anxious or depressed” (26.7%), this data branches into (51.7%) for males and (43.3%) for females. The table n°4 below shows the dimensions of QoL.

Concerning participants' QoL dimensions according to disease severity, the

results show that: 26 participants have some problem in the mobility, 27 don't have any problem with their self-care, 23 affirmed some problem with usual activity, and high numbers of interviewees are facing pain / discomfort and depression / anxiety. (Respectively 29; 32 cases). Likewise, there is a significant difference between pain/ discomfort dimension, anxiety / depression dimension, types of comorbidities and the average salary per month (p-value respectively .044; .025 and .036)

b- QoL dimensions and predictors

b.1- QoL and Post- COVID-19 functional status scale.(PCFS)

In general, the analysis of PCFS shows that, after hospital discharge interview, 39 (65%) patients reported decreased functional status (grades 2–4 in the PCFS). Whereas 2 (3.3%) reported no limitations (grade 0), and 19 (31.7%) reported negligible limitations (grade 1).

b.2- QoL and mMRC dyspnoea scale

The correlation between mMRC dyspnoea scale and the disease severity shows that, among the ICU and COVID-19 ward, 28 (46.6%) reported at least moderate shortness of breath (mMRC grade 2), where among the ICU survivors 21 (35.0%), 5 (8.3%) reported severe shortness of breath (mMRC grade=4) while 1 (1.7%) out of 39 (65.0%) COVID-19 ward survivors. A significant disease severity difference for mMRC dyspnoea scale with different department entry, where ICU patients being more impacted than COVID-19 ward patients.

Role of health care facility, rehab- COVID centers/ patients' family psychological state

It's important to mention that the responses of participants about the visit of health care and rehab- COVID centers are shocked because 63.3 % cases discharged into home didn't visit health care facilities and rehab-COVID centers. Similarly, 54% of both survivors didn't receive home health services. Finally, concerning ICU patients' family member, the results show that (86.7%) reported that they suffer from anxiety, depression, or excessive fear during and following critical illness.

Discussion:

The Interviewee accounts in this study have confirmed several negative physical, mental and socio-economic experiences that hospitalized COVID-19 survivors face, thus the population segments were more vulnerable to a poor QoL. As the pandemic continues, it is likely that more problems of PCS

will be discovered, and that these will exhibit spatial, temporal and social heterogeneity explained by complex factors. Improving the QoL of COVID-19 survivors is an emerging global challenge in the PCS era.

We found that shortness of breath, chest pain, fatigue or muscle weakness, and anxiety or depression were common, even beyond 12 weeks after recovery. A study conducted in Spain by Romero-Duarte et al (2021) with 14 weeks of follow-up showed 50% PAC-19 syndrome. Another study conducted in France showed 55% persistent symptoms after a mean of 110 days of follow-up and 62.5% of SPS was present 50 days after discharge, other series have reported up to 68% at 2 months, 87% at 2 months and 87% at 3 months (Romero-Duarte, et al., 2021). (Rosales-Castillo et al.,2021)

1- Respiratory SPS: Cough and Dyspnoea were the most frequent specific SPS in our study (68.4%) and (57.1%) respectively. These data are reliable with other reported frequencies, 31.4% and 43.4% (Romero-Duarte, et al., 2021). All reported series (Romero-Duarte, et al., 2021), (Garrigues, et al., 2020), (Moreno-Pérez O. , et al., 2021) concur that dyspnoea and fatigue are the most frequent SPS after COVID-19. A possible explanation for these symptoms could be the persistence of fibrotic residual pulmonary areas. Furthermore, fibrosis would be the result of an ineffective organization stage after the initial acute inflammatory response. The data show that increased breathlessness as measured by the mMRC questionnaire is significantly related to impaired HRQoL especially pain/discomfort dimension and symptom burden.

2- Musculoskeletal SPS: The high prevalence of fatigue or muscle weakness (81.6%) is consistent with previous series (Romero-Duarte, et al., 2021). A high frequency of musculoskeletal pain and spasms (50.0%) and joint pain (53.3%) was also observed in both survivors. Both symptoms could be explained by the systemic inflammatory response generated by COVID-19 and by natural recovery after hospitalization processes. A possible physical correlate for fatigue could be the endothelial dysfunction in brain capillaries recently described in (Nauen, et al., 2021).

3- Digestive SPS: Diarrhea and abdominal pain represent the highest frequency among others. Some digestive SPS, such as nausea and vomiting, diarrhea, or abdominal pain, may have been associated with COVID-19 treatment, as adverse drug reactions. Besides, we also observed that diarrhea during acute COVID-19 was associated with a higher risk of developing PCS. Gaebler et al (2021) recently examined intestinal biopsies obtained from asymptomatic individuals 3 months after COVID-19 onset. They showed persistence of SARS- CoV-2 in the small intestine of 7 out of 14 subjects.

4- Neuropsychiatric SPS: Several recent studies pointed the high frequency of neurological SPS after COVID-19. In our study (93.3%), the most prevalent SPS was lack of energy and lethargy (70.3%) which showed a protective association with negative outcomes on functional status (PCFS), and significant correlation with three major dimensions: usual activities, pain/discomfort, anxiety/depression, thereby leading to a significant deterioration on QoL. However, mobility and self-care were not significantly affected.

Followed by short-term memory deficits (brain fog) (61.8%). For instance, the data assume that there is a significant correlation with advanced age. In spite of the fact that it represents (43.3%) of old aged group ≥ 45 years old and it's greater than that of young adult aged group < 45 years old (13.3%), but it's still a frightening and uncertain number especially for a rising generation. Similarly, (Nalbandian, et al., 2021) stated a significant burden of neurodegeneration in the aging population, the possibility of COVID-19 causing neurodegeneration is alarming.

The results of our study indicate that reported complete loss of smell (anosmia), and partial loss of smell (hyposmia). While for taste loss (31.7%) reported partial taste loss higher than those who reported complete loss (3.3%).

The high frequency of mental health symptoms in our study is (95.0%), of which moderately and extremely anxious or depressed (68.3%; 26.7%) for both genders. Since male individuals are the main earners of income for families; working males versus females; our males' region seemed to be depressed and anxious more than females, due to multifactorial causes such as (1) poor health; notably our study shows that males are suffering from comorbidities more than females and it's significantly affecting negatively on salary average per month, bearing in mind that, lately Lebanese people have been left sobbing in pharmacies after medicine subsidies were lifted, as one lawmaker warned that people with chronic health conditions were being put at risk. The new price list for subsidized and unsubsidized medicines was published by the Ministry of Health lately and showed a frightening rise in prices, some by 830% (Houssari, 2021). It was especially upsetting when a father asked about the price of baby formula, only to learn that he could not afford it. Some pharmacy bills now cost more than a month's salary (Houssari, 2021). (2) Abysmal economic crisis; Lebanon has reached a stage of great economic, financial and political collision (Sabbagh, 2021). The dollar reached about 25 thousand pounds, and the minimum wage fell to 27 dollar (Sabbagh, 2021). Taking into account (90.0%) of our participants' average salary per month ranges between [675,000 L.L-3,500,000 L.L], subsequently impacting the

anxiety/depression dimension of QoL (table n°7) (3) Job losses, shortage in local and foreign currency, as well as, governmental regulations and private banks restricted money withdrawals, and transfers were prevented (Bizri, et al., 2021). All these factors affects the socioeconomic level of participants, thus the low socio-economic level of the family has a negative influence on the patients after recovering from COVID-19 for both survivors.

These above symptoms reflects the alarm on the importance of preventing and identifying mental health SPS after hospitalization for COVID-19 (Romero-Duarte, et al., 2021). These symptoms also could be overestimated due to social isolation during the hospitalization period and stigma during the first wave of the pandemic, but also due to the direct effects of viral infection, the immunological response and ICU stay. For instance, our data confirm that there is a significant correlation between length of ICU stay and anxiety/depression dimension of the QoL.

Conclusion and recommendations:

COVID-19 rapidly surged the whole world and is still negatively affecting people's QoL. Therefore, we aimed to analyse and interpret the QoL for post COVID-19 patients. A quantitative retrospective study by conducting survey for 60 patients who recovered and discharged from hospital.

The full clinical picture of PCS is complex and far from being understood. However, the multi-organ sequelae of COVID-19 beyond the acute phase of infection are increasingly being appreciated as data and clinical experience in this timeframe accrue. Currently, healthcare professionals caring for survivors of acute COVID-19 have the key role of recognizing, carefully documenting, investigating and managing ongoing or new symptoms, as well as following up organ-specific complications that developed during acute illness.

Moreover, it is clear that care for patients with COVID-19 does not conclude at the time of hospital discharge, but such a care program could be better planned if it's based on the needs identified by a valuable tools in directing nurses' attention to patients at highest risk of frailty upon discharge and provide people with severe/critical COVID-19 (PICS), following discharge, with follow up assessments focused on symptoms as well as physical and psychological function, and refer those with impairment on the various aspects of individuals' QoL to rehabilitation programs.

Given the global scale of this pandemic, it is apparent that the healthcare needs for both hospitalized and non-hospitalized patients with sequelae of COVID-19 will continue to increase for the foreseeable future. Policy-

makers, health care professionals, and providers need to now start mobilizing their resources towards building and/or expanding rehabilitation services, including pulmonary rehabilitation, and dedicating Post-COVID-19 clinics, to provide the best care for survivors of COVID-19 in the long term, so that these people can return to their “normal” life, work and routine, including daily and leisure activities.

Reference:

- AFP. (2020). Lebanon reports record daily Covid-19 cases. *New Straits Times*. Retrieved April 23, 2021, from <https://www.nst.com.my/world/world/2020/08/614690/lebanon-reports-record-daily-covid-19-cases>
- Algahtani, F. D., Hassan, S. U., Alsaif, B., & Zrieq, R. (2021). Assessment of the Quality of Life during COVID-19 Pandemic: A Cross-Sectional Survey from the Kingdom of Saudi Arabia. *International journal of environmental research and public health*, 18(3), 847.
- Al-Jahdhami, I., Al-Naamani, k., & Al-Mawali, A. (2020, November 22). The Post-acute COVID-19 Syndrome (Long COVID). *Oman Medical Journal*, 36(1), 2.
- Bizri, A. R., Khachfe, H. H., Fares, M. Y., & Musharrafieh, U. (2021). COVID-19 Pandemic: An Insult Over Injury for Lebanon. *Journal of community health*, 46(3), 487- 493.
- Carfi, A. B.-I.-A. (2020). Persistent symptoms in patients after acute COVID-19. *JAMA*, 324(6), 603–605.
- Carvalho-Schneider, C. L.-T.-M.-G.-G. (2021). Follow-up of adults with noncritical COVID-19 two months after symptom onset. *Clinical microbiology and infection : the official publication of the European Society of Clinical Microbiology and Infectious Diseases*, 27(2), 258-263.
- Elkholi, S., Abdelwahab, M. K., & Abdelhafeez, M. (2021). Impact of the smell loss on the quality of life and adopted coping strategies in COVID-19 patients. *European archives of oto-rhino-laryngology : official journal of the European Federation of Oto-Rhino-Laryngological Societies (EUFOS) : affiliated with the German Society for Oto-Rhino-Laryngology - Head and Neck Surgery*, 278 (9), 3307–3314.
- Hawash, M. M., Alhazmi, A. H., Wafik, W., Muzammil, K., Mushfiq, S., & Ahmed, H. A. (2021). The Association of COVID-19 Pandemic Stress With Health-Related Quality of Life in the Kingdom of Saudi Arabia: A Cross-Sectional Analytical Study. *Frontiers in public health*, 9.
- Houssari, N. (2021). Lebanese cry in pharmacies after subsidies on medicine are lifted. *Arabnews*. <https://arab.news/yfrge>
- Jaffri, A., & Jaffri, U. A. (2020). Post-Intensive care syndrome and COVID-19: crisis after a crisis? *Heart & lung : the journal of critical care*, 49(6), 883-884.
- Nalbandian, A., Sehgal, K., Gupta, A., Madhavan, M. V., McGroder, C., Stevens, J. S., . . .

- Beckley. (2021). Post-acute COVID-19 syndrome. *Nature Medicine*, 27, 601–615.
- Osikomaiya, B., Erinoso, O., Wright, K. O., Odusola, O. A., Babafemi, T., Adeyemi, O., . . . Abayomi, A. (2021). 'Long COVID': persistent COVID-19 symptoms in survivors managed in Lagos State, Nigeria. *BMC Infectious Diseases*.
- Romero-Duarte, Á., Rivera-Izquierdo, M., Guerrero-Fernández de Alba, I., Pérez-Contreras, M., Fernández-Martínez, N. F., Ruiz-Montero, R., . . . Cárdenas-Cruz, A. (2021). Sequelae, persistent symptomatology and outcomes after COVID-19 hospitalization: the ANCOHVID multicentre 6-month follow-up study. *BMC medicine*, 19(1).
- Rosales-Castillo A, García de Los Ríos C, Mediavilla García JD (2021). Persistent symptoms after acute COVID-19 infection: importance of follow-up. *Med Clin (Barc)*;156:35–6.
- Sabbagh, C. (2021). Employees in Lebanon "...the lowest salaries in the face of an economic disaster. *Al Ain News*. Retrieved from <https://al-ain.com/article/lebanon-salary-increase>
- Walker, P. G., Whittaker, C., Watson, O. J., Baguelin, M., Winskill, P., Hamlet, A., . . . Cuomo. (2020). The impact of COVID-19 and strategies for mitigation and suppression in low- and middle-income countries. *Science*, 369(6502), pp. 413-422.
- WHO. (2020). WHO Coronavirus (COVID-19) | WHO Coronavirus (COVID-19) Dashboard With Vaccination Date. Retrieved April 29, 2021, from World Health Organization Web site: <https://covid19.who.int/>

Bella Aoun

Docteure en
psychologie Clinique
et pathologique –
Université Libanaise
– Faculté Des Lettres
et des Sciences
Humaines – Section II
Cheffe de département
de Psychologie –
Université Libanaise-
Section II
Assistante Professeure
Aounbella@gmail.com
9613691797

بيلا عون

دكتورة في علم النفس

العيادي والمرضي-

الجامعة اللبنانية-

كلية الآداب والعلوم

الإنسانية-الفرع الثاني

رئيسة قسم علم النفس

– الجامعة اللبنانية –

أستاذ مساعد

Adolescence, malaise et acting-out

Résumé

L'adolescence se positionne dans une transition comblée de risques. L'adolescent se confronte au danger de la vie afin d'accaparer l'essence de la vie. Cette transition le heurte à un malaise qui se traduit par un acting-out. Cet acting-out est-il un message adressé à l'Autre ? Est-ce une transgression de la loi ?

Mots-clés : Adolescent, Malaise, Acting-out, Le grand Autre.

ملخص

يتم وضع المراهقة في مرحلة انتقالية مليئة بالمخاطر. المراهق يواجه خطر الحياة من أجل احتكار جوهر الحياة. يصيبه هذا الانتقال بالاستياء الذي يترجمًا باندفاعية التصرف. هل هذه اندفاعية التصرف هي رسالة موجهة للآخر؟ هل هذا انتهاك للقانون؟

مفاتيح الكلمات : مراهق، استياء، اندفاعية التصرف، الآخر الكبير

L'adolescence est une transition chargée de risques. L'adolescent escalade le pont d'une vraie vie où le risque prend un sens vital tout en déniait le danger encouru. Se mutiler, addicter, se noyer dans un échec répétitif, s'isoler, pourraient définir le malaise des adolescents. Un malaise qui se traduit par leur acting-out. Cet acting-out s'adresse-t-il à l'Autre ? Est-ce une provocation face à la loi ?

Une pulsion agressive prend place d'un défaut d'investissement d'objet. Thanatos est-il incarné en ce père réel pris comme idéal chez l'adolescent afin pour lui de maintenir sa jouissance ?

J'essaierai dans ce qui suit de réfléchir en termes de clinique adolescente à partir de l'expérience que j'en aie.

L'adolescence est l'après-coup de l'infantile, et juste après la phase de latence. Elle se caractérise par la poussée énergétique de la libido qui peut exploser en violence, par des passages à l'acte et des acting-out, auxquels peuvent s'opposer l'isolement, l'inertie. Ainsi, les adolescents pratiquent des activités à risque ou bien à l'inverse ils présentent des apathies. Cet amalgame traduit cette période de souffrance. Une souffrance imbibée de violence envers soi-même autant qu'envers l'autre. Bergeret, dans *Violence Fondamentale*, décrit la violence en tant que force pulsionnelle, vitale .

L'adolescence se caractérise aussi par l'activation de la pulsion de mort, voire la destructivité au sens freudien. (Pour Lacan, la pulsion de mort s'est logée dans la physique moderne).

« On dit adolescence, on imagine un temps, une période de souffrance, un mélange d'affects, de conduites, de comportements qui sont en irruption perpétuelle de leurs pulsions. C'est un stade de développement humain. L'adolescence est une construction. », écrit J.-A. Miller².

L'adolescent vit en confrontation avec sa métamorphose physique et psychique et aussi son vécu. Il souffre et c'est son corps qui se heurte à ce bouleversement incompréhensible, mais en un sens pour lui seul. C'est là une traduction de ses agirs ; en conflit contradictoire : l'adolescent est taciturne mais expressif dans les agirs.

Les agirs se manifestent en acting out. L'acting-out se définit en une mise en scène de ce que l'adolescent n'a pas pu énoncer, ni de se faire entendre. Lacan reprend qu'à partir d'acting-out qui sont liés à des initiatives de sujets dont la parole est récusée du fait du type de relations qu'ils entretiennent avec leur entourage. Car l'adolescence est ce reflet des signifiants culturels et sociaux.

C'est à travers le corps que l'adolescent adopte son acting-out afin d'exprimer voire exposer la fragilité du registre symbolique.

L'acting-out est une mise en acte agie dans un lien transférentiel entre adolescents et leurs parents. Lacan traduit l'acting-out comme une modalité d'évitement de l'angoisse et insiste sur la monstration de ces agirs.

Une interprétation possible de son malaise, c'est que l'adolescent dépend de la transmission de ses parents - dont nous parlerons plus loin, disons déjà : Tout

parent traumatique produit sa névrose « innocemment » ou non innocemment, il transmet la castration qui fait trou dans le savoir (traumatisme). Le désir chez le père et le désir chez la mère transmettent à leur manière le savoir, la jouissance et l'objet a. Le comportement de l'adolescent est le résultat d'un écho à un stade psychique du parent. Tout cela choit sur l'adolescent et bouleverse son identité, et le place dans un malaise.

L'adolescent est broyé par la pulsion de mort. Les acting-out qu'il commet – dont nous avons cité plus haut quelques-uns -, font que l'adolescent a de la difficulté à être dans le discours.

Apparaissent alors des sortes de mutation par rapport à soi, au corps, à l'autre, aux choses, au temps, à l'espace. Est-ce une réponse au grand Autre ? une voie afin de s'en sortir ? L'échec du symbolique et de l'imaginaire mettent en relief le réel de l'adolescent et ses acting-out.

L'acting-out, de même que le symptôme, enraie l'angoisse afin de s'inscrire dans le rapport à l'autre auquel il fait appel. Pour Lacan, l'acting-out a valeur de message à l'adresse d'un destinataire. « Je act-out quelque chose, parce que ça m'a été lu, traduit, articulé, signifié insuffisamment, ou à côté ». Le corps de l'Autre est visé par les acting-out mais aussi ce corps de l'adolescent est exposé dans le but d'adresser un message à l'Autre.

Le parcours de l'adolescent est marqué par un chaos, un vide où il perd toute continuité. Il décrit son vécu d'incohérent, de tumultes où les carences règnent. Il se perçoit dévalorisé, frustré affectivement, à la recherche de sa vraie position. Il se noie dans une haine de soi-même et des autres, estropié à cause de la destruction d'un appareil psychique irrité. L'excès l'enferme dans une jouissance qui fait éclater l'angoisse de la perte et de l'anéantissement. Ici, s'installe la répétition de ses agirs ; réitération amarrée au se faire croire que l'illusion de ce qu'il imagine existe en vrai.

La vie de l'adolescent est marquée par le destin familial. Il faut se demander sur le sens de sa place dans le mythe familial. En fait, il se peut que l'adolescent remplisse une certaine fonction de support des fantasmes des parents, il arrive qu'il devienne la voie narcissique vers le paradis perdu de ses parents, dont la métonymie du manque pour chacun, serait l'objet a, voire le phallus, l'objet de la jouissance, le symptôme du couple parental, le symptôme de la subjectivité de la mère.

L'adolescent essaie de traiter son manque à être, manque que chacun fabrique dans sa singularité. Par son acting-out, est ce qu'il pourra faire un compromis entre sortir de la scène maternelle afin de rencontrer le père symbolique ?

Je commence d'abord par ce cas où l'acting-out est le retrait social d'une adolescente.

Bdour a 14 ans, elle est en surpoids remarquable. Elle récuse toute apparence féminine. Elle a peur de révéler sa propre identité ; elle tente à tout prix de cacher sa féminité : elle trouve l'introversión et la phobie sociale comme refuge à sa transidentité.

Cette transidentité justifie l'absence scolaire depuis une année. Un sentiment d'être un garçon dans un corps féminin. En sus de son surpoids, elle métamorphose son corps en une sorte de corps poilu.

Elle s'identifie à son frère aîné, qu'elle dit haïr, et à qui elle veut ressembler à tout prix. De même qu'elle dit haïr sa mère, qui se pomponne et s'habille, et met tout en œuvre pour mettre en valeur sa beauté, et en exagérant un aspect ultra féminin, quasi suave.

Le frère à qui Bdour veut ressembler est violent. Il joue le rôle du père. Le père quant à lui est défaillant. Elle le juge trop vulnérable pour s'imposer et par là il lui bloque la reconnaissance d'un père symbolique et donateur. La mère aussi a circuité le passage vers le grand Autre symbolique. La mère n'a pas pu représenter pour Bdour, un modèle d'identification féminine. Le Penisneid aidant, le frère est l'autre semblable de l'identification.

Bdour est le phallus imaginaire de la mère : elle incarne « la présence de ce que Lacan désigne comme objet a dans le fantasme » d'où la jeune fille pourrait être le fétiche d'une mère perverse.

Son retrait de la sphère sociale est corollaire de son retrait de son corps féminin. C'est, dit-elle, pour elle, un échappement à « une confrontation à la frontière entre l'intérieur et l'extérieur de son corps ». C'est ainsi qu'elle se sent « satisfaite », dit-elle. Son retrait est en fait cette jouissance de se retrouver hors d'elle-même, le corps devenant l'objet déchet à détruire.

L'acting-out de Bdour, exprimé par son retrait social, marque une tentative de destruction de son corps sexué.

Je signale brièvement aussi, le cas de cette autre adolescente de 16 ans, qui a souvent recours à la scarification des bras juste après un conflit avec sa mère. La scarification est un acting-out auquel ont recours certains adolescents.

C'est ainsi qu'elle tente d'échapper à la scène maternelle pour aller vers son père. En fait, ce qu'elle recherche un père symbolique, un père donateur. Mais son père est défaillant, trop vulnérable face à la mère. Elle n'a plus d'échappatoire que de marquer son corps.

« Le réel, disait Lacan, est l'impossible à démontrer, le vrai dans le registre d'une

articulation symbolique » c'est-à-dire si ce savoir de l'impossible s'abstient, se manifestera un faux savoir de la paternité. C'est le père manquant qui introduit l'impossible. La vulnérabilité du père, sa défaillance peut donc émerger vers une version envahissante d'un père fantasmé.

L'adolescente est renvoyée au maternel. Elle continue à vivre son acting-out de façon compulsive. Objet du symptôme-mère elle se heurte à l'imaginaire de la scarification comme symptôme représenté non symboliquement mais imaginairement sur le corps.

La scarification est un acting-out afin de désigner cette inscription de la coupure du retour au lien primitif maternel.

En conclusion, disons que l'adolescent par son acting-out, est à la recherche de se faire reconnaître, à trouver une position sociale lui permettant d'abdiquer de sa place infantile et de se libérer de la jouissance de ses parents.

Forget signale que l'adolescent se voit dès lors privé par l'autre de la reconnaissance de sa division subjective, privé de ce qui est le vecteur de son énonciation, privé de la référence au signifiant manquant de l'Autre qui lui permettrait de se situer comme sujet à l'égard de ce signifiant.

Avec l'acting-out, l'adolescent se met dans la position d'être vu, il est l'acteur en scène.

En somme, l'adolescent veut sortir de la scène maternelle, le père n'est pas là donc il use d'acting-out.

¹ Bergeret J., Violence fondamentale, Dunod, Paris, 2014.

² Miller J,A., En direction de l'adolescence, Intervention de cloture à la 3e journée de l'Institut de l'Enfant.

Lacan J., Le séminaire Livre XIV, la logique du fantasme, 1966-67, version staferla

Références

- Anzieu D., (1985), *Le Moi Peau*. Ed. Dunod, Coll. Psychismes, Paris.
- Bergeret j.(2014). *La violence fondamentale*, Dunod, Paris.
- Forget JM., *Des difficultés pour se faire entendre, érés*, 2022, Paris
- Freud S., *Pulsions et destins des pulsions*, Paris, Payot, coll. Petite Bibliothèque 2010
- Freud S., (2002), *Cinq leçons sur la psychanalyse*, Payot
- Kestenberg E., (1999), *L'adolescence à vif*. Ed. PUF, Coll. Le fil rouge, Paris.
- Lacan J., (1966), *Ecrits*, Seuil, Paris
- Roussillon R., (2004), *Agonie, Clivage et Symbolisation*. Ed. PUF, Paris